ايتيل عدنان

قبر ثوري من اجل عمان

I

كنت ذاهبةً الى عمّان
غير أن السيّارة انزلقت
وثقبتُ جداراً
كان هنديٌ أحمر ينامُ
وقد أيقظته
صرخت : ثمةَ إبادةٌ جماعية جارية
إبادة جماعية للعرب تقوم بها أميركا
صرخت .
لم يجب الهندي الاحمر مطلقاً :
أمامه رمالٌ ملونة
علامة الشمس
صليبٌ معقوف
ورواقٌ قرأتُ عليه
اسم مايا كوفسكي
هل يمكنكم أن تنتظروا
من هؤلاء الذين
ابادوا الهندي الاحمر
غيرَ أن يبيدوا
الاصفرَ والاسمر
وأنت وانا
والمجرّةَ ،
ذات يوم ؟

II

ما اجمل الموتى
يتمددون على الخشب في أكفانهم الضيقة

اكثر جمالاً ، اولئـــك
الشهـــداء الذين لم يعرفوا كفناً
بين الجزائر وجبل عمـــان .
كأنهم ساروا في الليل ،
وما يزالون يسيرون
بين الجزائر وجبل عمـــان ،
جاؤوا ليغتسلوا في النهر الذي وجدوه بلا ماء
نهر خياناتنـــا
وهيجاناتِنا الكسيحة
ونصرنا الجنـــائزي ...
سلامـــاً ، يا آلاف القتلى
من اجل غداءٍ
للسلطان !

III

أمس مات الرفيق لينـــين
قال مايا كوفسكي
امس مات مالكولم إكـــس
قالت زوجته
امس مات جون ف. كندي
قالت الاذاعة
امس مات مارتن لوثر كنغ
قـــال غاندي
امس مات فدائيٌ في عمـــان
قال ابنـــه
امس مات رمسيس الثـــاني
قالت الـ «سي. آي. إي»
امس مات جمـــال عبد الناصر
هل قلت
هل قلنا
هل بكينـــا ...

(نقلها عن الفرنسية أدونيس)

ايتيل عدنان

توم هايدن

الثورة الاميركية الجديدة

« طيلة عشر سنوات ، توسلنا العرش دون انقطاع وبلا جدوى ... »
من « اعلان أسباب حمل السلاح وضرورته »

« أشعر أنني أحد مواطني الحلم الاميركي ، وان النضال الثوري الذي أنا جزء منه هو نضال ضد الكابوس الاميركي ... »

الدريدج كليفر

في الستينيات سرنا الى العرش الحديث عبر دروب الدم المراق . والان تحمل ادارة نيكسون كل هذا الاختبار الى ذروة قاتمة . لقد حطمت الحكومة الحالية جميع الاحلام الليبرالية لانهاء الحرب « مرحليا » من فوق ، وبدلا من ذلك أثارت حربا أوسع قد تتصاعد الى هجمات نووية على الفيتنام والصين . وقد صممت الحكومة نفسها حربا ضد تحرير السود في الداخل عن طريق هجمات عسكرية على الفهود السود و « الاعمال الحميد » للسود بوجه عام . وكانت الدعاوة المحرقة واتهامات المؤامرات وحوادث القتل في جامعات بيركلي وسانتا برباره وكنت هي ردة الفعل الرسمية الرئيسية تجاه المغتربين من الشبان البيض .

اننا نعيش في أزمة دستورية . لم تغتصب القوى الحاكمة السلطة من الشعب فحسب بل اغتصبتها كذلك من شيوخها ونوابها هي بالذات ، حتى لم يعد يعرف الا رئيس الجمهورية ومجلسه الاستشاري العسكري — الصناعي أين ستقع الحرب التالية . ويقال ان نيكسون طلب من شركة راند ان تضع دراسة لوسيلة اعلان الحكم العرفي وتعليق انتخابات عام ١٩٧٢ .

علينا أن نجابه فورا هذه الازمة ، حتى وان لم تؤد المجابهة الا الى تأجيل التصعيد وفضحه أكثر فأكثر أمام الشعب الاميركي . ان اضراب الطلاب الذي لا سابق له والذي بدأ في نيو هافن سيستمر على الارجح ويتسع بحلول الخريف . وسيعمل المجلس القاري الثوري هذا الصيف وتظاهرة أيلول المقررة في الامم المتحدة على حشد الشعب هنا وفي الخارج ضد الخطر المهدد الذي أصبحت تمثله حكومتنا .

لكن الازمة لن تحل بانتخاب بضعة « ليبراليين » اخرين ، ولا بالحملات ،

ولا حتى بالاضرابات ، ضد سياسة معينة • لقد تعلمنا من فشلنا في جعل النظام يعمل خلال الاعوام العشرة الاخيرة أمثولة مهمة للغاية : يستطيع العاديون من الناس أن يصنعوا التاريخ فعلا • واذا ما أخذنا تلك الامثولة كنقطة انطلاق ووجهنا نظرنا الى السبعينيات ، يجب أن نرى استراتيجية ثورية قائمة منذ الان في الطريقة التي يتحرك بها الشعب ضد البنى التي تضطهدهم •

أولا ، لم تعد بنا حاجة الى الاعتقاد أن احتجاج الستينيات اقتصر على فئات هامشية تقف عند حافة الجنون • وليست هناك أكثرية صامتة جديدة تنمو لتحل محل الاكثرية القديمة • ان أكثر من نصف الشعب في مجتمع السود ، على حد قول مجلة تايم ، يتجه اتجاها ايجابيا نحو حركة الفهود (وعدد الشبان بينهم أكبر بكثير من عدد المتقدمين في السن)• وبين البيض، حيث اعتمد تفسير « حافة الجنون » أكثر ما اعتمد ، تظهر الراديكالية قوة كذلك — حتى في استفتاءات النظام • أظهر استفتاء من أشهر الاستفتاءات ، أجرته مجلة فورتشون عام ١٩٦٨ ، ان ٧٥٠ الف طالب من الذين كان « يجب أن يكونوا أكثر ادراكا » يتمثلون باليسار الجديد ، فيما يمثل مليونان أو ثلاثة ملايين طالب اخر قاعدة مساندة • وتعترف فورتشون قائلة : « ان هذا الجيل الطالع هو حتما الاكثر امتاعا في تاريخ الولايات المتحدة ••• وسيشرف عما قريب على التغييرات الثورية التي تنتظرنا » • والان بعد أن أخذ الملايين من الطلاب في جميع أنحاء أميركا يغلقون مدارسهم احتجاجا على الحرب والقمع ، هل يسعنا أن نشك في أعدادنا الكامنة الضخمة ؟

لا يسعنا الاعتقاد بعد الان بأننا نجتاز ببساطة فترة « فجوة بين الاجيال » • هذه النظرية السطحية تنسب النزاع الاجتماعي الى فشل المواصلات • منذ بدايات الاحتجاج لعشرة أعوام خلت كان يقال لنا ان الراديكالية هي جزء من دورة التاريخ ، وان الطالب الجامعي الراديكالي اليوم يضحي ليبراليا معتدلا في سن الثلاثين ومواطنا مسؤولا في الاربعين ولكن بعد عقد من الزمن تبدو هذه الفجوة واسعة اتساع الفجوة بين الارض والمريخ •

ان عبارة « فجوة بين الاجيال » هي تعبير ملطف للموقع الجديد للصراع الطبقي • فنحن لسنا حافة الجنون ، بل نحن شعب جديد ينهض من اطلال الامبراطورية الاميركية • وليس مستغربا أن تواجه مجلات كمجلتي فورتشون وتايم صعوبة في التوصل الى هذا الاستنتاج لان هذا سيدمر لعبتها ، وسيكون عليها آنذاك أن تشير الى ذاتها ، الى نظامها الرأسمالي الدولي ، لتجد أسباب الثورة •

ان الرأسمالية الاميركية الحديثة تحكم على نفسها بالهلاك في صميم عملية تطورها ذاته • وقد نشأ وضعها الراهن من الازمة الاقتصادية الكبرى في الثلاثينيات والحرب العالمية الثانية حينما اندمجت الاعمال الخاصة والدولة والعسكر في بنية مركزية للسلطة مع المستوى التكنولوجي الاكثر تقدما في العالم • وكانت النتيجة انهيارا تاما للصور والقيم التقليدية ، وفصل القاعدة المادية للمجتمع عن بنيتها الفوقية الثقافية ، وانهيار السيطرة على الجيل الجديد انهيارا دائما •

وأصبحت الملكية الخاصة والاخلاقيـــة الطهرية مفاهيم عتيقة ، مع ان ديناصورات كعائلة نيكسون استمرت تصادق عليها • واستبدل رجال الاعمال المغامرون برجال التنظيم المتثلين • ولاول مرة في التاريخ شعر معظم الناس بأن لديهم ضمانة ضد الجوع وان بوسعهم ان يتصوروا حياة أقل تنافسية ، حياة وراء الفاقة •

كذلك أصبحت العسكرية والعنصرية قيما عتيقة في العالم اللاحـــق للحرب • وفي الوقت الذي حذر رؤساء الجمهورية المتعاقبون من أن سبـاق التسلح هو في النهاية غير عاقل ومن أن العنصرية غير جائزة في عالم الامـــم الجديد ، كنا نراقب فيما سمحت الحكومة لهذه المشكلات بأن تصبح أكثـــر خطرا مع كل سنة •

ان التناقض الرئيسي في أميركا هو بين نظام محتضر ، منحط ، وجميع الذين لهم مصلحة في المستقبل • ولحظة يبدو النظام أكثر انهاكا ونفادا فـي طاقته على حل المشكلات التي خلقها ، نراه يلد جيلا دائم التململ ويتمتع بالحرية ليكون مثاليا •

بيد أن التغييرات « الداخلية » في الرأسمالية الاميركية ليست هي التي تسبب الازمة ببساطة • فتلك التغييرات مصممة الى حد كبير لمواجهة العملية الثورية العالمية النطاق التي أطلقت في الحقبة اللاحقة للحـــرب • وتتعرض الولايات المتحدة ، بوصفها الدعامة الرئيسية للعالم الحر ، لهجوم الثـــورة الاشتراكية والمناهضة للاستعمار من جميع الجهات • وبما أن الولايات المتحدة هي طليعة القوى المضادة للثورة ، فانها مجبرة على استثمار مبالغ متعاظمة من المال في سبيل « الدفاع » ، وعلى أن تهمل حتى الاحتياجات الداخلية المتواضعة ، وعلى أن تصبح بربرية في عنفها • لقد انتقلت صورة المثالية من الحكومـــة الاميركية (التي كان باستطاعتها في الحرب العالمية الثانية أن ترتدي وجهـــا معاديا للفاشية ، وأن تعلن حتى في عام ١٩٦٠ عن تأليف « فيلق السلام ») الى ثوار العالم ، وبينهم السود في الداخل • هذه الموجة الثورية المتصاعدة تفتح أعين الاميركيين يوميا ، لا على دور حكومتنا فحسب بل كذلك على مثالية وتفاؤل شعوب تنهض من كبوتها في جميع أنحاء العالم • فقد تغير العالم من « قـــرن أميركي » ذي بعد واحد (عام ١٩٤٥) الى عالم امبراطورية وثورة ذي بعدين • وكل انسان مواجه بهذه الرسالة : **أنت ، اما جزء من المشكلة أو جزء من الحل** •

ان كل شاب وشابة في أميركا يشعر بهذه الحالة بطريقة ما • فهـــم يعرفون ، أولا ، ان لدى الولايات المتحدة القدرة التقنية لخلق ضمان اقتصادي وحياة أفضل للجميع في العالم ، وثانيـــا ، ان عالما جديدا يتألف لن يـكون فيه مكان للتنافس والعنصرية والفساد السائد في أواسط الجيل المتربع في السلطة الان •

ولهذا السبب يعتبر نهوض حركة طالبية أميركية في هذا العقد الاخير من الزمن حدثا ثوريا ، لا حدثا روتينيا • وفي الواقع ان الولايات المتحدة لم تختبر أثناء تدرجها الى الامبراطورية « اضطرابا طلابيا » على النطاق الذي تختبره الان • وللعثور على أية مشابهات يضطر المرء الى النظر الى بلدان اخرى أشارت فيهـــا

الحركات الطالبية الى تغير جوهري • وبدل أن يرى مقاومو التغير الرومنطيقيون ثورة الشبيبة الاميركية « كلهثة أخيرة » ، كما فعل علماء الاجتماع والصحافيون أحيانا كثيرة ، في الستينات ، فانه يمكن فهمها فهماً أفضل كبشير بتغيير عظيم • ان انهيار النظام الاجتماعي يشعر به أولا ودوما الشبان ، الطلاب ، الفئة التي عليها أن تخطط للمستقبل •

ان ما يعنيه هذا ، في الوقت الحاضر ، هو أن « الشباب » Youth أهم من « الطبقة الاقتصادية » في تحليل الصراع الاميركي • منذ جيل ، كانت الطبقة العاملة الصناعية هي التي شعرت بأقوى صدمات التغير الصناعي • ولكن منذ الحرب ، كان الشبان والشابات من جميع الطبقات الضحايا الرئيسيين الذين يحملون عبء الامبراطورية المتوسعة • ومعظم الشبان والشابات هم في المدرسة أو في الجيش أو عاطلون عن العمل • وهم مقيدون كفنيين ودعاويين وعمال خدمة أو عمال يدويين بأمبريالية تدمر قيمهم وتفرض عليهم الضرائب وتجندهم لحروب باطلة • وعندما نرى ان ثورة الشبيبة هي ثورة دولية ، تقع حول القضايا نفسها في المانيا الغربية وايطاليا وفرنسا وجميع « البلـــدان المتقدمة » المرتبطة بالولايات المتحدة ، فاننا ندرك ان الازمة هي حقا أزمـــة امبريالية عالمية آخذة بالانحلال •

ان السلطات الرسمية الراهنة هي ديناصورات ، فمع انها في السلطة ، فهي في طريق الانقراض السريع • وعندما يواجه الشبان والشابات رتشارد نيكسون وسبيرو أغنيو ورونالد ريغان * وجوليوس هوفمان ** ، يشعرون للحال بأن الحوار مستحيل معهم استحالته مع أجدادهم الاقدمين • فهؤلاء الحكـــام يواجهون أزمة ميراث حقيقية • فهم حتى ضمن طبقتهم الاجتماعية الخاصة يرون أبناءهم وبناتهم على المتاريس ، أو يدخنون الماريوانا أو يتمردون على المجتمع • ويشعرون ان لا مستقبل لهم ، وبصورة دفاعية يتحدثون عن « أكثرية صامتة » • وهم كالجنرال كستر ***Custer خطرون وعاجزون في آن : **يستطيعون أن يقتلوا لكنهم لا يستطيعون أن يكسبوا أبدا •**

واذا ما رأينا نيكسون وأغنيو في هذا الاطـــار ، فانهما يظهران عـــلى حقيقتهما ، حقيقة كونهما مدعيان خطران • انهما متحجران عائشان Living Fossils ، تكمن جذورهما في الغالب بين عناصر السكان الاكثر انحطاطـا وشيخوخة • وفي حالتيهما ، أمست القوة منفصلة عن السلطة • وتكمن قوتهما في الآلية التي يستخدمانها لفرض الضرائب على الناس وتجنيدهم ومعاملتهـم بوحشية • ولكنهمـــا يفتقران الى موافقـــة المحكومين في المجابر والجامعـات والمدارس الثانوية • وبفقدانهما السيطرة على الجيش الالزامي ، يتحولان تحولا متزايدا الى الاستعانة بأشخاص يحترفون أساليب الغيستابو في الداخـــل والخارج • وفي أفضل الحالات ، يحكمان نصف مجتمع ــ وهو نصفه الشائخ •

ان أحد الاسباب التي تجعلهما يبدوان قويـــين الى هذا الحـــد هو أن

* حاكم ولاية كاليفورنيا اليميني ، وهو ممثل سينمائي سابق •

** قاضي محاكمة « مؤامرة شيكاغو » التي يدور حولها هذا الكتاب •

*** جنرال اميركي اشتهر بمعاركه المثيرة للجدل ضد الهنود الحمر في القرن التاسع عشر •

معارضتهما ــ الديموقراطيين الليبراليين ــ قد أضاعت اعتبارها تماما • فالليبراليون ، خلافا للراديكاليين والمحافظين ، يفتقرون الى برنامج أو ايديولوجيا تساعدهم على فهم هذه الازمة • عندما استضافت جامعة يايل اجتماعا حاشدا في عيد الاول من أيار للفهود السود ، تحسر أحد رسميي الجامعة على انعدام وجود أية قوة سياسية « بين متهمي مؤامرة شيكاغو السبعة وسبيرو أغنيو » • لا يجوز لهذا الليبرالي أن يجد صعوبة في فهم أزمة الليبرالية اذ ان خليفته هي في وزارة الدفاع • فان الزواج بين الليبرالية اللاحقة للحرب والمؤسسات الاساسية الاميركية هو عينه الذي منع الليبرالية من طرح بديل ذي معنى •

ومن المعقول ان تنتعش الليبرالية ، وان لم يكن انتعاشها الا بسبب ضعف نيكسون وأغنيو الشديد • ان برنامجا ليبراليا جديدا ــ يشتمل على الانسحاب من الفيتنام ، ووضع الاموال المخصصة لمكافحة الفقر تحت اشراف الجماعات المعنية مباشرة ، وتخفيض الموازنة العسكرية ، وحقوق قانونية جديدة للطلاب وأبناء الجيل الجديد ، وتشريع للمخدرات الخ ••• سيتمتع بتأييد جماهيري بين الناخبين في السبعينيات • الا ان الليبرالية لا تملك ارادة مقاومة النظام ، كما لا تملك أية آلية انتخابية بالنظر الى وقوع الحزب الديموقراطي تحت سيطرة النقابيين والحزبيين المحترفين • والى ذلك ، وحتى لو افترضنا انبعاث الليبرالية ، وحتى لو افترضنا وصول ليبراليين أمثال جون ليندسي أو رمزي كلارك أو كينغمان بروستر الى منصب رئاسة الجمهورية ، فان ادخال المسكنات قد لا يزيد الازمة الاجتماعية الا اشتعالا ، بدل أن يهدئها • ان الموقف المهدد الذي تقفه شرطة نيويورك ومواطنو المدينة المحافظون من رئيس بلديتها جون ليندسي ليس الا مقدمة بسيطة لما يخبئه التحالف العسكري ــ الصناعي لرئيس جمهورية ذي عقلية اصلاحية • ويكفي حتى التهديد بالاصلاح لتجنيد القوة المحافظة من أجل مواجهة نهائية • وفي أزمة متفاقمة ، ستخرج العناصر النشيطة المضادة للثورة لدحر الليبراليين بالاصوات الانتخابية أو بالرصاص • وبدل أن نعقد الامل على مخلص سياسي أو على انتعاش السياسة الليبرالية التي أخفقت في الستينيات ، فاننا نرى في حركة احتجاجنا البذور التي نخلق منها مؤسسات حكمنا في المستقبل • فلا يجوز أن نعقد الامل على آلية أثبتت عدم فعاليتها ، بل يجب أن نبدأ بخلق آلية جديدة لتلبية احتياجاتنا •

اذا ما نظرنا الى أية حركة ثورية ، رأينا انها تتطور عبر ثلاث مراحل متلاحمة الاطراف • المرحلة الاولى هي **الاحتجاج** ، التي يقدم فيها الناس عرائض لحكامهم مطالبين بتغييرات معينة في السياسة • وعندما يصبح مستوى الاحتجاج جسيما ، يبدأ الحكام في ممارسة الضغط لكبته • وهذا بدوره يدفع الشعب نحو المرحلة الثانية ، **المقاومة** ، التي يبدأ فيها بالشك بشرعية الحكام • وفيما يزداد هذا النزاع حدة ، تفضي المقاومة الى مرحلة **تحرير** تتحطم فيها البنية الحاكمة ويقيم الشعب « حراسا جددا » • وقد اختبرت أميركا في الستينات مرحلة الاحتجاج أولا ، ولكن المقاومة أضحت الان شائعة بين السود والشبان • وتحققت فترات تحرير مؤقتة ــ كما حدث عندما احتل الطلبة جامعة كولومبيا طيلة أسبوع واحد وتعلموا أن باستطاعتهم خلق علائق جديدة وحكم أنفسهم •

هذه الاختبارات ، بالطبع ، لا تقدم الا لمحة عن التحرير طالما كان لدى الحكومة قوة بوليسية كافية لاعادة رسميي الجامعات الى مكاتبهم •

في مرحلة المقاومة يصير من الضروري وضع خطط لدحر الشرطة وبناء مجتمع جديد • انه وقت الحساب الذي ستضطر فيه الحكومة اما لسحق المقاومة واستعادة قوتها ، أو تحمل اخفاق متواصل يفتت قاعدتها الخاصة الى درجة خطرة جدا • وبما أن المقاومة تتحدى شرعية طريقة تنظيم الامور ، فانها تكتسب مسؤولية اقتراح ترتيبات جديدة وخلقها •

ان الخطوط العامة لما نريده هي الانواضحة قدر الامكان دون مخطط ثابت جامد • فالحركة الراديكالية تبدأ دائما بأن تخلق داخل نفسها البنى التي ستؤلف في نهاية المطاف قاعدة المجتمع الجديد • لهذا فانه من الضروري النظر الى بنية « الحركة — المتقدمة — الان » لنفهم ما ينبغي تدميره وما ينبغي بناؤه • اننا بحاجة الى مؤتمر قاري جديد لنعرف أين أخفقت مؤسساتنا ، ولنعلن مبادىء جديدة لتنظيم مجتمعنا •

ان المبدأ الاول لاي ترتيب جديد هو **التقرير الذاتي لمستعمراتنا الداخلية** • ان ثورات العالم الثالث في السبعينيات لن تزداد حدة في القارات الاخرى فحسب ، بل هنا داخل الولايات المتحدة كذلك • ان المجابر السوداء هي سلسلة جزر تؤلف مستعمرة داخلية واحدة • ويصح القول نفسه على الشعب البورتوريكي المناضل من أجل الاستقلال في سان جوان ونيويورك وشيكاغو ، وشعب الشيكانو في الولايات الجنوب غربية ، والاسيويين والهنود المناضلين في جالياتهم الصغيرة بالمدن والارياف • ان مفهوم « الدمج » Integration الذي سيطر الى حد بعيد على الوعي في الستينيات يعمي الان معظم الناس عن حقيقة التقرير الذاتي الجديدة • كان يكمن تحت الرغبة في الدمج الايمان الاعمق بأن أميركا هي « أمة واحدة ، لا تتجزأ » • ويبدو من غير المعقول أن هذه البلاد يمكن أن تتفتت فعلا الى أجزاء يتمتع كل جزء منها بحق التقرير الذاتي (أمم في الارض نفسها) ، ومع هذا فان الامور تتطور نحو ذاك الاتجاه الى حد كبير أو صغير • ذلك ان اخفاق الولايات المتحدة في تحقيق التقدم في مناطق التعليم والاعمال والاسكان واصلاح الاراضي هنا في الداخل ، واللجوء المتواصل الى العنف القمعي في وقت لا تبدو فيه « ثورة التوقعات المرتفعة » في أي مكان أقوى مما هي في أميركا ، لا يمكن الا أن يجعلا شعوب العالم الثالث تتحول نحو الاستقلال •

المبدأ الثاني للترتيب الجديد ينبغي أن يكون خلق **أقطار حرة في الوطن — الام** Free Territories in the Mother Country ان المتربعين في السلطة ينظرون الينا منذ الان كغرباء وخارج المدنية البيضاء • ومن الضروري لنا أن نخلق وسط الاطلال المتساقطة لهذه الامبراطورية طريقة حياة جديدة بديلة تكون أكثر انسجاما مع مصالح شعوب العالم •

ان ايبي * رائد في هذا النضال ، ولكن « أمة وودستوك » Woodstock Nation التي دعا اليها حتى الان ثقافية خالصة ، حالة ذهنية

* ايبي هوفمان ، أحد المتهمين السبعة في محاكمة مؤامرة شيكاغو •

يتقاسمها الالوف من الشبان والشابات • والمرحلة التالية : هي جعل « أمة وودستوك » هذه حقيقة منظمة لها مؤسساتها الثورية ولها جذورها في أرضها الخاصة تبدأ للحال • وفي الوقت ذاته ، صارت الحاجة الى التغلب على سجيتنا الغريزية الانانية الذكرية المشبعة بقيم الطبقة الوسطى ، وخصوصا لخلـــق التضامن مع نضالات العالم الثالث ، صارت جزءا أوليا من وعينا •

ان الشعب الجديد في أميركا البيضاء يتجمع في مجابر (غيتو) خاصة به : بيركلي ، هايت ــ أشبري ، ازلا فيزتا ، ماديسون ، آن آربور ، ايست فيلليج ، أبر وست سايد • هذه المجتمعات ، التي كثيرا ما تقام عند طـــرف الجامعات ، ليست الجيوب البوهيمية التي كانت منتشرة منذ عشرة أعوام • فتلك الامكنة ، ومنها غرينويتش فيلليج ونورث بيتش مثلا ، تطورت عندما كان المتغربون ما يزالون جماعة هامشية • أما الان فان الملايين من الشبان والشابات لا يجدون مكانا اخر يذهبون اليه • فيحيون بثمن زهيد في مجتمعاتهم الخاصة ، يذهبون الى المدرسة أو الى الجامعات الحرة المختلفة ، يدرسون الحرف والمهارات الجديدة ، يتعلمون الدفاع عن الذات ، يقرأون الجرائد السرية ، يشتركون في التظاهرات • والنواة الصلبة لهذه الاقطار الجديدة هم الخارجون من التراكـم البورجوازي والمتمردون على طريقة الحياة الاميركية • لكن ثمة ، في أي مجتمع كهذا ، مقتطف نموذجي Cross - Section من الاشخاص الذيـن تتداخل احتياجاتهم • ففي بيركلي ، مثلا ، هناك طلبة وأبناء شارع وليبراليون يساريون وسود ، يؤلفون معا أكثرية سياسية راديكالية للمدينة • وأمثال هذه المجتمعات تكاد أن تكون غريبة بالنسبة للشرطة و « المواطنين الصلبين » كالمجابر السوداء •

ان أهمية هذه المجتمعات هي انها تضيف بعدا اقليميا ، بعد فضاء مادي حقيقي ، لوعي الذين في داخلها • فالانفصال النهائي مع أميركا التيار الرئيسي يأتي عندما **لا تستطيع** فعلا العيش هناك ، عندما يصبح من الحتمي أن تحيـا حياة أوثق مع من هم « من نوعك » •

حتى الاونة الاخيرة كان الاشخاص يخرجون عن المجتمع نظريا أو الى جيوب بوهيمية صغيرة • أما الان فانهم يخرجون عن المجتمع بصورة جماعية ، والى أرض جديدة • وفي هذه الحالة يحل مكان مشاعر العزلة الفردية وعـــي مشترك بأعداد كبيرة تتقاسم الاحتياجات نفسها • فأني ذهبت في أميركا يمكنك أن تجد ذلك القسم من المدينة الذي يسكنه الخارجون والمتمردون والراديكاليون• انها شبكة تشمل الامة كلها من الناس الذين يعانون الضغط نفسه ، ويمارسون اللغة ذاتها ، والموسيقى ذاتها ، والاساليب والاحتياجات والمظالم ذاتها : الجوهر الحقيقي لمجتمع جديد يتأسس وينمو في اطار المجتمع القديم •

وتنظر الطبقة الحاكمة الى هذا النمط برعب متزايد ، ويحلل أبناء الطبقة الحاكمة أماكن مثل بيركلي على انها « مناطق حمراء » كالمناطق التي يحاولون تدميرها في فيتنام • وتنشغل الجامعات ووكالات تجديد المدن في كل مكـــان بالتحرك الى داخل مجتمعاتنا وتدميرها ، فتحطمها ماديا ، وترفع الايجارات ، وتهدم المساكن الزهيدة الايجار وتستبدلها بفنادق ومراكز للمؤتمرات ومبان

جامعية • ويعلن السياسيون عن « موجة جرائم » (مخدرات) ويضاعفون دوريات الشرطة • ويتعرض عشرات الالوف من الشبان والشابات للمضايقة والحبس والطرد •

في كل ثورة عظيمة كانت هناك أمثال هذه « المناطق المحررة » حيث ترسخت الراديكالية بعمق ، وحيث حاول الناس ان يلبوا احتياجاتهم الخاصة فيما هم يقاومون السلطة الحاكمة الرسمية ويصدونها • واذا كان ثمة تغيير ثوري داخل الوطن ، فانه سيبدأ في أماكن مثل بيركلي وماديسون ، حيث الناس متأصلون الى الحد نفسه وحيث ندافع عن أنفسنا ضد عدوان نام باستمرار •

ان مفهوم الاقطار الحرة لا يعني نضالات محلية من أجل « السيطرة على المجتمع » بالمعنى التقليدي ـ معارك تقتصر عادة على السياسة الانتخابية والمناورة للسيطرة على المخصصات المالية من حكومة الولاية أو الحكومة الاتحادية • فان نضالاتنا ستهمل أو تقاوم الى حد كبير الادارة الخارجية ، وبالاحرى تبني مؤسساتنا وتدافع عنها •

كما ان المفهوم لا يعني الانسحاب الى جيوب راديكالية مريحة وبعيدة عن بقية أميركا • فالاقطار يجب أن تكون المراكز التي يشن منها التحدي للمؤسسة كلها •

سيكون لمثل هذه الاقطار الحرة أربع نقاط هوية مشتركة :

أولا ، ستكون مراكز طوباوية للاختبار الثقافي الجديد • ان لعبارة « السلطة كلها للمخيلة » معنى حقيقيا لاشخاص يختبرون انهيار ثقافتنا المنحطة • وفي الاقطار سيتم قلب ، أو على الاقل اعادة تفحص كل العلاقات الاجتماعية التقليدية ـ بدءا بظلم النساء • وستستبدل العائلة النووية بمزيج من الكومونات والعائلات الموسعة ومراكز الاطفال والمدارس الجديدة • وسيكون للنساء كوموناتهن ومنظماتهن الخاصة • وسيعاد تحديد العمل بوصفه مهمة تؤدى للمجتمع ، أو بوصفه لعبا • وستستخدم المخدرات عموما كوسيلة لتعميق الوعي الذاتي • وستدمر البنى المدينية وتستبدل بالمنتزهات والشوارع المغلقة والفناءات الخلفية الموسعة داخل المجمعات العمارية ، ويشجع مناخ القرية بعامة • وسيعاد تنظيم التعليم على خطوط ثورية ، مع مشاركة الاولاد فعلا • وستحرر الموسيقى والفن من السيطرة التجارية وتعرض على نطاق واسع في المجتمع • وسيكون الهدف عند جميع المستويات ان نخلص شخصياتنا من الانانية والمنافسة والاعتداء •

ثانيا ، ستكون الاقطار دولية • فالاختبار الثقافي بلا دولية هو امتياز ، والدولية بلا ثورة ثقافية هي وعي باطل • سيتصرف الناس في أقطارنا كمواطنين لمجتمع دولي ، قوة مانعة داخل الامبريالية • وستكون لجان التضامن لمساعدة نضالات العالم الثالث في حركة دائبة • وسيرى كل قطر نفسه « كمدينة دولية » • وستتخلل القطر أعلام وموسيقى وثقافة البلدان الاخرى وحركات التحرير الاخرى • وسيكون السفر و « العلاقات الاجنبية » مع الامم الاخرى امورا اعتيادية عمومية • وستكون كل المؤسسات الامبريالية (الجامعات ، مجالس التجنيد العسكري ، الشركات) التي هي داخل القطر أو قربه تحت

حصار متواصل • وستوجد شبكة مواصلات تحت الارض لمساعدة الهاربين الثوريين •

ثالثا ، **ستكون الاقطار مراكز مواجهة متواصلة ، جبهات معارك داخل الوطن** • وستكون المؤسسات الكبرى كالجامعات والشركات تحت ضغط متواصل اما لتوقف أعمالها أو لتخدم المجتمع • وستقاوم الشرطة المحتلة مقاومة منظمة • وسيضغط على المتاجر لتحويل أنفسها الى مؤسسات تخدم المجتمع • وستسعى **اتحادات المستأجرين** الى تحطيم سيطرة الملاكين العائشين بعيدا عن أملاكهم والى تحويل المساكن المحلية الى ملاذ مشترك • وسيكون هناك تحد مستمر لقوانين الضرائب والتجنيد العسكري الاجباري والمخدرات ، وستنطلق حملات الاحتجاج ذات الاهمية الوطنية ، كالحركة المناهضة للحرب ، من داخل الاقطار • ان عملية المواجهة المتواصلة لن تضعف سيطرة بنية السلطة وحسب ، ولكنها ستخدم كذلك لخلق شعور عظيم بهويتنا الخاصة ، بامكاناتنا الخاصة •

رابعا ، **ستكون مراكز بقاء ودفاع عن النفس** • ستضم الاقطار خدمات طبية وقضائية مجانية ، ومراكز العناية بالاطفال ، وعيادات المخدرات ، وشبكات اتصال سريع ، ومراكز توزيع الاعمال والشؤون الاجتماعية — جميع الخدمات الاساسية لتلبية احتياجات الشعب فيما يكافح ويتغير • وسيصير التدريب على الدفاع الذاتي الجسدي واستخدام الاسلحة أمرا عاما فيما تزداد الفاشية والبوليسية اليمينية •

وسيقع النشاط ، وحتى النشاط الثوري ، داخل الاقطار وخارجها • وسيكون الكثير منه ضمن مؤسسات (أماكن العمل ، قواعد الجيش ، المدارس ، وحتى « وراء خطوط العدو » في الحكومة) • ولكن الاقطار ستكون بمثابة نماذج أو منارات للذين يناضلون ضمن هذه المؤسسات ، وسيميل التوتر الاساسي الى أن يقع دوما بين السلطات والاقطار التي تسحب الشعب من التيار الرئيسي •

وستوطد الاقطار بصورة ثابتة الطبيعة المستقطبة للوطن • ولن يعود بامكان الاميركيين أن ينظروا نظرة مريحة الى أنفسهم بوصفهم مجتمعا متجانسا فيه بضعة متطرفين عند الاطراف • ولن يعود بامكان السياسيين والاداريين أن يشعروا شعور الثقة بقوتهم لحكم الولايات المتحدة كلها • فتحت سطح السلطة الرسمية ، ستكون الاقطار تلد مراكز قوة جديدة •

وفي المستقبل المنظور ، ستضطر الاقطار الحرة الى العمل باستراتيجية « سلطة مزدوجة » — أي ان الشعب سيبقى ضمن البنية الشرعية للولايات المتحدة ، قسرا ان لم يكن لاي سبب اخر ، فيما هو يبني أشكالا جديدة يستبدل بها تلك البنية • وسيكون دفع هذه الاشكال الجديدة هو المقاومة ضد السلطة الخارجية غير الشرعية ، ومحاولات مستمرة للحكم الذاتي •

وسيكون لراديكالية الوطن أشكالها التنظيمية الفريدة من نوعها • لقد تحولت الحركات الثورية نحو مفهوم حزب « طليعي » مركزي منضبط ذي قاعدة وطنية يقود مجموعة متنوعة من المنظمات الجماهيرية التي تمثل مصالح معينة (النساء ، العمال ، الطلاب ، الخ •) • ان هذا الشكل التنظيمي منطقي حيث

يكون الشعب منضبطا بحالته (كما في مصنع كبير) أو حيث يكون الهدف « سلطة الدولة » • ولكنه ليس واضحا ان مثل هذا الشكل التنظيمي ضروري ـ الان على الاقل ـ لراديكالية الوطن • مما لا ريب فيه انه لا بد من التغلب على الفردية والانانية المفرطة التي تسيطر على ثقافة الجيل الجديد اذا ما أردنا البقاء ، ناهيك بصنع ثورة • الا انه ينبغي على الشكل التنظيمي أن يكون ملائما لنوع الثورة التي نحاول احداثها • ولهذا السبب فان **الجماعية** بشكل من أشكالها يجب أن تكون أساس التنظيم الثوري •

لن تكون الجماعية الثورية شبيهة بالمنظمات التي نرتبط بها جزءا من الوقت اليوم ، من النوع الذي نحضر اجتماعاته ، و « نشترك » فيه بالكلام أو التصويت وربما نتعلم فيه كيفية استخدام الالة الناسخة • بل ستتصل الجماعيات اتصالا أكبر بكثير بحيواتنا **الكاملة** • وبدل أن ننمي مواهبنا ضمن المدارس وغيرها من هيئات المؤسسة ، سننميها بالدرجة الاولى ضمن جماعياتنا ، وفي هذه الجماعات سنتعلم السياسة والدفاع الذاتي واللغات وعلم التبيؤ والمهارات الطبية والاساليب الصناعية ـ أي كل ما من شأنه أن يساعد الشعب على النمو نحو الاستقلال • وهكذا فان الجماعية لن تكون أسلحة تنظيمية للاستخدام ضد المؤسسة وحسب ، بل ستكون كذلك وسائل ترعى نمو الشعب الثوري •

ان التشديد في هذا النوع من التنظيم سيكون على السلطة من تحت • وهي تبدأ في الارتياب بالمنظمات ذات المركزية العالية أو التي تسيطر عليها النخبة • ولكن يجب أن ندرك أن اللامركزية يمكن أن تنحط الى فوضى وقبلية • وينبغي أن تشدد الجماعيات على الحاجة الى الوحدة والتعاون ، خصوصا في مشاريع تتطلب أعدادا كبيرا أو حينما تكون المصالح المشتركة مهددة بالخطر • وعلينا أن ننشد فوائد السلطة المنسقة فيما نتجنب مشكلة قيام ترتيب هرمي ثابت • ويمكن لشبكة من الجماعيات ان تتصرف « كمجلس ثوري » لقطر معين كما يمكن لشبكة مجالس كهذه أن توحد الاقطار في جميع أنحاء الولايات المتحدة وبالاضافة الى مثل هذا التنسيق السياسي ، فان الاقطار يمكن أن تتحد عن طريق صحف وثقافة سرية ، وعن طريق المؤتمرات والسفر المتواصل •

وأخيرا وقبل أي شيء ، لا يعني مفهوم الاقطار الحرة أن حركة الشبيبة هي منذ الان « ثورية » ، الا من حيث طاقتها الكامنة • فليست الاقطار الا شكلا يستمر فيه النضال • ويبقى على « حركة الطلاب » و « ثقافة الشبيبة » أن تعالجا انتشار **مواقف الطبقة الوسطى الذكرية البيضاء** • فلا الطلاب المضربون ولا الخارجون عن المجتمع المخدرون في الشارع يؤلفون قوة ثورية حقيقية • يجب أن يكون هناك المزيد من التحويل لشخصيتنا على جميع المستويات • وينبغي تعطيل شوفينية الذكر في الحركة السياسية وثقافة « الروك » ، وينبغي استبدال الفردية والانانية بروح جماعية ، وينبغي احلال المطالب في مصلحة الجماهير المكلفة محل مطالب الطبقة الوسطى بالامتيازات • وأخطر مشكلة مباشرة يتوجب علينا حلها هي مشكلة علاقتنا بحركة تحرير العالم الثالث •

ان خلق الاقطار الحرة في الوطن لا ينفصل عن معارك التحرير الوطني

لشعوب العالم الثالث • والاقطار هي طريقة للتحضير من أجل الثورة الدولية الشاسعة التي ستكون الثورة الاميركية المقبلة •

علينا ألا نتبع الدرب الشوفينية التي سار عليها اليسار في حقبات استعمارية اخرى • ويجب أن يكون دعمنا لتحرير السود دعما غير مشروط • يجب أن نبدأ بالتوضيح أنه لن تكون هناك عنصرية ولا هروبية عنصرية في حركة السلام أو في أمة وودستوك • واذا ما كنا جادين حول التحول الى رجال ونساء جدد ، متحررين من الارث الدموي للمدنية الاميركية البيضاء ، فلدينا اذن ، مسؤولية أن نصير أول شعب أبيض في التاريخ يحيا وراء التحديات العنصرية للمصلحة • ان ثمة شيئا عنصريا حول أمة وودستوك — لا عنصرية جورج والاس المألوفة ، بل موقف مسافة يأتي من العيش في العسف الاكثر اراحة — ، الذي شهده العالم حتى اليوم • اننا معرضون دائما لخطر الهرب الى ثورة ثقافية خاصة بنا ، جزيرة صغيرة من عبادة اللذة اللاحقة للفاقة ، والمسالمة ، والوهم بعيدا عن دماء العالم الثالث وناره •

بيد انه بوسع الراديكاليين البيض أن يتبعوا درب ثورتهم الشرعية دون التخلي عن الفيتناميين والسود • وفي الواقع ، لا نستطيع تحقيق احتياجاتنا دون تدمير النظام الاستعماري نفسه الذي يعامل العالم الثالث بوحشية • اننا نقف عند أحد طرفي خط مقاومة يترسخ طرفه الاخر في أميركا السوداء والعالم الثالث • ان الشبان البيض اليوم ، سواء كانوا من الطبقة العاملة أو الطبقة الوسطى، هم أول جيل محفوظ لا مصلحة حقيقية له في وراثة النظام الرأسمالي• لقد اختبرنا بحبوحته وندرك أن الحياة تنطوي على أكثر بكثير من راحة العيش في الضواحي المدنية • ونعرف ، الى ذلك ، ان هذا النظام يتضمن عوامل تدمير نفسه : فالعنصرية والاستغلال والعسكرية لا تؤدي في العالم المعاصر الا الى الحرب والخراب • وفيما نسرح نظرنا فوق قمة الامبريالية ، يجب أن يكون في وسعنا أن نرى ان حلفاءنا الحقيقيين هم هؤلاء الذين يعيشون تحت امتيازها ووراءه ، المعذبون في الارض •

الحق أن ثمة فجوة بين أبناء البحبوحة وأبناء الشقاء ، وان حاجتنا الى أسلوب حياة جديد ، الى تحرير النساء ، الى تحويل العمل ، والى نظام بيئي وتعليمي جديد ، لا يمكن وصفها بلغة ثورة العالم الثالث حيث الفقر والاستغلال والعنف الفاشي هي الازمة المباشرة • ولا نستطيع أن نكون سودا ، كما لا يمكن ائتمان احتياجاتنا الى طليعة عالم ثالث من أي نوع •

ولكن مصيرنا وتحررنا الممكنين لا يمكن فصلهما عن طلائع العالم الثالث • فالتغيير الذي نتحرك حتما نحوه هو تغيير يسلم فيه العالم الابيض ، السلطة والموارد لبشرية مصممة • وليس ثمة فرار — لا الى كومونات ريفية ولا الى تصوف وجودي — من ديناميكية المواجهة العالمية • وبافعالنا كل يوم نقرر أي دور سيكون لنا في مستقبل العالم • وان ما فعلناه وما لم نفعله ، من أجل بوبي سيل ، ومن أجل كوبا ، ومن أجل الفيتنام ، يشير بالضبط الى مركزنا في العالم الجديد الذي يجري خلقه •

سيصرخ البعض ان هذه الصيغة الكونية تنفي قضية الاولويات • كيف

نقرر ما اذا كان يجب العمل أولا ضد العنصرية ، أو الحرب ، أو تفوق الذكر ، أو زيادة الانتاج ؟ تاريخيا ، كان اليسار الابيض يقول بأن على التحرير من الاستعمار أن ينتظر الثورة الاشتراكية أو أن يغرق في ائتلاف الطبقة العاملة السوداء – البيضاء • وبالمنطق نفسه يقول بعض الفهود السود اليوم بأن على حركة النساء أن تنتظر حتى يتحرر السود • ان المصالح الخاصة تبدو معرضة دوما لخطر الخيانة ، وهكذا نتجزأ الى جماعات ذات أولويات مباشرة معينة •

تبدو هذه التجزئة للوهلة الاولى مدعاة يأس • ولكن كون الكثيرين من الناس المختلفين يتحركون في آن معا من أجل تحررهم الخاص يشير الى احتمال ملهم • **فاننا نحيا في زمن رغبة كونية بنظام اجتماعي جديد ، زمن توضع فيه الثورة الشاملة على جدول الاعمال** : هي ليست « ثورة » محدودة ومعينة من أجل الهوية الوطنية هنا ، ومن أجل الطبقة العاملة هناك ، ومن أجل النساء هنالك – ولكنها **من أجل كل البشرية** لبناء طريقة حياة جديدة وأكثر حرية عن طريق اقتسام موارد العالم الشاسعة بمساواة وأخوة • فان شعوب العالم يعتمد بعضها على البعض الاخر الى درجة ان ضربة من أجل الحرية في أي مكان تخلق الاهتزازات في كل مكان • والامبراطورية الاميركية نفسها هي عالمية في نطاقها بحيث انه ، لاول مرة ، لا يوجد للبشرية روح مشتركة فحسب بل كذلك عدو مشترك • ان عددا متزايدا من الثوريين يرون ، بواسطة نضالاتهم المعينة ، احتمالات « الانسان الجديد » الذي تصوره تشي غيفارا • وسيكون مثل هذا الانسان ، الذي نشأ في جيشان دولي ، كونيا في شخصيته لاول مرة في التاريخ • وان تصير مثل هذا الانسان الكامل في الوقت الحاضر ، لا يعني القتال حول المصلحة الذاتية المباشرة فحسب ، بل ضد جميع مستويات العسف في آن معا •

وفي هذا النطاق بالذات يجب أن نفهم الاولويات ، وخصوصا أولوية محاكمة بوبي سيل • فالطلائع ستكتشف في العمل ، والاولويات ستخلق حيث تظهر التصادمات الشاملة بين الوضع القائم والثورة • ان قضية بوبي ، وقمع الفهود السود بعامة ، تجسم تصادما كهذا بالضبط • فقد كان بوبي ورفقاؤه الفهود أول من أطلقوا صرخة حرب التحرير داخل أميركا ، أول حزب ثوري أسود ذي منظور دولي ، أول من هددوا الامبريالية تهديدا كاملا من الداخل • ومما لا ريب فيه ان هذه هي نظرة حكومة الولايات المتحدة الى الفهود السود ، ولهذا تحاول ، بواسطة محاكمة بوبي ، أن تظهر أن اجراءات القتل الجماعي السياسي تنتظر كل من يتمرد ، وعلى كل الذين يقدرون تحررهم ان يسيروا مع الفهود السود وبوبي فيما يصيرون رموزا للانسانية التي تتخذ موقفا أصيلا : الحرية أو الموت •

(نقل هذه الدراسة من الانكليزية الى العربية رجا جورج)

توم هايدن ، أحد القادة البارزين لليسار الجديد في الولايات المتحدة ، ومؤسس الحركة الطلابية المعروفة بـ S. D. S. (الحركة الطلابية من أجل مجتمع ديموقراطي) .

انطون مقدسي

في معنى التراث

الكلمة في بعدها التاريخي

كل أدب مرتبط ببيئة • والبيئة ـ الطبيعية منها والانسانية على حد سواء ـ هذا اذا كان للتمييز بينهما من معنى ـ تراث ، والتراث لغة ، واللغة تاريخ ومعنى ، أو معنى في تاريخ • فاذا كان أجدادنا قد ترجموا عبارة أرسطو المعروفة « الانسان حيوان عاقل » بعبارة « الانسان حيوان ناطق » فلانهم اعتقدوا ـ ضمنا أو صراحة ـ وبحق في كل الاحوال ـ أن العالم الانساني ، بما هو انساني ، عالم لغة •

عالم الحيوان عالم أشياء صماء ، تنطق مع الانسان فتصبح بيانا وحضورا فالعقل والدلالة يأتيان الى الانسان ـ أو بالاحرى يأتي الانسان اليهما ـ عندما ينطق • وفي اللغة يلتقي الانسان ، دفعة واحدة ، بالطبيعة وبذاته وبالانسان ، فينشأ المجتمع الانساني • ولما كان استخدام لغة ما ـ كلاما أو كتابة ـ يعين للانسان موقعا من الوجود ، منه وفيه يرى الموجودات ويتعرف اليها فينفذ الى حقيقتها ، أو يكشف عن هويتها ، (علم آدم الاسماء) أو يتفاعل معها ، فكل أديب ، كل انسان ملتزم تعريفا ولكن قد يكون التزامه في صيغة السلب • ذلك أن الكلمة ـ تعبيرا مفردا كانت أم عبارة ـ ليست اصطلاحا ، بل هي تكثيف لعادات وتقاليد وقيم ، لحساسية وفكر ، لاحداث ومعان ، الخ •• انها تكثيف لماض يتحول ويتفجر في الحاضر ليصبح مستقبلا • أو انها نقطة تقاطع لابعاد كثيرة فيها تتلاقى وتفترق ، واليها تعود ضمن حركة لا تنتهي ، هي حركة الانسان في نموه •

فللكلمة طبيعة نامية ، تستمدها من هذه الابعاد الزمنية وغير الزمنية ، أبعاد لا ينفصل بعضها عن البعض الاخر : فهي حضور واستعادة وتطلع • أو

هي ، بتعبير مجمل ، فسحة تتسع أو تضيق متناسبة مع قدرة الاديب على الابداع • فكل أدب مبتكر ، كل فن جديد ، كل فكر أصيل ، أفق يشقه المبدع لمجتمعه وللانسانية •

اذا كان العالم الانساني ، بما هو انساني ، عالم لغة ، فهو أيضا ، وقبل أن يصبح تعبيرا ، مجموعة أحداث ، لكل منها فرديتها وطبيعتها ، ما أن تحدث حتى تكون قد مضت وانقضت ، طالت مدتها أو قصرت ، عادية كانت أم حاسمة• والكلمة في المنظار الادبي حادثة • أما في المنظار العلمي فهي مفهوم يرى في الفردي كلياته ، ويترجم المشخص الى لغة المجرد فيكشف عن أبعاده العقلية • والحادثة كالكلمة موقف كلاهما ينطلق من موقع ليفتح أمام الانسان أفق المستقبل • لقد خضنا ، نحن العرب ، من المعارك ، خلال تاريخنا الطويل ، ما لم تخضه أية أمة أخرى ، منها ما هو اقتصادي وفكري ، ومنها ما هو سياسي وأدبي ، فمن (بدر) الى (فتح الاندلس) كان مصير العالم رهن ارادتنا • ولكن التاريخ لا يعيد ذاته كما يدعون • صحيح أن الانسان ، صميميا ، واحد في كل زمان وفي كل مكان • ولكني لا أرى شخصيا أية علاقة على مستوى الاحداث، بين معارك الماضي وبين معاركنا الراهنة ، ان في التحرر من الاستعمار ، أو في التحويل الاشتراكي • ومع ذلك فالاحداث الماضية ، صغيرها وكبيرها ، أبعدها عني في الزمن أو أقربها فيه الي ، هي التي كونتني بوصفي عربيا ، عرفت هذه الاحداث أم لم أعرف ، درستها أم لم أدرس فحساسيتي (تحسسي للأشياء وللموجودات) ، ردود أفعالي على الاحداث المحلية والعالمية ، نظرتي للامور وتقييمي لها ، الخ •• كل ذلك يعين لي موقعا في التاريخ الانساني ، كما يؤلف موقفا كاملا من الوجود هو الذي يجعل مني عربيا ، لا الادب الاجنبي الذي أقرأ ، ولا الافكار التي تأتيني من هنا وهناك ، فهذه كلها تنصهر في موقعي لتنطلق منه ، وتندمج في موقفي لتكمله • فكل مرة أكتب أستعيد تاريخا كاملا هو الذي يتحدث عبر أقوالي لا أنا • وكل مرة أقوم بفعل ما يحركني ماض بعيد ، وعيت ذلك أم لم أعه •

ان الاحداث التي تجري بتسارع متزايد على مرأى ومسمع منا ، اليوم والبارحة وغدا ، ليست بالدرجة الاولى من صنع هذا الزعيم أو ذاك ، وليست نتيجة لنشاط هذه الفئة السياسية أو تلك ، أو لهذا الكيان السياسي ، اصطنعه الاستعمار أم غيره • وانما هو التاريخ البعيد ـ البعيد جدا ـ هو الذي ينطق عبرها وبواسطتها • فالماضي ، ليس قائما في ذاته أمامي كالاشياء • وانما المؤرخ هو الذي يحوله ـ اصطلاحا ونهجا ـ الى موضوع يقابل ذاتا تدرسه وتستجلي موضوعيته ووقائعيته • أما في حقيقته الحية ، فهو أنا بوصفي كائنا اجتماعيا وتاريخيا ، أو هو الوجه الذاتي والموضوعي بآن واحد لوجودي المتكامل مستقبلا ومصيرا • تلك هي مفارقة التاريخ : انه مجموعة أحداث لا عودة عليها • ومع ذلك فهذه الاحداث ـ في ما مضى منها وفي ما هو راهن ـ قائمة أمامنا ، مستقبلا قريبا وبعيدا : قريبا بنسبة اقترابنا منه ، بعيدا بنسبة

ابتعادنا عنه وتنكرنا له • مستقبلا ينادينا فلا نجيب لاننا فقدنا القدرة على الاصغاء • تلك هي مأساة الاديب والمفكر العربي : انه بدون جذور ، مقطوع الصلة بماضيه • فحاضره فاقد لواحد من أبعاده الاساسية ، ومستقبله رهن بالاحداث تتجاذبه ، تتحدث الى انفعالاته وتوحي اليه بأفكاره • ولهذا فالنتاج العربي ــ الادبي والفكري منه على حد سواء ــ سطحي ، وبالاحرى (مسطح) ، يقرأ الحوادث في ظاهرها فتبدو له عادية تافهة ، وتفقد لذلك الكلمة عنده عمقها وبالتالي قيمتها التطلعية ، ما أن يطالعها المطالع حتى ينساها لانها لا تعبر عن واقعه الحقيقي الذي هو واقع تاريخي • واذا ما بدا له أن ينتقل من الظاهر الى الباطن ، من السطح الى الاعماق ، فهو ينشيء وراء الظواهر عالما اخر هو المحرك الخفي للاحداث ، ويملأه بالاسرار فيفقده ويفقد واقعه الراهن كل دلالة • وفي الحالتين يفصل الحاضر عن الماضي فيضيع الاثنين • ونجمل فنقول ان الوجود الانساني ، بوصفه منطلقا من موقع معين ، أحداث ، وكلم يعبر عن هذه الاحداث ، لينقلها من مستوى الغموض الى مستوى الوعي ، من الانفعال الى الفعل ، من المعنى الضمني الى المعنى المعين ، أحداث تصبح تعبيرا ، وتعبير هو أيضا مجموعة أحداث • وبينما تتحول الاحداث بالعلم الى أبعاد عقلية (مفاهيم) تتحول بالفن والادب الى دلالة ، كما انها تتعقل بالفكر فتفصح عن منطقها وديالكتيكها ومعناها • ان الاحداث تفقد في المفهوم بعدها الوجودي لتصبح علما قائما فوق الزمان والمكان ، بينما تساير في التعبير الفني والادبي والفكري تاريخ الانسان ووجوديته فتصبح عالما حيا ناطقا أو تراثا • فليس التراث مجموعة آثار قائمة أمامنا قيام الاشياء نقيس طولها وعرضها ، انما هو الوجه البين ، والمبين من تاريخنا : انه وجودنا بوصفنا عربا اذا كنا نعني حقا ما نقول ، عندما نقول : أمة عربية واحدة • فهذا الكيان الوجودي هو الذي يجابه أو يجب أن يجابه الصهيونية والاستعمار وكل ضرب من ضروب الغزو الاجنبي ، هو الذي يقيم أو يجب أن يقيم حوارا مع الثقافات العالمية ، هو الذي يضعنا أو يجب أن يضعنا بمستوى القرن العشرين وحضارات القرون التي ستلي وهو أخيرا الذي ستنبثق عنه رسالتنا ، أي على الضبط ما حملناه في الماضي وما سنحمله من قيم ومعاني الى العالم في تفاعلنا ــ أخذا وعطاء ــ مع البشر ومع أبناء البشر • ولكن هل نعرفه فيصبح موجودا (لا في ذاته على حد تعبير سارتر) كما هي عليه الحال الان ، أي في خزانات المكتبات ، بل (من ــ أجلنا على حد تعبير سارتر أيضا) في تجاوبنا معه وفي تجاوبه معنا ، تطلعا هو مصيرنا ؟ ذلك هو السؤال المسبق ، لانه القاعدة التي تقوم عليها مشكلاتنا ، لا الادبية والفكرية فحسب ، بل السياسية والاقتصادية أيضا • وأقول : سؤال كلي ، لانه ، بالنسبة لكل تراث ، يستدعي كلية الانسان بوصفه انسانا متجسدا أو متحققا في بيئة معينة • ان التراث هو حجر الزاوية في البناء القومي ، فباستعادتنا له نستكمل وجودنا والذي لم تستكمل شخصيته مقومات وجودها قاصر ، والقاصر يوضع تحت الوصاية حتى يبلغ سن الرشد •

استعادة وفسحة

ان لنا من تراثنا موقفين متعارضين في الظاهر ، متحدين في الاعماق : الاشادة حتى حدود التقديس ، أو الاعراض حتى حدود الرفض المطلق • والنتيجة واحدة : تعليق هذا التراث • قلنا عنه انه عظيم ، عظيم جدا ، لم تأت بعده الثقافات الاخرى بشيء جديد ، فما علينا الا أن نأخذ بما جاء فيه حتى تستقيم أمورنا • كما قلنا عنه انه مجموعة أشباح ، مجموعة أصنام ومحرمات ، اذا تخلينا عنها سرنا في طريق النمو والابداع • ولكن الحس السليم العادي يبين انه لا هذا ولا ذاك • فهو ، ككل تراث اخر ، يجمع بين الغث والسمين ، بين العادي والكبير • أفلا يدل موقفنا المتناقض هذا على اننا لا نعرف تراثنا ، وعلى انه أصبح ، بالنسبة الينا ، أصم أبكم يربكنا ، أو لغزا يعجزنا حله فنشتمه أو نقدسه تبعا لنزواتنا وأهوائنا ، أو تبعا لمواقفنا الفكرية والسياسية المتقلبة • ويبدو لي شخصيا ، كأبي الهول الذي تصوره الاساطير القديمة قائما على عرض الطريق يلقي أحاجيه على المارة ، فاذا لم يفكوا رموزها افترسهم •

لم تقم في تاريخ الانسانية ، على ما أعلم شخصيا ، نهضة ، الا وكانت استعادة لتراث ما ، فأوروبا الحديثة انبثقت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من قراءة جديدة لنصوص الاغريق • اكتشفوا فيها الانسانيات (١) ، ومن ثم الفلسفة الانسانية التي ما تزال حتى الان من محركات تاريخهم • وألمانيا القرن التاسع عشر اعتقدت انها اكتشفت أصالتها عندما عادت الى شعر العصر الوسيط وأدبه مع الرومنسيين ، ومن ثم الى الفلسفة قبل السقراطية مع نيتشه وغيره • وكم من ملحمة كتبها شعراء روسيا وأدباؤها قبيل الثورة السوفييتية وبعيدها ، ليكشفوا في تراثهم وفي تاريخهم عن شخصية الإنسان الروسي ، عن امكاناتها ، وعما يكمن فيها من قدرة على العطاء • ويكفي أن نذكر في هذه المناسبة أثرا جبارا معروفا لدى الجميع هو « حرب وسلم » لتولستوي • ذلك ان كل تجدد في حياة أمة أو ثقافة هو تطلع نحو مستقبل مبتكر ، ولكنه في الوقت ذاته عود على بدء ، يربط الجديد بالقديم ، والاتي بالماضي • وهذا الارتباط بالماضي هو الذي يحفظ للامة هويتها وللثقافة وحدتها • وليس من قبيل الصدفة أن أطلق الغربيون على نهضتهم اسم (ولادة جديدة : Re-Naissance) فالبعث بالنسبة الينا هو احياء الماضي مستقبلا ، أو لقاء مع الماضي وقد أصبح حاضرا بحضور يمكننا من الانفتاح على الإنسان وعلى ثقافات الإنسان ، أفقا جديدا للممارسة العملية والنظرية •

الماضي لا يعاد ، بل يستعاد

استعادة الماضي قراءة ، والقراءة اصغاء • وفن الاصغاء — أصعب الفنون

(١) Humanismus, Humanités وهي تقابل ما يسميه الجاحظ عندنا الادب •

وأعسرها منالا – يفترض التحرر من كـل فكرة أو عرف سابقين ، يفترض الامحاء ، بحيث تصفو النفس وتشف فتسمع ما يقوله الاثر أو الحدث • وهي أيضا سؤال وحوار • السؤال سر القراءة ، والحوار أداة النمو • سؤال اذا أجدنا القاءه تحول صمم التاريخ الى كلام مبين ، وبدأ اللقاء مع الماضي • فكم وكم شوهنا تراثنا وزيفناه لاننا أردنا بارادة طائشة أن يكون صدى لمشاغلنا وهمومنا الراهنة (هذا ان لم يكن تفريغا لعقدنا وتعويضا عن نقص في نفوسنا) فوجدنا فيه الاشتراكية والوجودية ، الديالكتيك والمنهج العلمي ، وغير ذلك من مقولات الفكر الحديث • كما وجد بعضهم في بعض نصوصه ••• القنبلـة الذرية • –

القراءة والاصغاء ، السؤال والحوار ، تلك هي الثقافة ولا شيء اخر • أن يقول النص ما قال كما قال ، ذلك هو فن القراءة والاصغاء • أن نستنطق الماضي عمّا قال ، ذلك هو فن السؤال • والاستعادة أخيرا ذاكرة ، اذ أن النص الذي نقرأ والحدث الذي نسأل قائمان فينا بعدا من أبعاد شخصيتنا الثقافية والقومية ، شخصية في حضور مستمر ، نبعثها فاذا بها حية ، وننساها فاذا بنا هجناء بدون هوية • والهجانة داء مميت • فليست الاستعادة اذا عملية نقوم بها أولا نقوم طالما ان للكلمة بعدا تاريخيا ، بل هي حركة النمو الثقافي • فالذي ينطق بلغة ما يستعيد ماضيها ، كما كان السيد جوردان يتكلم نثرا دون أن يدري (١) • والذي يكتب بلغة أجنبية يسهم في احياء ماضيها ، وان كانت موضوعاته مستمدة من بيئة بني قومه • فباللغة ينفصل الانسان عن الطبيعة ليعود اليها وقد أصبحت انسانية • واذا كان للكلمة بعد تاريخي ، اذا كانت تكثيفا لتجربة بدأت معها ، فلغة قوم هي جماع تاريخهم وقد أصبح تعبيرا أو عالما انسانيا مبينا بانتقالها من مستوى اللاشعور الى مستوى الشعور • فاللغة هي العالم الانساني بما هو انساني ، انها طبيعة ثانية • انها ذاكرة واستعادة والاثنان واحد ، كلاهما عود مستمر على بدء (أصل) وهذا العود هو ديالكتيك الانسان بوصفه كائنا ناطقا • ولكن قد تكون الاستعادة (والذاكرة أيضـا) عملية واعية عاقلة تفتح في التاريخ بذور انسانيته • وقد تكون ترددا وتكرارا يخنق هذه البذور • والفرق بين الاثنين هو الفرق بين النمو والتقهقر •

ينتج مما تقدم أن الكيان القومي كيان تاريخي ، باستمرار في تقدم أو في تراجع ، تشير الى ذلك الكلمات التي أطلقت وتطلق على حركـة النمو • فالبعث يفترض وجود شخصية كامنة علينا ان نبعثها حية • والنهضة كذلـك (من نهض) تشير الى وجود كبا عليه أن يقف على قدميه ليستأنف مسيرته • والاحياء يدل على حياة ضمرت وهي تستعيد تفتحها بعد ذبول • والـولادة الجديدة تفترض ولادة أولى • وهكذا ••

---

(١) جوردان بطل مسرحية (البورجوازي النبيل) لموليير ، علموه أن الكلام شعر ونثر فدهش عندما عرف أنه يتكلم نثرا دون أن يدري •

معنى التراث

التراث ، بمعنى ما ، كل ما هو من الماضي • وبمعنى آخر أدق ، هو ما خلفه الاجداد للاحفاد ارثا جعلهم على ما هم عليه ، خلقا وتكوينا وتطلعات ، فهو عادات وتقاليد ، قيم وأحداث ، وأخيرا هو المكتوب والمنقول • ويشمل بمعنى ثالث أدق مما تقدم ، ما سجل من الادب والفكر على انه ذو أهمية خاصة • وهذا الوجه الاخير هو موضوع عناية خاصة لانه يؤلف النواة الصلبة لمعرفة الماضي والتفاعل معه • فكل تجاوب مع التراث ، كل رجوع اليه استعادة ، سيان في ذلك النقد الادبي وكتابة التاريخ ، الدراسة السوسيولوجية للماضي أو اعادة انشاء الاثار القديمة ، وغيرها • ولن نتناول الا جانبا واحدا من كل هذا ، هو تحقيق التراث لانه واحد من نقاط ارتكاز بحثنا • وهو ، كما يدل على ذلك منطوق الكلمة العربية ، اعادة نص الى حقيقته ، أو اعادة انشائه انشاء صحيحا كما يدل على ذلك الاسم الفرنسي • ويشمل نصوصا قديمة حرفها أو شوهها النقدة ، أو مؤلفات حديثة ، قد يكون وضعها المؤلف في أكثر من صيغة وعلى المحقق أن يختار منها ما هو أقرب من غيره الى روح المؤلف وطبيعة عصره • ولما لم يكن من موضوعنا رسم منهج للتحقيق ـ وقد أصبح هذا المنهج معروفا لدى الجميع ـ فسنقتصر هنا على النصوص الاساسية ، وهي الموضوع الاول في تحديد علاقة الاديب بالتراث • ولسوف نرى ان هذا النمط من انماط الاستعادة عمل لا ينتهي •

نطلق اسم (أساسي) على كل نص يتضمن معاني مضمرة ، أو حدوسا زاخرة بامكانات مستقبلية • النص الاساسي هو الذي ما يزال يستدعينا لانه طرح يوم وضع من المشكلات وأثار من المعاني ما يتخطى الزمان الذي وضع فيه • وهو اذ يستدعينا يستدعي المستقبل • انه بمثابـــة رصيد يمكن أن يوضع ، رأسمالا ، موضع تداول لان فيه فائضا عن عصره ، وهذا الفائض هو وجهـــه الانساني • ان كل ماض لثقافة ما بدا في يوم من الايام نظرة وبنية عقليـــة تفصح عن حقيقة انسان ما فهو بذور انسان جديد • فامكانات ثقافة ما قائمـــة فيها • وهذه الامكانات هي التي تتفتح بالحوار مع الثقافة الاخرى أو بالاقتباس عنها • فالرجوع الى الماضي لا يتنافى مع الحوار ، بل الامر على العكس • انـــه الشرط الاساسي لكل حوار جدي • ليس الماضي ـ أو بعضه ـ عظيما لانـــه استبق الحاضر فعبر عنه • فلكل عصر مشكلاته ينطلق منها المفكر يتخطاهـــا فينفذ عبرها الى ما هو انساني في الانسان ، فيفتح بذلك آفاقا جديدة للممارسة الانسانية في وجهيها العملي والنظري • ان عظمة المفكر أو الاديب تبدو أو لا تبدو ، في تخطيهما للموقع الذي انطلقا منه • والمحقق هو ذلك الذي يضـــع نفسه ويضعنا معه في صميم القديم لينقلنا منه ، لا الى الحديث والجديد ، بل الى ما هو انساني • ولهذا اطلـــق الغربيون على عمليـــة تحقيق التراث اسم (انسانيات) ورأوا فيها المنطلق الاول لكل تربية ، لانها تفصح عن نضـــال

الانسان المستمر في سبيل تحقيق انسانيته ، نضالا يتضامن فيه بنو الانسان بعضهم مع بعض البارحة واليوم وغدا • والكشف عن هذا النضال هو الـذي يفتّح في الطفل بذور انسانيته • ولهذا كان على المحقق أن يمحي أمام النص ، تاركا له المجال ليعبر بذاته • هذا الامحاء فعال ، لا بل انه قد يكون في أعـلى درجات الفعالية النفسية • فالاستعادة ، بالاضافة الى ما تقدم من خصائصها ، انتظار • والانتظار يفترض ذوقا مرهفا يدرك تلونات النص ، وحدسا يلتقط المعنى الانساني عبر التعبير القديم ، أو قدرة على الرؤية • الموضوعية ، وهي هنا مرادفة للحقيقة ــ لا تنصاع الا لمن كان بمقياسها • ان المحقق عالم ومبدع : عالم لانه يكشف في النص عن حقيقته التاريخية وعن ارتباطه بزمانه • ومبدع لانه يكشف عن دلالة النص • فكل نص أساسي يدل ، انطلاقا من حاضر ، عما هو آت • فالمحقق يفجر في الماضي فسحة للمستقبل شقها النص ودل عليها • وعندئذ يبدو جليا ترابط الماضي بالمستقبل عبر الحاضر • وتبدو فعالية المحقق في حركة التحقيق ذاتها ، وتتم على مراحل نوجزها في أربع :

أولا : وضع النص في اطاره التاريخي ، ينقل القارىء الى المناخ القديم •

ثانيا : التحقيق بالمعنى الدقيق ، ويطلق عليه اسم (قراءة) لانه يقوم على اختيار أقرب القراءات الى فكر المؤلف والى طبيعة عصره •

ثالثا : الشرح والتعليق ، ويتناول ، لا المفردات والتراكيب الصعبـة فحسب كما يفعل المحققون عندنا ، بل تسليط النور على النص من جهـات مختلفة بحيث يفصح هو ذاته عن مضمونه •

رابعا : التفسير الذي يكشف عن (فائض النص) ان صح التعبير • وهي أصعب مرحلة ، يتجنبها المحقق النبيه اذا لم يكن بمقياسها • فاذا كان الشراح ما يزالون حتى الان يختلفون في تفسير نظرية المثل الافلاطونية ، أو في فهم فلسفة ابن خلدون التاريخية أو في علاقة ديالكتيك كارل ماركس بديالكتيك هيجل ، فلان في نصوص ومؤلفات هؤلاء الفلاسفة فائضا يتكشف في كـل عصر عن امكانات مستقبلية جديدة •

أما المرحلة الرابعة ــ أخطر المراحل شأنا وأصعبها مسلكا ــ فتتخطى حدود التحقيق بالمعنى الدقيق للكلمة ، لانها تفسير ، والتفسير من شأن الناقد الادبي أو من شأن المفكر ، يستجليان في الماضي معناه الكلي أو ما يتضمنه من آفاق مستقبلية • وهي عملية محفوفة بالمخاطر • اذ أن الانسان ، وهو مدفوع بدافع طبيعي الى اضفاء مشكلات الحاضر على الماضي ، يصعب عليه أن يمارس عملية الامحاء أمام النص ، مع ان هذه العملية هنا أهم بكثير منها في بقيـة المراحل • ان التفسير الحقيقي هو الكشف عن الماضي مستقبلا ، أو الكشف عن التواصل في حياة الجماعة الثقافية ، وعن وحدتها الداخلية عبر الزمان • وهذا ما أسميناه فائض النص أو امكاناته • والواقـع ان النص الذي استنفـدت امكاناته ، النص الـذي لا يطرح علينـا سؤالا ، هو من الماضي الذي مضى

وانقضى • ان كل أثر يحمل شيئا من عناء الانسان وكده في سبيل انسانيته • ولكن من الآثار والنصوص ما قد استنفد رصيده • فهو موضوع فضول تاريخي للهاوي أو للعالم المختص بالاثار يكشف فيه عن الجوانب المهملة من الماضي •

ان كل أثر أدبي مبتكر ، كل مدرسة أدبية جديدة ، ان كل ابداع كشف عن معنى وجودي كان قبله مضمرا ، وشق لافق انساني كان قبله مستورا •• فهو دلالة (من دل ، أشار الى الهدف) • وبين الدال والمدلول فسحة (في العامية تفسح ، قام بنزهة) هي التي تحدد بسعتها وعمقها مدى قدرة الاديب على الابداع ، لا عدد الاسطر والصفحات التي يكتب • يطلق العامة على الحفلات الشعبية اسم (فرجة) • ويبدو لي ان هذه الكلمة تعبر عن حقيقة الفن بأبلغ مما يعبر عنه نقدنا الادبي كله • فالفرجة (ومنها الانفراج) هي حيث يفرج الانسان عن كربه ، اذ تنفتح أمامه آفاق جديدة تدخل الى قلبه الدفء والنور ، الحياة والامل • هذه الفسحة هي التي يجب أن يكشف عنها أمامنا من جديد الناقد الادبي والمحقق لاثر مبتكر ، اذ فيها يكمن سر العبقرية الادبية (والفكرية أيضا) • واني لاتساءل بهذه المناسبة عما اذا كان بوسع ناقد أدبي أن يحيا ويحيي فينا ولنا ، فسحة شقها أمام أجدادنا الشعر الجاهلي ، وهي ما تزال حتى اليوم من مقومات شخصيتنا • فالبداوة لم تكن بالنسبة اليهم حلا وترحالا فحسب ، بل كانت نمطا من أنماط الحضارة ، حضارة خلفت لنا شعرا ، ان لم يكن الانجاز الامثل للشعر العربي ، فهو في كل الاحوال ، النواة الاولى لتراثنا الراهن • لقد قضت الحضارة التقنية على كل أنواع البداوة • ومع ذلك أفلسنا كلنا حتى الان ، وبمعنى ما ، أبناء هذه البداوة قائمة في كل منا • وبهذا المعنى أقول : ان الشعر الجاهلي ينادينا فلا نلبي • لا نلبي لاننا لا نفهم ما يقول • وما أقوله عن الشعر الجاهلي ينطبق على كل تراثنا ــ القديم منه والحديث ــ فهو سر مغلق ، يتردى لاننا عجزنا عن استجلاء فائضه • ان الثقافات فسحات فكرية وروحية ، كلية وشاملة ، فيها تتحدد هوية الفرد الحضارية وشخصيته الانسانية ، وضمنها يبني علمه واقتصاده ، شعره وأدبه، سياسته وفلسفته • واذا كنا نعني ما نقول، عندما نقول اننا عرب وان أمتنا واحدة ، فلاننا ما نزال نعيش ونتفاعل مع بعضنا ومع الانسانية انطلاقا من المناخ العربي القديم في ما له وفي ما عليه ، شئنا أم أبينا ، أكان موقفنا من العروبة ايجابيا أم سلبيا • واذا كان من معنى لتحقيق التراث أو للاتصال به أو لاحيائه أو لنقده ، ففي الدراسة العلمية الجادة نستعيد فسحة هذا التراث وآفاقه ودلالاته • وهذه الدراسة هي التي تمكننا من الدخول في حوار جاد مع ماضينا ومع الثقافات الحديثة نتمثلها ونسهم فيها • اننا الآن نواجه الحضارة الحديثة بمنجزاتها العلمية والتقنية والصناعية مواجهة المنفعل لا الفاعل ، مواجهة المستهلك لا المنتج ، شعاراتنا في الوحدة والحرية والاشتراكية كلمات جوفاء لأننا لم نتمثلها ، ولم نتمثلها لأننا لم نفهم تراثنا فنبعثها من صميمه فسحة انسانية قديمة وحديثة بآن واحد • ليس التراث شيئا قائما أمامنا • وليس

صنما نعبده • وانما هو ذاكرتنا ، تنادينا من الاعماق • فما الذي تقول ؟ تلك هي المسألة • قد تموت الأمم بفعل غزو خارجي ماحق • ولكنها تموت أيضا متى استنفدت رصيدها ، وقد تموت أخيرا اذا فقدت بعدها التاريخي ، فهي في نقطة الصفر ، عاجزة عن العطاء لأنها لا تملك ما تعطي • فالاستعادة بهذا المنظار، سؤال نلقيه على الماضي •وبنسبة ما نجيد القاء السؤال يتحول صمم التاريخ الى نطق مبين • الاستعادة أيضا هي ثقل الماضي يتحول الى قوة محركة • الاستعادة أخيرا تتوجه الى (الاحتياطي) فائض الماضي عن الحاضر • واذا كنا قد استنفدنا احتياطينا ، فالعروبة كلمة جوفاء •

واقع القطيعة

أدبنا ــ وفكرنا أكثر من أدبنا ــ تقليد للقديم (قديمنـــــا) أو للحديث (مستوردات الثقافة العالمية) ، تقليد قد يخطىء المرمى وقد يصيب • ولكنه ، في أغلب الحالات فاقد لكل اصالة • يولد ميتا • واذا عاش فبحياة مفتعلة • اذ ان كل تقليد يقصر ، تعريفا ، عن النموذج • فالشعـــــر العمودي يستدعي الأصل عند القارىء فيعرض عنه هذا • والشعر الحديث ، على أنه أمل ، ما يزال في أولى خطواته يتعثر • وكذلك القصة والمسرحية ، الأقصوصة والحكاية ، مع أن هذه لون عربي أصيل • لقد حادت العبارات العربية عن قاعدتها الأولى ، ففقدت قوامها القديم ، ولم تتقوم بالجديد فتصح • فهي مهلهلة ، في التحليل الفكري، تبدو ركيكة، وفي الأدب مصطنعة، لا تحيل الا الى ذاتها، أو الى الحادثة التي تسرد ، تنطوي على نفسها وتتقوقع • كانت العبارة العربية في الماضي آية تدل ، فتحولت اليوم الى وصف أو الى تحليل على الطريقة الغربية • فأصبحت بهذا الانتقال من بنية عقلية الى أخرى قصيرة المدى ، بدون فائض وبدون رصيد ، لا تتعدى فيها الكلمة حدود اللفظة • والواقع أن الأدب العربي في وضعه الراهن يتسم ، أول ما يتسم ، بالرفض رفض القديم • هذا الرفض ، ليس عملية ارادية (فهو اذا صادق) ، بل هو قطيعة مع الماضي ، أملتها المرحلة التاريخية الراهنة، رد فعل على قرون من التراخي والانحطاط ، قطيعة تشطر تاريخنا الى شطرين ، الواحد كأنه مضى وانقضى ، والثاني لم يتكون بعد • ومع أنها قطيعة تاريخية ، فليست فاصلا زمنيا ، بل هي فاصل وجودي ، فاصل قائم في بنية العقل العربي المعاصر • ان في تاريخ كل ثقافة تبدلات كثيرة ، تتضمن كل منها قطيعة ما • فنهضة القرن السادس عشر في رفضها لتراث القرون الوسطى ، قطعت مسيرة الثقافة الغربية أو أوقفتها • ولكنها ، برجوعها الى منابع هذه الثقافة (أي الى الاغريق والى ورثتهم من اللاتين) استأنفت هذه المسيرة اذ انشأت أدبا وفكرا في انسجام مع العلم الرياضي ومع الفيزياء الرياضية اللذين طبعا تلك المرحلة بطابعهما • وبذلك تجددت بنى العقل الغربي دون أن تتبدل • ويبدو أن الغرب اليوم يجتاز مرحلة نهضة ثانية وقطيعة أخرى يجب أن تضع بناه العقلية في

مستوى الحضارة التقنية والصناعية • ولا يختلف الأمر عندنا من هذا القبيل عما هو عند غيرنا من الأمم • فالاسلام ، ومن ثم نشوء الدولة في بلاد الشام ، وبعدها في بغداد ، التلاقي بين الثقافة العربية وثقافات الهند وفارس والاغريق، فنشوء الفلسفة وعلم الكلام والفقه ، الخ••• ، كل ذلك أدى مرارا الى وقف حركة الثقافة واستئنافها ، مما جدد الأدب ووسع آفاقه ، فمكنه من شق أبعاد جديدة لمعرفة الانسان والمجتمع الانساني ، لسبر أغوار الطبيعة وما وراء الطبيعة ومن ثم ، لاقامة تنظيم اجتماعي واقتصادي وسياسي يتيح للمجتمع العربي امكان الاستمرار والنمو • أما الآن ، فالثورة الثقافية ـ على ما فيها من صدق ـ على ما تتضمن من أهداف حقيقية طالما أنها تريد الحداثة ـ هذه الثورة تهدد شخصيتنا في الصميم • هناك قطيعة ـ استعادة ، وقطيعة ـ انفصال • ونحن ، على ما يبدو ، والى اشعار آخر ، في الوضع الثاني لا في الوضع الأول • فاصطدامنا بمنجزات الحضارة التقنية فكّك بنانا الاجتماعية، واصطدامنا بالعقل الغربي ـ التحليلي والديالكتيكي ـ فكّك بنانا العقلية • ولن يستقيم أمرنا اجتماعيا وفكريا الا اذا عاد الى شخصيتنا توازنها الداخلي وانسجامها الذاتي في لقاء صادق بين القديم والحديث •

قلت اننا في موقع الرفض ، لا أنا ولا أنت ، بل المجتمع العربي كله ، التقدمي منه والرجعي على حد سواء : الرجعي ، لأنه يريد العودة الى ما لا عودة عليه ، والتقدمي ، لأنه يرى في الماضي عبئا يجب التحلل منه • ونحن في الموقفين ، متناقضون مع أنفسنا : فالذي يريد القديم كما هو (يراوح في مكانه) جارا حركة النمو الى الوراء • والذي يريد الحديث ينسى أن القديم ، على ما هو عليه ، في ما له وفي ما عليه ، هو البعد التاريخي لوجودنا • ولهذا انحسر القديم الى مستوى اللاشعور ، وأخذ يتحدث بصيغة الغائب ـ الـ (هو) على حد تعبير « فرويد » ـ أي عبر الانفعالات والهيجانات وكل الوسائل الملتوية ، يدرسها في أيامنا علم النفس التحليلي ، وأصبحت ، بالتالي ، الاستعادة في حكم المستحيل ، فابتلينا بالهجانة ، كالغراب ، قلد مشية الحجل فنسي مشيته، وأصبحت المشكلات التي نطرح مفتعلة لا ننطلق فيها لا من مواقعنا ولا من مواقع الغير • العقل واحد في كل زمان وفي كل مكان • والانسان أيضا واحد • ولكن العقل ليس قائما في الفراغ ، بل هو ينطلق من موقع ، ومن هذا الموقع ينشىء النظرية (مرمى النظر) والدلالة (أفق التطلع) • فالعقل الغربي ـ بوصفه غربيا ـ ما يزال حتى الآن اغريقيا ، تمثّل الثقافات الأخرى وصهرها استنادا الى مبادىء ومفاهيم ومقولات ومعاني وضعها أفلاطون وأرسطو ، وجددها مفكرون من مقياس ديكارت وكنت وماركس وهيدجر وغيرهم ، وهي التي تتمثل الآن ثقافات العالم كلها ، صغيرها وكبيرها ، وتجعل منها تراثا غربيا • أما نحن ، فبوصفنا عربا ، ورثة الساميين ، انطلقنا مثلهم من أطر ومقولات تختلف في بنيتها العقلية وفي نمط استقطابها للوجود عما وضعه الاغريق وورثتهم وهي التي مكنتنا من تمثل ثقافات العالم يوم كنا بمقياسها • فتفاعلنا قرونا مع الاغريق • وأفدنا من منهج أرسطو التحليلي في وضع الفلسفة وعلم الكلام

وغيرهما • ومع ذلك ـ وفي هذا ما فيه من العبرة ـ بقي شعرنا حتى اليوم جاهليا • أما اليوم فنحن في عجز يكاد يكون كاملا لاننا ضللنا الطريق ، فلا نحن هنا ولا نحن هناك • أدبنا تابع ، لا يبدو له أي أثر في تطوير المجتمع • وأديبنا مستهلك في أغلب الحالات فاقد لكل هوية ، ينفعل مع الجماهير ، يجتر ذاته ، ويخدم ، عن قصد أو عن غير قصد هذا الحاكم أو ذاك • فلا يعبر عن مشكلاتنا ولا عن مشكلات العالم • نشيد بالقيم العربية ـ الشجاعة ، الكرم ، الضيافة ـ فلا يتعدى صوتنا حدود صداه • نزعم أننا سبقنا العالم الحديث في أهم كشوفه • فابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع وواضع فلسفة التاريخ ، وغيره كان اشتراكيا قبل أن تكون الاشتراكية ، وهكذا ••• كأن شخصيتنا لا تستقيم الا اذا كانت شبيهة بشخصية الغير • انني لا أعرف مفكرا غربيا يرى في أفلاطون مؤسسا للاشتراكية مع ان جمهورية هذا المفكر العظيم تتضمن بذور كل الاشتراكيات الطوبائية التي تلتها • واذا صح وكانت لدى أفلاطون أو لدينا بذور تفكير اشتراكي ، فأية فائدة ترجى منها في عصر التقنية والعلم والثورات الشعبية ويقظة الجماهير ؟ ان الاشتراكية نتيجة للمجتمع الصناعي أتت رد فعل على تنظيمه البورجوازي • فكل حديث عنها قبل هذا العصر كلام فارغ • لقد أثار مفكرونا ، يوم كانوا يفكرون انطلاقا من مواقعهم ، مشكلات حقيقية ، ما تزال حتى الآن مضمرة في ذاكرتنا لأننا في عجز عن استعادتها • فعندما يعارض الجاحظ في مقدمة كتاب الحيوان بين الشعر والنثر ، بين المنقول والمكتوب ، عندما يعالج مشكلة الكتاب والكتابة والأدب ، يطرح على الفكر من المسائل ما لا يزال قائما حتى الآن في صميم الثقافة المعاصرة ، مسائل انتبه اليها أفلاطون ، وتثيرها اليوم وسائل التثقيف الحديثة كالسينما والاذاعة وغيرهما • فالتعارض بين الكلام والكتابة من مشكلات المرحلة التاريخية الراهنة•

وعندما يضع الجاحظ أيضا مجلدا ضخما في (البيان والتبيين) فهو يستجلي ، من منطلقات عربية ، جانبا من جوانب فن التعبير انتبه اليه مفكرون من مقياس أفلاطون وأرسطو ، الا وهو كيف يتسنى للعبارة أن تقول ما هو كما هو بحيث يصبح الوجود بيانا والبيان وجودا • أما ابن خلدون ، فنحن واهمون عندما نزعم انه سبق أوغست كونت ودركايم الى وضع أسس علم الاجتماع • اذ ان المشكلة التي طرحها عليه عصره والتي ما تزال قائمة في قلب المجتمع العربي هي مشكلة الانتقال من البداوة الى الحضر • ولهذا أطلق على العلم الذي أبدع اسم (علم العمران) • ففي صميم كل منا ـ نحن العرب ـ بدوي رحالة ، تتجاذبه بآن واحد حرية البادية الفوضوية وحضارة المدينة ذات النظام الصارم• ودولة ابن خلدون ـ لحمتها العصبية كما هو معروف ـ هي دولنا في القرن العشرين ، تتحد في الملمات ، لتتفرق قبائل وشيعا عندما ينحسر عنها ، ولو لوقت قصير ، ظل الدخيل • ان اثارة هذه الموضوعات وغيرها مما يشبهها في تراثنا (العقل والنقل ، التوفيق بين الحكمة والشريعة ، الخ•••) كما عولجت عندما عولجت ، وضمن الظروف التي استدعتها ، ثم امتدادها الينا ومدى تأثيرها الضمني أو الصريح فينا ، هي ما أطلق عليه اسم (الاستعادة) • والأفق

الذي فتحته أمامنا ، هو ما أطلق عليه اسم (فسحة الثقافة العربية) • فالعلم ليس مجموعة أفكار جاهزة ، نتبناها أو نرفضها ، وانما هو نهج يتكيف بتكيف الموضوع الذي يعالج ليكشف عن موضوعيته •

قراءة التراث

تتشابه الثقافات رغم تباعدها في الزمان وفي المكان • والكشف عن هذا التشابه تمرين مدرسي جيد • وهو أيضا نمط من أنماط الحوار بين الثقافات يبين وحدة الانسان • ولكن شريطة ألا يتجاوز حدودا معينة • فليس من الضروري أن تكون هناك رومانتيكية أو انطباعية عربية ، أو غيرها • ولا يضير الأدب العربي خلوه من بعض الأنواع الأدبية كالمسرحية أو الملحمة • فكل أدب يعبر عن مشكلات عصره ، تلك التي يحـــاول المفكر أن يشق الطريق لتذليلهـــا ولتجاوزها • فالواقعية الاشتراكية كانت بمثـــابة رد فعل عنيف على المثالية الرومانتيكية وعلى غيرها من المثاليات التي سيطرت على الأدب الروسي قبيل الثورة السوفييتية وبعيدها • وقد يكتب أديب عربي أدبا جيدا ملتزما هذه المدرسة ، ولكن اذا عرف كيف ينشئها انشاء جديدا يتلاءم مع بيئته • فالأدب ليس ، كما يظن البعض ، تصويرا فوتوغرافيا للواقع • وانما هو انشاء جديد لهذا الواقع يكثفه صورة وفكرة « أو فكرة في صورة » تصعده وتكشف عن معناه • ان رؤية المشكلات كما طرحت يوم طرحت هو « بدء الحكمة » في فهم الأثر الأدبي وكل حياد عن هذا المنطلق يعطل ملكة الفهم • لأن الانسان وحدة في ماهيته وكثرة في تجلياته • فالأطر المفتعلة مضللة • وكذلك الانتقائية التي يقول بها الكثيرون من نقدة الأدب العربي في أيامنا (هذا حسن وذاك سيىء ••• هذا نأخذ به ، وذاك نرفضه •••) وان دلت الانتقائية على شيء ، فعلى مذهب الذي يقوم بها ، وغالبا ما تدل على أهوائه ونزواته • وفي كل الأحوال ، على عدم فهمه المطلق لعلاقة الانسان بالتاريخ •

أذكر بهذه المناسبة حلقة عقدت في باريس بين عدد من المهتمين بشؤون الفكر والأدب العربيين ، حول الفلسفة العربية ، ماضيها ، حاضرها ، تدريسها • وعندما احتدم النقاش ، توجه اليّ بالحديث أحد المستشرقين المعروفين قائلا : « عجيب أمركم ، أنتم العرب تدرسون وتدرّسون ديكارت وليبنيتز وهوسرل وغيرهم من أعلامنا ، مع أن عندكم فلاسفة ومفكرين من مقياس هؤلاء ••• » ــ خص بالذكر منهم ابن سينا • في الاعتراض ما فيه من الصحة والفهم • ومع ذلك فالمسألة ليست مسألة مفاضلة بين الفلسفة العربية وغيرها من الفلسفات • ان تدريس الفلسفة العربية الكلاسيكية ، وتدريس علم الكلام وغيرهما من فروع العلم العربي أمر ضروري في مستوى التعليم العام ، وقد يكون مفيدا في مستوى التعليم الثانوي ذاته • لا بل انه أمر حياتي لأنه نمط من أنماط احياء تراث ضخم عالج مشكلات حقيقية ، منها ما مضى وانقضى ، ومنها ما هو قائم ، ومنها

أخيرا ما قد يثار مرة أخرى • وهو ، بالاضافة الى ما تقدم يغني المثقف والثقافة الفكرية الحديثة بمفردات وعبارات وأفكار وضع مفكرونا قرونا في صياغتها • أما أن نستعيض عن هذا المفكر بذاك ، أو عن هذه المشكلة بتلك ، فهو موقف خطر • ولهذا قلت لمحدثي ما خلاصته : عليّ ، بوصفي مثقفا عربيا ، أن أنطلق من مشكلاتي الراهنة لأتخطاها : اذا كنت أبحث عن اقامة نظام اشتراكي ، فمن البديهي أني في لقاء مع ماركس لا مع ابن سينا • واذا كنت أبحث مسألة العقل العلمي ، فأنا في لقاء مع ديكارت ومع خصمه بشلار لا مع الكندي • أما اذا كنت أبحث عن علاقة العقل بالنص ، فعليّ أن أنطلق من علم الكلام • وفي علاقة العلم بالايمان رائدي الغزالي وابن رشد • ومشكلة الحرية ، تضعني تجـــاه المعتزلة وبرغسون بآن واحد ، والأدب يحيلني الى الجاحظ ، كما قد يحيلني الى مدرسة التحليل النفسي كشفا عن العقد ، واللغة الى ابن جني والى الأرسوزي والى ده سوسير De Saussure وهكذا ••• وبقول مختصر ، فان الانسان ينطلق من واقعه الراهن ، يصوغه صياغة مجردة اذا كانت الكتابة فكرة ، أو ينشئه خيالا مبدعا اذا كانت الكتابة فنية • وفي نقطة الانطلاق هذه يفتش عن الماضي ليستعيده ذكرا ، وعن المستقبل ليراه تطلعا • وعندئذ يلتقي مع التراث الذي يعنيه ، وبنسبة ما ان تكون الفكرة واسعة وكلية ، والرؤية الفنية شاملة وعميقة تتسع لآفاق أخرى تصهرها صهرا جديدا يحفظ وينمي • وأجود الأدب هو ذلك الذي يرى في الحادثة الراهنة بعدها التاريخي ، وفي البطل نسبه القديم • لقد أصبح ماضينا ــ وأقصد به هنا لا شعورنا ــ بحاجة ماسة الى دراسة فكرية جادة تكشف عن ترسباته والتواءاته الراهنـــة ، والى أدب يكشف عن عقده المكبوتة ، تلك الالتواءات والترسبات والعقد التي تعيق مسيرته • صحيح ان لكل عصر قراءته للتراث وتفسيره لأحداث الماضي • صحيح ان لكل عصـــر مقاييس يستخدمها ، ولكن لا للانتقاء أو لاصدار الأحكام التقويمية ، بل لاتخاذ موقف كلي من ماض هو بدوره موقف كلي وواقع كلي • بهذا يصبح الماضي حاضرا يتفتح عن مستقبل • لا لأن الماضي أنتج كذا وكذا ، بل لأنه يتضمن ، كما قلنا ، امكانات مضمرة تصبح محركا للتاريخ في القـــراءة الجديدة أي بانتقالها الى مستوى التعبير • فرب مفكر أو أديب يبدو اليوم هامشيا وكأنه مضى وانقضى ، فاذا به غدا مصدر من مصادر الفـــكر والأدب • ربّ ثورة طمسها التاريخ واذا بها اليوم في لقاء مع ثورتنا • فالماضي كل ، وفي انفتاحه على المستقبل يؤلف الشخصية الثقافية كلا له ما له وعليه ما عليه • هذا نمط من أنماط الاستعادة باستطاعته ان يتخطى القطيعة •

ثمة نمط آخر قد يكون أقرب متناولا ، وأيسر سبيلا اذا أجدنا استخدامه، في النقد الأدبي وفي كتابة التاريخ ، في الدراسة السوسيولوجية للماضي وفي تحقيق التراث • ويقوم على ان ننتقل بالخيال المبدع الى الماضي ، نتحد معه وننصهر فيه ، فنراه ، لا بمناظير مستوردة ، بل كمـــا عاشه أبطاله عندما عاشوه • وعندئذ نستطيع تقطيعه وترتيبه تبعا لمفاصله الطبيعية • فلكل أدب نموه ، ولكل فكر نظامه ، ولكل تاريخ حركته ، ولكل ثقافة أبعادها ومستوياتها •

وكل هذا يتلاقى ويتباعد ، ويتلاقى من جديد مع ذاته ، ومع ما يماثله عند بقية الأمم والحضارات • فليس من الضروري ان تنتقل كل المجتمعات في حركة واحدة من العبودية الى الاقطاع فالبورجوازية ، وان يكون الفكر انعكاسا مباشرا لهذه الأنظمة ، هذا اذا أخذنا المادية التاريخية نظرة في فهم التاريخ • وليست البورجوازيات شبيهة ببعضها • كما انه ليس من الضروري ان يكون كل أدب ملحمة أو شعرا غنائيا أو غير ذلك ، أو ان تـــكون المدارس الأدبية واقعية أو رمزية ، هذا اذا كان لهذه التصنيفات بعد من معنى • وليس الأدب بالضرورة صنفين : اجتماعيا أو قوميا ، كما تصنف كتبنا المدرسية الأدب بتصنيف مفصل• فكلمة فلسفة ليس لها المعنى ذاته عند أرسطو وأفلاطون وأفلوطين من جهة ، وعند الكندي وابن سينا وابن رشد من جهة أخرى • مع ان هؤلاء أخذوا عن أولئك • ولكن نلاحظ بالمقابل ان كلمة أدب عند الجاحظ تدل على المعنى الذي دلت عليه كلمة (انسانيات) عند أدباء النهضة في الغرب • لقد صنف أدباؤنا أدبهم ، يوم كانوا ينطلقون من مواقعهم ، تصنيفات ، منها ما هو سليم وصحيح، كتصنيف المنقول في سيرهم وأخبارهم طبقـــات وأياما ــ ومن هذه يجب أن ننطلق لفهمها ــ ، ومنها ما أصبح باليا في عصر الاشتراكية والنقد العلمي ، كتصنيف الشعر في رثاء وغزل ، مدح وهجاء ، الخ••• ولكن كانت لهم ، عبر هذه التصنيفات وغيرها ، نظرة كلية وشاملة للوجود عاشوها أكثر مما عبروا عنها ، نظرة مضمرة علينا ان نستجليها كي ندرك مدى ارتباطنا بهم ومعناه ، لأن في هذا الارتباط بعض السر ، سر مصيرنا • فالشعر العربي ــ حتى ما كان منه مدحا وهجاء ــ جملة لوحات كل منها تعبر عن موقف الانسان العربي من مشكلات الانسان الكبرى : الحياة والموت ، المرأة والرجل والعلاقة بينهما ، الحب والحرية ، الألم واللذة ، الطبيعة وما فوق الطبيعة ،الانسان وما يتخطى الانسان ، الخ • والشعر الجاهلي عالم كامل ، معلقاته ، كل منها ، دنيا متكاملة من أفكار تحولت الى لون ونغم • صحيح أن هـــذا الشعر فاقد أحيانا للبعد الفكري ، وقلما تأثر بالبعد الروحي الذي أضافه الاسلام • ولكنه ، كما هو ، غني بكل مشاعر الانسان : همومه وقلقه ، حبه للحياة وللجمال ، نضالـــه ونزواته ، وبشكل أخص تحسسه الموجودات تحسسا جسديا غريزيا ، وتذوقه الأشياء بكل جوارحه • كما أن تراثنا الفكري في الفلسفة والفقه والكلام حلل أهم المشكلات التي اعترضته يوم وضع ، وأنشأ مبـــادىء وأسسا لتفسيرها : الوجود (بما هو وجود) ومكان الانسان منه ، الحكم وعلاقة الفرد بالسلطان ، الدولة المثلى ، التشريع ، الدين والدنيا ، الخ • واذا كانت بعض هذه المسائل قد غابت من أفق التفكير المعاصر ، فوراءها تساؤلات هي من صميم شخصيتنا• ان التشريعات تزول بزوال الظرف الذي استدعاها • ولكن يبقى منها ما يتجاوز منطوقها ، ألا وهو المبادىء التي تقوم عليها البنى الاجتماعية • لقد عني أجدادنا بالتاريخ عناية لم تسبقهم اليها أية أمة أخرى فكتبوا فيه مجلدات ، فيها الغث والثمين ، تجمع بين الخرافة والحادثة الواقعية ، أفاد منها ويفيد المؤرخون • ولكن هل درست فكرة التاريخ عند العرب ، وسبب اهتمامهم بها ، ونوع التاريخ

الذي كتبوا وكيف كتبوا، ولماذا كتبوا. ان ثورات الماضي قد مضت. ولكنها خلفت في أعماق النفوس انفعالات مكبوتة اذا كشف عنها مبضع جراح عاقل وجريء ظهر لا شعورنا منها . أصبح التاريخ العربي بعد الفتوحات ، في أحداثه مجموعة انتفاضات وثورات وحّدت ومزّقت ، وطوّرت وأخّرت وفي ظواهره الفكرية ، مجموعة فرق تنازعت على الخلافة كما تنازعت على تفسير (الكلام) . ولقد طويت الآن على مستوى التعبير هذه المرحلة في خلافاتها السياسية والعقائدية . ولكن الفسحة التي شقتها ما تزال قائمة موقفا ، اذا فهم ، في روحه لا في حرفه ، ألقى ضوءا ساطعا على عدد من مشكلاتنا الراهنة ، ومنها الوحدة المنشودة . ان الفرق الكلامية المعروفة ، هي اليوم مواقف لا قضايا لاهوتية . والتجزئة في النفوس وفي التاريخ كما انها في الاقتصاد وفي الصراعات القبلية والطبقية ، في المواقف القديمة كما في الايديولوجيات المحلية والعالمية . فلنذهب الى أبعد من ذلك في فهم طبيعة الثقافة وأصولها التاريخية .

نقطة الانطلاق

انطلق الفكر الغربي من مقولات ضمّنها تعارضاته الأساسية (الوجود ـ العدم ، اللوغوس ـ البراكسيس ، التحليل أو الديالكتيك منهجا ، الخ ...) ، عبّر عنها أسطورة وفكرا . وما يزال يغنيها حتى أصبحت كل منها خلاصة لتاريخه . فهو ينطلق منها في تفسيره للأحداث ، كما انه يستعيدها شعرا وفنا وفلسفة في كل مرحلة من مراحل نموه . وهو أخيرا يدمج فيها ما يتمثله من الثقافات الأخرى . وهذا شأن كل فكر حي ، يعود باستمرار الى اصوله ، أي الى أساطيره ، الى جملة المعاني الأساسية (المقولات) التي انطلق منها . فالأدب الغربي يستلهم في أحدث أشكاله أساطير الاغريق وأساطير العصر الوسيط ، مسرحا وغناء وشعرا منهم من يرى صورة الانسان الغربي المثلى في بروميثيوس ومنهم من يراها في فاوست وهكذا . فأين هي المقولات والمعاني والأساطير التي انطلقنا منها نعلّم العالم ؟ من ذا الذي يفكر باستعادتها ، أو بدراستها ، أو بالاشارة اليها ؟ واذا كنا في عجز كامل عن فهم ذاتنا ، فلأننا استبدلنا عبر الترجمة والتقليد ، أصولنا بأصول مستوردة جعلت منا ذيلا للغير ، لا أفادت منا ولا أفدنا منها لأننا لم نصهرها في كياننا . لا أقول ان تراثنا وأصوله أقل أو أكثر غنى مما عند الغير . فالمفاضلة في هذا المجال عبث ولا معنى . ولكن أقول ان لنا في تجربة الحب مثلا ، من نشيد الأناشيد الى الحلاج ، مرورا بامرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة ورابعة العدوية وغيرهم ، لنا ما يعبر عن حقيقتنا بأصدق مما تعبر عنه (دونجوانيات) أخذناها عن الوجودية وغيرها ، وأخذت روايتنا اليوم تصبها في قوالب مفتعلة ، فتطلع علينا بنتاج لا هو منا ولا هو منهم ، لأنه ، ككل نتاجنا ، ينطلق من اللاموقع . ان الالتزام الذي ننادي به في الألفاظ لا في الواقع الحي . ويبدو لي ان انطلاقتنا الأولى ركّزت نظرتنا الى الوجود في المطلق ، بينما يتركز التفكير الحديث بما هو حديث حول

الانسان • ولكننا لم نميز بين ما هو للانسان فنعطيه للانسان ، وبين ما هو لله فنعطيه لله • ولهذا أضعنا الاثنين •

قال لي يوما أحد المهتمين بالتراث والمطلعين على شؤونه : لو بعث الجاحظ حيا لما فهم كلمة واحدة مما نكتب • قلت : صحيح ، والأبلغ عبرة هو ان المتعصبين للشعر العمودي لا يفهمون ـ أو يدّعون أنهم لا يفهمون ـ كلمة واحدة مما يكتب بلغة الشعر الحديث • قال : أويفهم هؤلاء ما يقولون ؟ قلت : ما الفهم في الأدب والفن ؟ تلك مسألة تستدعي الاجابة عنها ، الاجابة عن سؤال مسبق : ما الأدب ؟ ما الفن ؟ والواقع ان التعارض بين الاجيال بلغ حدا أعادنا الى أيام (برج بابل) • فالقطيعة ليست بين الماضي والحاضر فحسب ، بل هي في نفوسنا ، وفي بنانا كلها ، الثقافية منها والاجتماعية والسياسية والاقتصادية على حد سواء • لا بل ان ظاهرة القطيعة أصبحت عالمية • فلقد حطّمت الحضارة التقنية البنى التعبيرية في كل الثقافات • فالكتابة ، كما يقول أحد النقدة الفرنسيين في درجة الصفر (اللاوجود) • ومع ذلك فثمة خيط لا مرئي يربط عبر الحاضر ، المستقبل بنقطة الانطلاق في كل تاريخ ، خيط نتلمسه لأنه موجود (لو لم تجدني لما فتشت عني على حد قول باسكال) وهو في الوقت ذاته مفقود طالما اننا نفتش عنه • هذا الخيط ، هو الهوية القومية ندل عليها عندما نقول (أمة واحدة) • فيها الداء والدواء • فأين نجدها وكيف ومتى ؟ ان السؤال عن التراث يحيل الى سؤال أبعد مرمى ، هو السؤال عن الأمة • وهذا بدوره يحيل الى آخر ، أبعد وأشمل ، هو السؤال عن التاريخ ، أبعاده متعددة ومبعثرة ، أزمنته متفاوتة ، وكلها مع ذلك تؤلف كلا ينطلق من مصدر واحد ليعود اليه •

من الكلام الى الكتابة

يوم ولد الكتاب انتبه أفلاطون الى خطره ودل عليه : يستعيض عن الذاكرة بالتذكر (١) ، وعن الأشياء برسومها (٢) ، وعن الثقافة والبرهان بالمعلومات والأحكام الجاهزة ، فيخلق أشباه مثقفين ويدخل النسيان على النفس• فالكتاب أخرس ميت بعكس الكلام الذي ينبع من الداخل حوارا حيا يربي الانسان وينمي النفس • ويقول لأفلاطون محاوره : ما أبرعك في اختراع القصص تنسبها لأية أمة شئت وكيف شئت • وفي الجواب ما فيه من نقد لاذع يوجهه أفلاطون لذاته (٣) • وقد لاحظ ما لاحظه أفلاطون كثيرون بعده ، منهم روسو الذي قال عن الكتابة انها تحطيم الكلام (٤) ، وهوسرل الذي نادى

---

(١) الذاكرة الارجاعية كما يقال اليوم في علم النفس •

(٢) الحرف الكتابي وهو رمز مصطنع •

(٣) حوار الفيذروس ٢٧٥ •

(٤) روسو ، محاولة في أصل اللغة •

بالرجوع الى الأشياء أساسا للفلسفة • ومع ذلك فالثلاثة ممن نقدوا الكتابة وفضّلوا عليها الكلام اتصالا مباشرا بين الناس ومع الأشياء ، وضعوا العديد من الكتب ، تدرس وتدرّس وتمنح الشهادات بنتيجة دراستها • لقد أدان أفلاطون الفيلسوف الكتاب يوم غروب الثقافة الاغريقية ، فدلّ بادانته على موطن القوة والضعف في الحضارة الحديثة • أما الجاحظ الأديب فوقف ، يوم ولادة الكتاب العربي موقف المتردد بين الكتابة والـكلام • حدد قيمة الكتاب (ناطق أخرس) ، وخص العرب وحدهم بين الأمم بموهبة القول شعرا (١) • فدل بتردّده على النقطة التي وقف أمامها الفكر العربي حائرا مرتبكا حتى اليوم• لقد وضع الجاحظ أسفارا كثيرة • ولكن تراثه أقرب الى المنقول (الكلام) منه الى المعقول (المكتوب) • ونقل الى خلفائه (ابن قتيبة ، الأصفهاني الخ •) هذه السنّة • فما خلّفوه لنا تسجيل لأحداث وقصص ، أو لشعر وكلمات مأثورة ، حفظت في الصدور وتناقلتها الألسن ثم دونت تراثا يجب أن يحكى كما حكى أبطاله وواضعوه • ان الكتابة لم تترسخ عندنا بالرغم مما خلّفته لنا الفلسفة العربية بخاصة من آثار حية • وبقي العربي ، اليوم كما بالأمس البعيد ، انسان الفطرة يلتقط الحادثة آية ، ينتقل منها الى دلالتها • بعكس الغربي الذي يترجم الواقع الى مفاهيم ، يربطها ببعضها استنتاجا تحليليا ، أو دياليكتيكيا كليا متسلسلا وكلاهما (التحليل والديالكتيك) ينشىء العلم • واليوم تثار من جديد المشكلة القديمة ــ مشكلة التعارض بين الكلام والكتابة ــ على الصعيدين العملي والنظري • ففي حين يتسع النشر وتتكاثر الكتب والكتابات بسرعة مذهلة ، وفي حين يتداخل الأدب والفلسفة ، نلاحظ من جهة أخرى اعراضا جماعيا عن الكتابة والكتاب واستعاضة عنهما بكلام من نوع آخر ، هو كلام الاعلام ، كلام الآلة ، كلام الوسائل السمعية ــ البصرية ، كلهـا تتوجه الى الحواس مباشرة في أشياء ، على أنها مفتعلة ، هي (أشياء) القرن العشرين و (طبيعته) ، كما نلاحظ الكتّاب والمفكرين يتساءلون عن قيمة ما يكتبون ، وعن دورهم في مجتمع التقنية واللغة الرياضية ، مجتمع الاعلام الجماهيري •

تستمد اللغة حياتها من الكلام بجعل المعنى حضورا مباشرا (٢) ومع ذلك فاللغة تؤلف عالما مستقلا له بناه الذاتية ، وهو يتـكاثر بفعل قوته الخاصة ، فيقف حاجزا بين الانسان والطبيعـة ، بين الانسان والانسان ، بين الانسان وذاته • ولكن اللغة من جهة أخرى ، أدخلت المعقـولية والعقل على الوجـود الانساني • فالعلم والفلسفة نتيجة لنموها • هي التي تضع اليوم ذاتها موضع تساؤل لتستأنف مسيرتها مجددة العقل والمعقولية (وهو حديث يطول أمره) • ولهذا حصل ما توقعه أفلاطون ، فلم تحل الكتابة محل الكلام فحسب ، لم يحل الكتاب وحفظة الكتاب محل الحوار فحسب ، بل ان التراث الاغريقي أصبح

---

(١) هذه الملاحظة للعالم السويسري ده سوسير De Saussure واضع علم اللغة الحديث • ولقد وحدنا بين اللغة والكتابة مع أنهما مختلفان الى حد بعيد ، وذلك اختصارا لبحث طويل •

(٢) مقدمة كتاب الحيوان •

برمته كتابة وكتبا ، عندما أزيح أبطاله عن مسرح التاريخ ، كتابة وكتبا فقدت قوتها الشخصية في التعبير ، فتناولها المفسرون والمعلقون ، يختلفون في ما قالت وكيف قالت . فمن ذا الذي يعرف الآن ما عناه هيرقليطس على الضبط بكلمة (لوغوس) وبرمنيدس بكلمة (وجود) وأفلاطون بكلمة (ايروس) وأرسطو بكلمة (فعل) ، وغيرهم بغيرها من مقولات الفكر الاغريقي ومعانيه الأساسية ؟ أو من ذا الذي يعرف كيف كانت تلفظ المفردات والعبارات الاغريقية ، وكيف كانوا ينشدون ملاحم هوميروس فيستنبطون منها دستورا لأخلاقهم وتعبيرا عن نظرتهم الى الوجود ومناخا لصوفيتهم ؟ وكذلك لغة روما . فقد كوّن العصر الوسيط لذاته لاتينية اصطلاحية تختلف اختلافا كليا عن لغة شيشرون وفرجيليوس ، وضع فيها علومه وفلسفاته . ثم زالت هذه اللاتينية من الوجود ، كما زالت تلك ، ونبتت على أنقاضهما ، وعلى أنقاض الاغريقية لغات أوروبا الحديثة تراثا جديدا صب خمرا عتيقة في قدر جديدة ، وكلاما قديما في كتابة مبتكرة استعادت وجددت . فكانت حياة اللغات القديمة في موتها ، اذ ان الحضارة الحديثة بما هي حديثة ، الحضارة الحديثة في شمولها العالمي هي تلك الجذور الأولى مهدت ، باستعادتها ، السبيل لقيام العلم والفلسفة والتقنية .

أولا يحق لنا ، ويجب علينا ، ان نتساءل ، بعد قرون من التمزق السياسي والثقافي (الفرق) ، بعد قرون من الانحطاط في هاوية العامية ، بعد قرون من القطيعة مع ثقافتنا وثقافات العالم ، ألا يحق لنا ، ويجب علينا أن نتساءل ـ نحن الذين نؤمن اليوم بالعروبة ـ ما اذا كنا نستطيع ان ننشد الشعر ونرتل الكلام كما كان ينشده ويرتله أولئك الذين حملوهما الى العالم ثقافة وهداية ؟ ما اذا كنا نتلفظ بالعربية كما كان يتلفظ بها العرب ؟ واذا كان ثمة تغير ، أفلا يكون قد مس صميم الكلام ، وبالتالي صميم الصلة التي تربط الماضي بالحاضر فتربطنا بالوجود ؟ هذا نمط من أنماط القطيعة قلما ننتبه اليه . فالكلام يتلى صوتا حيا يوحي أكثر مما يعين ويحدد ، أما الكتابة فتقرأ ، وعلى القارىء أن يستعيد بالخيال الكلام الذي انبثقت عنه . ولهذا فحجة الذين ينادون باحلال العامية محل الفصحي ، على انها مرفوضة جملة وتفصيلا ، ليست بواهية الى الحد الذي نتصوره عندما نرفضها . فالكلام الذي تنقطع جذوره الطبيعية أو فوق الطبيعية ، يضمر ويذبل ثم يموت . والعامية على ما فيها من حياة ، موت الكلام الأول . ولقد زال الكلام الاغريقي وزال الكلام اللاتيني عندما دالت دولة أربابهما ، فانقطعت صلتهما بالحياة .

ان كل ما ذكرناه من آفاق التراث العربي ومسائله ، في الفقرات السابقة ، ان هو في حقيقة الامر الا أسئلة نلقيها على ذواتنا ، أو بالأحرى يلقيها علينا التراث العربي ، فنعجز عن طرحها ، نعجز عن صياغتها صياغة منطقية تمهد السبيل لاستعادتها كتابة . ويبدو لي أن طرحها يفترض الاجابة عن سؤال مسبق ، قد يشملها بالنتيجة كلها : لم رجّح تراثنا (النقل) على (العقل) ؟ ان ما أسماه العرب (المعقول) هو ما وضع في اطار منطق أرسطو . والمنطق

بالمعنى الأول للكلمة هو نظام المفهـــوم ، أو هو ، بتعبير أدق ، (اللوغوس) الهرقليطي وقد تحقق كتابة تنتقل من مبادىء أولى الى ما يلزم عنها من نتائج • فالكتاب والكتابة ارث اغريقي • فلم بقي التراث العربي كلاما ؟ وكذلك التراث السامي كله ، وربما كل التراثات التي لا ترقى بنسب ما الى الاغريق ؟ نقول عن هذا السؤال انه مسبق لأن صياغته صياغة صحيحة تمكننا من بعث المعاني الأساسية (المقولات) للنقل ، وبالتالي من استعادتها • ليس التساؤل هنا سؤالا عن قوام الشيء (ماهيته) ، ولا عن سببه • فنحن تجاه حادثة أولى تفرض ذاتها نقطة انطلاق لبحث ما يليها ، نحن تجاه مبدأ أول ، على حد تعبير أرسطو يستمد مبرراته من ذاته فيبرر ما يلزم عنه من نتائج • والواقع انا اذا تأملنا في السؤال نلاحظ انه ليس من (طبيعة) عربية • فالعربي في انطلاقته الأولى لا يسأل الأشياء عن ماهيتها او عن معقوليتها المنطقية (أسبابها) ، بل يسأل في الأشياء عن دلالتها ، متخطيا مرحلة الوساطة البرهانية أكانت هذه الوساطة ديالكتيكية أم تحليلية • ان المفاهيم في النظر العربي الأصيل كالحوادث والأشياء، لا تبرهن بل تدل ، انهـــا أحداث ودلالات • واذا كنا نلقيه على هذا الشـــكل وفي هذه الصيغة فلان طبيعة المرحلة التاريخية التي نجتاز تقتضي ذلك • فقد أخذنا ــ كلنا ــ بالطريقة الاغريقية ــ الغربية في الكتابة ، وقطعنا في هـــذا المجال شوطا لا يستهان به ، وذللنا عددا من العقبـــات ليست بالقليلـــة ولا باليسيرة • ومع ذلك فمن يتأمل في ما يسجل في الصحف ويلقى في الاذاعـــة ويكتب في الاسفار ، يلاحظ طغيان الجانب التقويمي والوجوبي (ما يجب أن يكون) في كتابتنا على الجانب التحليلي • فنحن نحلل شكلا ، ونرسل مضمونا، أحكام القيم بمناسبة وبغير مناسبة ، نصنف البشر تصنيفا (مانويا) : هـــذا خير وذاك شر • وهو أيضا نمط من أنماط تردي الكلام • لا لان حكم القيمـــة مرفوض ، فالموقف حكم ، وكل كلام ، كل كتابة تفترض حكما ما على قيمـــة ما يقال • ولكن المنهج العلمي يفترض في الحكم أن يكون نتيجة للتحليـــل ، لا العكس حيث يصبح التحليل أداة مسخرة لفكرة مسبقة • وبقول اخر فان الكتابة عندنا ما برحت ، اليوم كما بالامس ، موقفا ولكن مع هذا الفارق الاساسي ، وهو أنها كانت تستند في الماضي الى رصيد كلامي بوسعه أن يفجر التجربـــة ويغنيها • أما اليوم فلاي رصيد تستند ؟

الكلام والعلم

ان لكل مجتمع في كل مرحلة من مراحل تطوره توترا خاصا يعـين مدى قدرته على النمو والتقدم • اذا ما تراخى فقدت الجماعة توازنهـــا وتخلفت ، فسيطرت عليها من جديد انحرافاتها المقهورة وأمراضها المكبوتة • فلقد انتقل العرب من البداوة الى (العمران) ثم صهروا في كيانهم عددا ضخما من الشعوب حولوا ثقافاتها الى جزء لا يتجزأ من ثقافتهم • فكلما أصاب الوهن المجتمـــع

العربي وفقد توازنه ارتفعت مرة ثانية من اللاشعور العقلية القبلية والشعوبية (وكلاهما الان واحد) كيانات محلية متناحرة على البقاء ولهجات عامية تردي الكلام الذي وحد • ولا أقصد بالشعوبية المفاضلة بين هذا الشعب أو ذاك ، فلقد أصبح هذا الموقف من مخلفات الماضي البالية ، وانما التجزئة في واحد من جذورها التاريخية ، وفي اللهجات العامية التي هي أولى تجلياتها • ف (ناقص) الكتابة العربية ، ان صح التعبير ، في رصيدها الكلامي • اذ ان الكتابة ، كما يلاحظ دى سوسير ، تتغذى من الكلام • ولقد رفض العربي في أيامنا ، ضمنا أو صراحة ، الكلام الاول ، فمن أي ينبوع ينهل ؟ أمن واقع التجزئة وخصومات هذا الواقع العشائرية ؟ ولكن التجزئة تفتت فهي صماء • أم من التجربـــة الاشتراكية ؟ ولكنها تتعثر لانها فاقدة لبعدها النظري • أم من الكلام العامي ؟ ولكنه ، على ما فيه من نكتة بارعة أحيانا ، أو من كلمة مبتكرة ، تعبير عن تجربة (فجة) (خام) سطحية ، تسطح الكتابة فتفقدها ظلالها الفكرية • لقد كانت البداوة ، يوم كانت ، نمطا من أنماط الحضارة ، ثم جرفها العمران فغارت في أعماق اللاشعور ، كبرياء مجروحة ، تغذي التجزئة وتعيق النمو • وكل هذا يدل على أن سلوكنا الراهن ، النظري منه والعملي ، نتيجة لتاريخ طويل مـــا ان يستقيم حتى يتردى عاجزا عن التوازن ، عاجزا عن اقامة حوار صحيح مع ذاته ومع الحضارة الحديثة •

لقد قام الكاتب العربي ، يوم كان ينطلق من مواقعه ، بجهد كبير لوضع تقاليد ترسخ جذور الكتابة العربية ، فكانت الفلسفة ، ناهضت علم الكـــلام وحركته وطورته فأنشأت بالتفاعل معه تراثا لا يستهان به • ومع ذلك بقيت ضمن الاطار الذي رسمه لها هذا العلم • فالتوفيق بين الحكمة والشريعة ، على انه كان في زمانه مشكلة حقيقية ، عمل لا يمكن أن يؤدي ، لا الى الكلام لان الكلام ليس شرعا فحسب ، ولا الى الفلسفة لان الفلسفة تقع في الفاصل بـين الحكمة والنزوع نحوها بدليل الاصل الاغريقي للكلمة (فيلو صوفيا : حـــب الحكمة) • وكانت ثقافة الكتاب وحضارته تحل تدريجيا محل الكلام الحي في عمليات التثقيف • ولكنهم كانوا يعتقدون طوال القرون الفائتة ان الكتابة تعبير عن كلام ، هو ملء الكلام ، يضاهيه الكاتب بنسبة ما ان يقترب منه أو يبتعد عنه • فالفلسفة الاغريقية من أرسطو الى أفلوطين كتابة لكلام أول هو كـــلام المفكرين الذين سبقوا سقراط • وفلسفة العصر الوسيط كذلك • فهي ، عند المسيحيين وعند المسلمين دفاع عن الكلام المقدس وتعقيل له • ولكـــن ثـورة ديكارت ، أكملها خلفاؤه ، فصلت تدريجيا العلم والفلسفة (والاثنان واحد عند الاغريق) عن الكلام ، فأوضحت ما كان مضمرا فيهما ، فصلت العقل عـــن النقل • فسيطر الرمز المكتوب وحل محل الصوت (الكلام) • وأخذت حضارة الشيء المكتوب تتطور بفعل قوتها الذاتية • فنشأت في الغرب خلال القرن التاسع عشر مقولة (الادب) تدل على هذه الحضارة • وكان الجاحظ قد كشف عنها قبل ذلك بقرون ، كما رأينا • ويرى روسو (القرن الثامن عشر) فـــي

الكتابة مرض الكلام (١) • ومع ذلك فهو يكتب حتى اعترافاته • كما ينادي هوسرل (أوائل القرن العشرين) بالرجوع الى الاشياء ومع ذلك فهو يكتب مئات الصفحات فلسفة تجدد الميتافيزيقا الكلاسيكية • وكان كارل ماركس (أواسط القرن التاسع عشر) أبعد نظرا من الاثنين ومن غيرهم عندما بين ان الحضارة الحديثة ستكون حضارة الممارسة النظرية والعملية ، ممارسة تحول الطبيعة عوضا عن أن تفسرها (٢) • ولكن أيمكن للعمل ابداعا (براكسيس) أن يسبق التعبير معنى وقولا يدل (لوغوس) ؟ تلك هي المسألة التي تثيرها الماركسية والتي ستبقى ، على ما يبدو ، معلقة الى زمن بعيد •

ومهما يكن من أمر ، فكما ان الكتابة الكلاسيكية حطمت الكلام القديم ، كذلك الحضارة الحديثة حطمت الكتابة الكلاسيكية برمتها • وأنشأت على أنقاضها كلاما جديدا هو كلام الآلة يربك الكاتب ويضع الكتابة ، كما قلنا ، في درجة الصفر • أنشأت لغة جديدة هي لغة الرياضيات ، حولت المنطق (البرهنة العقلية) من شكله الصوري (الارسططالي) الى شكله الرمزي ، لغة هي أيضا تضع الفكر في درجة الصفر ، اذ انها كتابة محضة ، كتابة لا يسبقها ولا يليها أي كلام • ويسعى التعبير الفني للحاق بهذا التطور فيقوم بمحاولات هي التي تتكون الآن •

ولهذا لم يكن للفلسفة العربية أثر يذكر لا في العلم العربي الذي نشأ بمعزل عنها ، ولا في الشعر الذي بقي معظمه جاهليا ، شكلا ومضمونا • فلم يترسخ المنهج العلمي عندنا لا في شكله التحليلي ولا في شكله الديالكتيكي • وبقيت الكلمة الاولى والاخيرة في تراثنا الفكري لعلم الكلام لا للفلسفة • وبقي العقل العربي عقلا كلاميا لا عقلا كتابيا • فالسؤال عن الكلام هو بالنتيجة السؤال عن التراث العربي برمته ، فسحة وقطيعة ، فسحة يجب ضمنها أن نتخطى القطيعة ، اذا كنا نعني ما نقول ، عندما نقول ، أمة واحدة • انه يتناول الامة — ثقافة وحضارة — في جذورها وفي امتداداتها ، ومنه تشتق بقية الاسئلة • اذ ان الشعر الجاهلي وما تلاه كلام ، وما نقل من أخبار وحكم وكلمات مأثورة كلام ، والوحي كلام • فالمحاولة التي قام بها (الكلام) ليصبح (علما) هي التي يجب أن تستعاد في اطار الحضارة الحديثة وبالاستناد الى مناهجها ومبادئها ، ولكن على شكل أوسع وأكثر جذرية من الشكل الذي أخذه في الماضي • اذ ان علم اللغة الذي يتكون الان جدد مشكلة علاقة الكلام بالكتابة ، وبين ما كان مضمرا فيها • فما الكلام بذاته ؟ ما الكلام العربي في أبعاده وخصائصه الذاتية ؟ كيف يصبح علما كي يتحول الى كتابة ، أي الى أدب وفكر وعلم وفلسفة في عصر الفيزياء الرياضية الذرية في عصر العلوم الانسانية والتخطيط ؟ كان علم الكلام كلام العلم ، فكيف نفصل بين الاثنين فسحة هي فسحة الحضارة الحديثة ونهجا عقليا أعطي المقام الاول في الفكر منذ ان وضع

---

(١) روسو ، محاولة في أصل اللغات • وهو مقالة كشف الباحثون في أيامنا عن أهميتها •

(٢) كارل ماركس ، القضية — ١١ — من قضايا عن فويرباخ •

ديكارت رسالة المنهج الى يومنا ؟ فضمن هذه الفسحة تحول الكلام القديم الى علم حديث ، وفيها ومنها استمد الادب والشعر بعدهما الفكر؟

ثقافة الكتاب

بدأت الحضارة الحديثة بتمرد ديكارت على السلطة ممثلة في شخص أرسطو — الفيلسوف — كما لقبه الاكويني ، والمعلم الاول كما لقبه العرب — وتطورت الثورة فخلعت تدريجيا ، عن العقل صفته الالهية وعن الانسان قدسيته ، كلاهما وكل ما هو كلام وكتابة من الانسان وللانسان • فكانت حضارة البحث العلمي ، ما ان يصنع حقيقة حتى يفككها ليتجاوزها الى أخرى أصح منها وهكذا • فالحقيقة مجموعة تصميمات تنشأ من المناظرة (١) • في الموسيقا : الصوت الالكتروني ، في التصوير : التكعيب والتجريد ، في الادب والشعر : تبديل بنية العبارة ، التلاعب بالاعراب ، حذف الفواصل ، تحطيم المقاييس الكلاسيكية في الانشاء وقلبها رأسا على عقب ، الخ •• وكلها ألوان من التعبير تفقد الموجود (شيئا وانسانا) هويته ، كما فعل العلم ، متخطية بذلك العالم المرئي الى عالم ••• فوقه أم تحته، قبله أم بعده ؟ ••• من يدري ؟ ربما الامر الذي لا شك فيه هو أن الانسانية تجتاز اليوم مرحلة انتقالية ، وأننا على عتبة حضارة جديدة تتلمس طريقها الى الوجود ، لها كتابتها وصورتها للانسان ، لها كلامها ومعانيها ، حضارة ينشئها العلم والتقنية والصناعة ، ينشئها عقل يتنكر في طبيعته لتاريخه • اذ ان الحقيقة العلمية تلغي ما قبلها كالوسيلة التقنية والانتاج الصناعي • ومع ذلك ، وأيا كان مستقبل الحضارة ، فلا يمكن للانسان أن ينسلخ عن موقعه من الوجود • ان تخطي التاريخ من ضمن التاريخ ، لا يستقيم الا اذا سبقه ورافقه حوار صحيح مع هذا التاريخ • فالتاريخ قائم فينا قوة لا تقهر ، يصبح محركا جبارا اذا أجدنا استخدامه ، وثقلا يجر الى الوراء اذا تناسيناه • تلك تجربة الثورات في كل زمان ومكان ، يرفض الماضي الجيل الاول ، ويعود اليه الجيل الثاني عندما تهدأ العاصفة • ولهذا كانت الثورات قطيعة واستعادة • ونحن أيضا في مرحلة انتقالية وفي وضع ثوري ، نرفد الثورة العالمية على الاستعمار بطاقة لا يستهان بها ، ونتلقى من العالم المصنع بناه الاجتماعية وقيمه ونظرته الى الوجود • ونحن أيضا نتمرد على السلطة ، سلطة القديم في كل مستوياته ، من طرقه في التعبير الى مقولاته ومعانيه • وليست ثورتنا وليدة نزوة طائشة ، كما يعتقد البعض أو تحللا أخلاقيا وان كانت تنحدر أحيانا على هذا المزلق بل انها نتيجة لجملة ظروف موضوعية سيمر زمن طويل ، على ما يبدو قبل أن نتمكن من السيطرة عليها • اذ اننا بقينا من الثورة عند حدود الرفض والنقض • مع أن الثورة ظاهرة ايجابية

---

(١) بشلار ، الفكر العلمي الجديد •

تستقطب المستقبل حاضرا يحول الماضي الى آت • الثورة معنى يلقح بالعنف الواقع الراكد فيحركه من الداخل ليتفتح عما يكمن فيه من قوى جاهزة وامكانات مضمرة • وثورتنا يعوزها هذا البعد الفكري ، في وجهه الانتقادي بخاصة • والفرق بين الرفض والنقد هو الفرق بين الهدم والبناء •

لقد كان القرن التاسع عشر من كنط الى ماركس فنيتشه وفرويد عصر النقدة أخضع تراث العالم المصنع في بدء التصنيع الى تحليل عقلي صارم أعد المناخ الملائم لنشوء العلم الحديث وما يلزم عنه من نتائج في تنظيم المجتمع • فكنط طلب من العقل أن يفصح عن حدود مفاهيمه ، وماركس عن شروط تحققه في واقع عليه أن يحوله ، وفرويد ، عن زيف تدخله عليه التواءات الحب المكبوت ، ونيتشه ، عما بين قيمه وبين قيم قوة الحياة من تعارض أساسي • أذكر بهذه المناسبة سؤالا استنكاريا ألقاه علي مرارا أناس يعنون بشؤون الادب ، فأثاروا من حيث لا يدرون ، وفي صياغة ملتوية مشكلة مهمة يجب أن تطرح طرحا صحيحا • وعلى أية حال ففي الرد على السؤال ايضاح لدور النقد في كل ثورة ثقافية • قال محدثي : لم لم يخلف لنا التراث العربي كتابا واحدا من مقياس ما خلفه للغرب أفلاطون وأرسطو وغيرهما ؟ قلت : أتكون ثقافة الكتاب كل الثقافة وكليتها ؟ فالثقافة السامية ــ العربية انطلقت من الكتب المقدسة ، وهذه ليست كتبا بالمعنى الارسطاطالي للكلمة ، بل هي كلام مطلق سجل في صحف ، فهي تلاوة لا قراءة لرمز مكتوب • قلت أيضا : ان مقولة الثقافة ، كمقولة الادب ، حديثة النشأة ، صاغهما الفكر الغربي في أواخر القرن التاسع عشر لتقولا حضارة الكتاب • فهما بحاجة الى نقد كنطي يعين لهما حدود صلاحيتهما في التعبير عن فعالية الانسان المبدع • فالسؤال النقدي يتناول ما قبل السؤال ان صح القول ، يتناول جملة الاسئلة ، يرسم لكل منها حدودها• وأخطر شأنا من كل ما تقدم ، فيما رأى ، تساؤل ، يتناول الوجود العربي من جذوره : اذا كان هذا الوجود قد انطلق من كلام مطلق ـ أو اعتقد ان له هذه السمة ـ فالمطلق ، عندما يقول ، يقول ما هو كما هو ، مرة واحدة ولكل مرة • وهو بالتالي لا يستعاد بل يعاد ــ لا عادة أو ارجاعا ــ بل حياة تنمو من الداخل دفعة واحدة • فكيف نميز في تراثنا بين ما هو من الانسان وبين ما هو فوق الانسان ، بينما هو من التاريخ ــ والانسان كائن تاريخي ــ وبين ما لا تاريخ له! وطالما أننا عرب ننطق بلسان عربي ، فالسؤال يعنينا كلنا ، من يؤمن منا بوجود مطلق ومن لا يؤمن • اذ ان وجودنا تاريخا ، وجودنا عربا بدأ مع هذا الكلام وما يزال يتجمع فيه • وربما أن اللهجة التقريرية الكلامية ، وهي ما تزال الخاصة الاولى لادبنا وفكرنا ، ليست الا ارجاعا واستمرارا متراخيا لذلك القول الاول • ربما أيضا أن تجاهلنا هذه الحقيقة الاولى هو سبب القطيعة بيننا وبين تراثنا ، سبب الوهن الذي ابتلي به أدبنا وفكرنا منذ عصر الانحطاط وحتى الآن • وربما أخيرا أنا استبدلنا مطلقا بمطلق اخر فخسرنا الاثنين ، اذ ان ذلك كان له اسم مبين ، أما هذا فمن ذا الذي يستطيع تحديد هويته ليسميه ؟

الإبداع وذاكرة الوجود

تتميز المرحلة الانتقالية اليوم عن شبيهاتها في الماضي بالثورية ، تتجه كالثورات ، لا شطر الفائت ، بل شطر الاتي ، تظنه قريبا فتمنح لنفسها حق انشائه بالعنف في شتى أنواعه تبعا للظرف : من العنف التنظيمي الى العنف الدامي ، من الانقلاب العسكري الى شهر السلاح وخوض المعارك • والعنف كالابتكار ، من شأن الثورة • ويبرز في ثورة القرن العشرين هذه الجانب الثقافي ، أكثر مما برز في غيرها • فالمفكر والاديب والعالم ، السياسي والمصلح الاجتماعي ، كلهم يعيدون النظر في ممارساتهم انطلاقا من مبادئها الاولى ، ويعيدون النظر في الاعادة حتى لكأنهم ، دوما ، مقصرون في سباقهم مع الزمن • فلم يعد ثمة نموذج يحتذى ، ولا كلام له ملء الكلام • حتى ليبدو الانسان وعالمه اليوم في الادب ، والفن هباء منثورا ، وفي المعقولية اصطلاحا ، وفي الاحاسيس شتاتا ، يعجز أي خيال ، أي عقل ، أي نغم ، عن لمه واعادة تأليفه • فالكتابة ، كما قلنا ، في درجة الصفر ، يعوزها لا مرئي ، لا معبر عنه ، منه تستمد حياتها ووحدتها • ولكن اذا كانت الثقافة في العالم المصنع ، (على ما يرى ممثلوه) قد قطعت صلتها بتاريخها مرة ، فنحن قد قطعناها مرتين : مرة في رفضنا تراثنا ، وأخرى في تبنينا لثقافة لم نتمثلها • فأفقدنا أدبنا بعده الفكري ـ التاريخي • وأصبح أجوده على العموم ، وصفا أو سردا لا يتخطى حدود المحسوس • فالاديب في العالم المصنع ، وهو يدين تاريخه ، يحمل هذا التاريخ كاملا في مفردات الادانة ذاتها • فهو ينطق من أعماق ذاكرة لا يدري أين وكيف يجب أن تتجمع وتتوحد • أما أديبنا ففاقد لذاكرته •

الابداع الانساني كلمة تقول ، كلاما أو كتابة ، ما هو • ولكن ، قبل الكلمة ومعها وبعدها التاريخ تراثا • قبل التاريخ ومعه وبعده الوجود • وقبل الوجود ومعه وبعده فائض الوجود عن ذاته ذاكرة تتحدث من موقع يحيل الى اللاموقع ، ولا موقع يحيل الى موقع • في هذا الفائض سر الابداع • انه أصم أبكم ذلك الذي لا ينطق من أعماق ذاكرة الوجود • فمن لا يدرك حقيقة الفن هذه بكل جوارحه يرديه التاريخ • وكم جرف التاريخ من آداب وأردى من تراثات أصبحت نهبا للناهبين •

انطون مقدسي
(دمشق)

حسين مروه

التراث والوضع الراهن
(اسئلة واجوبة)

*** نعرف انك تعد رسالة للدكتوراه في موسكو عن النزعات المادية في الفلسفة العربية التي هي ، في جوهرها ، دينية ـ مثالية • من المفيد ، اذن ، أن توجز لنا وجهة النظر التي دفعتك لكتابة هذه الرسالة والمسار العام الذي تسير فيه ••**

ـ صحيح ان الفلسفة العربية قائمة على أسس مثالية في مقدماتها التي تجلت لدى المعتزلة ومن سبقهم ، وبخاصة القدرية • فهؤلاء جميعا انطلقوا من الاسلام كعقيدة • وصحيح كذلك أن علم الكلام كان دفاعا عن العقيدة الاسلامية، لكنه كان دفاعا جديدا ، مستندا الى العقل ، والى أسلوب الاستدلال الذي يستخدم المنطق الارسطي • غير أن الفلسفة العربية ذاتها استقلت ، عن علم الكلام ، وهي لم تقم على أساس الدفاع عن الدين ، بقدر ما قامت على أساس النظر الى الحقيقة الفلسفية بذاتها مستقلة عن الحقيقة الدينية • ومحاولة التوفيق بين النظرة الفلسفية للكون والمجتمع والطبيعة وبين النظرة الاسلامية هي التي أضفت عليها الصبغة الدينية • لكن هذه المحاولة ليست ، كما أرى ، أساسية ـ فلسفيا • كانت محاولة دفاع عن النفس • كانت نوعا من أنواع التقية • فقد « نظّر » الفلاسفة الاسلاميون الاساس التوفيقي على القاعدة التالية: الدين حق ، والفلسفة حق ، والحق لا يضاد الحق • اذن الدين والفلسفة واحد • فهم ينطلقون من منطلق صحيح وهو كون الحقيقة واحدة ، لا تتعدد ولا تتجزأ •

لا شك عندي ، اذن ، أن أساس المقدمات الاولى في علم الكلام والفلسفة ميتافيزيقي ، غيبي • فالنظرة المثالية موجودة في الفلسفة العربية • فكيف ، والحالة هذه ، أقدمت على القول ان فيها نزعات مادية ؟ هذا ما أريد أن أوضحه •

اذا نظرنا الى تاريخ الفلسفة نجد ، خلال البحث ، نظرات الى الطبيعة والكون والمجتمع تبرز فيها اتجاهات مادية • فلسفات القرون الوسطى ، مثلا • الافلاطونية الجديدة نفسها • فنحن نلمس اتجاها ماديا في بحثها بعض القضايا ، منفردة أو منفصلة • هيغل ، مثلا ، مثالي • لكنه أبو الديالكتيك • فنظرته الى الحركة في الطبيعة والفكر نظرة ديالكتيكية، وهو يعترف ، موضوعيا بوجود الطبيعة • لكن فلسفته مثالية • انطلاقه مثالي ، لكن نظرته الى الكون ديالكتيكية وهي أساس للديالكتيكية الماركسية • فماركس مدين بذلك لهيغل كما هو مدين في ماديته الى فلسفة فويرباخ المادي وتتبع النظرة المادية للطبيعة والمجتمع والفكر عند الفلاسفة القدماء من اقتران تاريخ تطور الفلسفة بتاريخ تطور علوم الطبيعة ، لانها تجد في تطور العلوم الطبيعية ما يدعمها دائما • والمثالية نوعان : ذاتية وموضوعية • الاولى تقول ان الذات تخلق الموضوع أو العالم الخارجي ، والثانية تعترف بالوجود الموضوعي للعالم الخارجي ، لكنها تقول ان الطبيعة أو العالم الخارجي متجلي الفكرة المطلقة مثلا ، كما هو الامر عند هيغل •

في ضوء دراستي للمعتزلة والفلاسفة الكلاسيكيين الاسلاميين ، رأيت أن المثالية الموضوعية هي الغالبة ، فهناك اعتراف بوجود موضوعي للطبيعة والمجتمع ، فقد تحدث المعتزلة ، مثلا ، عن الحركة في الطبيعة • نظرتهم الى الحركة قريبة الى النظرة المادية الحديثة في الحركة • فكرة الزمان والمكان ، كذلك ، ملازمة للمادة عندهم • فكرة الجوهر الفرد ، أو الجزء الذي لا يتجزأ • النظام ، مثلا ، لا يعترف به • والتجزؤ اللانهائي يعني أن العالم قديم ، أن المادة قديمة • طبعا ، لم يكن هناك مذهب متكامل في هذا الموضوع • ولذا كان مثل هذه الاراء يبدو مستقلا عن القضية العامة ، قضية العقائد •

كان الفلاسفة يحاولون ، أحيانا ، التوفيق • كما فعل الكندي أول فيلسوف عربي ، بالمعنى الدقيق : أي أول من عالج الفلسفة مستقلة عن علم الكلام ، وأول من قال بقدم العالم بين الفلاسفة العرب ، وان حاول تفسير ذلك تفسيرا مثاليا •

*** هل تريد من وراء ذلك أن تثبت صحة النظرة المادية ، علما أن الفلاسفة المسلمين حتى حين قالوا بقدم المادة ، كانوا يقولون انها ليست قديمة بالذات ، بل بالزمان • أي أن الله هو الذي خلقها • كانوا بمعنى اخر يقولون بأولية العقل (الله) على الطبيعة (المادة) • وقال بعضهم ان الطبيعة لا تفعل بذاتها ، ولا تتحرك بذاتها ، (الغزالي وانكار السببية) ، بل الفاعل هو الله ، والطبيعة مسخرة له •**

ـ ليس واردا عندي أن أثبت صحة النظرة المادية في عملي هذا ، لكن أريد أن أوضح تجلي النزعات المادية في الفلسفة العربية • وفي هذا لا أريد أن أحمل النصوص والقضايا أكثر مما تحمل • ان عملي علمي موضوعي بحت • وأنا أحاول أن أكون منهجيا ، بقدر ما أستطيع • وقد أشرت الى أن النزعات

المادية كانت تبرز في الفلسفة بقدر ما كانت الفلسفة تقترن بعلوم الطبيعة ، وبتطور هذه العلوم . ونحن نعرف أن الفلاسفة القدامى سموا الفلسفة علم العلوم ، وأن معظم الفلاسفة الاسلاميين كانوا علماء الى جانب كونهم فلاسفة (ابن سينا ، ابن الهيثم ، جابر بن حيان ، أبو بكر الرازي ، الخوارزمي ، ابن رشد ، البيروني .. الخ) وكان لمعرفتهم بالعلوم الطبيعية وتجاربهم العملية فيها تأثير كبير في نظراتهم الفلسفية الى الكون . ان فكرة التطور والصيرورة موجودة في الفلسفة الاسلامية . وهي بمفهومها الديالكتيكي تتضمن نزعة مادية تخالف النظرة المثالية الذاتية للكون .

وهناك ناحية أخرى قصدت اليها في عملي . فان الفكرة الشائعة عن الفلسفة العربية هي أنها الفلسفة اليونانية ، منقولة معربة . لا أصالة فيها . هذه الفكرة أريد اثبات بطلانها ، مستندا الى مبدأ علمي أولا ، والى واقع تاريخي ثانيا . المبدأ العلمي يقول : التأثير الخارجي على موضوع ما ، لا يمكن أن يكون فاعلا الا من خلال القوانين الداخلية لهذا الموضوع . فهناك علاقة ديالكتيكية بين الخارجي والداخلي . فلم يكن من الممكن أن تؤثر الفلسفة اليونانية في نشوء فلسفة عربية ، لولا قابلية الفكر العربي ، داخليا . ولذلك أرى ان الفلسفة اليونانية قد اكتسبت حياة جديدة في الفلسفة العربية .

أما من حيث الواقع التاريخي ــ ولا أريد أن أقسم التاريخ طبعا ــ فقد رأيت أن الفكر الفلسفي عند العرب تطور خلال مراحل متعددة ، وكان تطوره مرتبطا بتطور المجتمع العربي . الفكر ، في رأيي ، بناء فوقي غير مستقل عن العالم الخارجي . انه يعكس العالم الموضوعي ، وان كان الانعكاس هنا معقدا وغير مباشر ، وبخاصة حينما تتصل المسألة بالفلسفة والفن والادب . فهذه أعلى أشكال الوعي ولذلك لا تعكس العالم الموضوعي وحسب ، وانما تخلقه من جديد . من هنا قلت انه لا يمكن أن تنشأ فلسفة عربية دون مسار تاريخي لتطور الفكر تبعا لتطور المجتمع العربي ذاته . من هذه النظرة حاولت أن أدرس المجتمع العربي من الجاهلية (القرن السادس الميلادي) حتى عصر نشوء الفلسفة العربية (القرن التاسع) . ان الدين ظاهرة اجتماعية تنبثق من ظاهرة اجتماعية أخرى . وتبين لي أن هناك تغيرات اجتماعية في المجتمع الجاهلي قبيل الاسلام تجلت في الشعر والامثال والحكايات والاديان التوحيدية (اليهودية والمسيحية) . فهذه كلها كانت انعكاسا لتغيرات المجتمع الجاهلي . والاسلام انبثق بالارتباط مع هذه التغيرات وحاول أن يوجد تغيرات جديدة .

فكرة القدرية ، مثلا . البعض ينظر اليها على أنها فكرة تجريدية ، نظرية، غير مرتبطة بوضع سياسي أو اجتماعي قائم . وفي رأيي أنها ترتبط بعلاقات اجتماعية ، بموقف سياسي . فقد وجدت ، مثلا ، أن أحد مفكري القدرية جاء الى الحسن البصري وقال له ما معناه أن الحكام انذاك يسفكون الدماء وينهبون الاموال ثم يسندون أعمالهم تلك الى قضاء الله وقدره ، ثم يطالبه بالوقوف ضد هذه الفكرة . فكأن الحكام كانوا يحكمون بمشيئة الله ، بقضائه وقدره ، واذن

لا مجال للقيام ضدهم ، اذ لا مرد لمشيئة الله • وقد ناهض التفكير القدري هذا الادعاء ، وتبعه ناس كثيرون حتى في الحجاز ، موئل السلفية ، انتشرت فكرة الاختيار التي يقول بها القدرية ، وذلك بدافع المناهضة للحكم الاموي ونفي كون هذا الحكم قدرا الهيا على المسلمين •

هناك قضايا أخرى كقضية مرتكب الكبيرة : هل هو مؤمن أو كافر أو فاسق ؟ هذه القضية كذلك ، ليست نظرية دينية وحسب ، وانما كان من أسبابها الصراع على الخلافة • أريد أن أقول انه كان للسياسة تأثير كبير في نشوء هذه القضايا ، ومن هنا نشأ الخلاف في مفهوم الايمان : هل الايمان اعتقاد وحسب ، أم أنه اعتقاد وعمل في آن ؟

لقد حاولت أن أثبت أن الفلسفة العربية نشأت خلال هذا المسار التاريخي وأن فلسفة الكندي نتيجة هذا المسار ، وأن الفلسفة العربية لم تنبثق فجأة ، بل هي نتيجة تطور • وقد نشأت على التفريق بين الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية • ثم صارت الحقيقة الفلسفية هي الاساس ، على العكس مما كان في علم الكلام • هذا كله يوضح أن الفلسفة العربية نشأت وتطورت واكتسبت خصائصها المتميزة واتخذت مسار حركتها واتجاهاتها ونزعاتها من المجتمع العربي وتطوره ، أي تبعا لتطور علاقاته الاجتماعية في الاساس •

*** نرجو أن تحدد لنا ، من زاوية قراءتك هذه للفلسفة العربية ، أهمية هذه القراءة بالنسبة الى قضايانا اليوم •••**

ـ أحدد هذه الاهمية في ثلاثة أمور :

١ ـ البحث العلمي المحض ، فالفلسفة العربية ، كما أرى ، لم تدرس أو تقيم ، علميا ، كما يجب حتى اليوم • وغالبا ما أساء المستشرقون فهمها •

٢ ـ رؤية التطور التاريخي في الفكر الفلسفي العالمي باعتبار أن الفلسفة العربية مرحلة من مراحل هذا التطور في الفكر العالمي • حين ظهر العرب كان التراث الفلسفي محصورا في الاديرة • وقد تسلمت الفلسفة العربية هذا التراث وحولته خلال تطورها الداخلي ، وأحيت الفلسفة القديمة بدءا من هيراقليطس ، حتى أرسطو • وانعكست هذه الفلسفة في الحياة العربية ، لكن بأساليب جديدة ومفاهيم جديدة • فالفكر عندما يتطور يتخذ أشكال تطوره من خلال الخصائص المتميزة في كل مجتمع • هناك اذن تمايزات في تطور الفكر ، تكسبه أشكالا مختلفة • وهذا مما يضفي على تاريخ تطور الفكر الفلسفي تنوعا وخصبا • وليس الفكر العلمي في عصر النهضة الاوروبية الا نتاجا لهذا التطور كله • الابتكارات الحديثة نفسها نتاج هذا التطور • ان القاعدة الاساسية هي أن التطور يتم بالاخطاء والتجارب •

كان اقليدس ، رغم ظهور خطأ نظرياته ، أساسا للنظريات الحديثة • كذلك شأن النظرات اليونانية في علوم الطبيعة •

٣ ـ الفكر العربي ، الفلسفي والعلمي ، أضاف للحضارة العالمية بحكم كونه حلقة من حلقات هذا التطور ، بحكم نشوء علاقات اجتماعية جديدة في العالم العربي انذاك • الرشدية ، مثلا ، قسمت المفكرين الاوروبيين الى رشديين وغير رشديين • قسمت الجامعات انذاك الى رشدية ومناوئة للرشدية •

ان اثبات المشاركة العربية في الحضارة يعني أن حاضرنا كعرب مرتبط بهذا الخط من التطور ، وأن ثقافتنا الحاضرة ليست منعزلة عن ثقافة الماضي ، بل مرتبطة بها ارتباط صيرورة مستمرة • فلا يجوز قطع ثقافتنا المعاصرة عن تراثنا الثقافي القديم • لكن ذلك لا يعني أن نحيي الماضي ككل ونقيمه ككل تقييما ايجابيا مطلقا ونرتبط به كليا كما يدعو السلفيون المحدثون • بل ينبغي أن نرتبط بما لا يزال ذا قيمة علمية حضارية • لكن اذا رأينا في تراثنا بعض الجوانب ذات الوجه التقدمي ، فلا يعني ذلك حتما أن هذا الوجه ما يزال قادرا أن يؤدي دوره الذي أداه في عصره الذي انقضى ، بل نحن نقدره اليوم بمقياس تاريخي محض ، أي بمقدار كونه حلقة في سلسلة التطور التاريخي التقدمي •

*** من هذه الزاوية ، ماذا ترى في التراث العربي مما يمكن احياؤه والافادة منه اليوم ؟**

ـ احياؤه كما هو ، لا • لان التطور لا يقف • لكن يجب أن نقيمه بمقدار ما فعل في زمانه ، خلال المسار التاريخي كما قلت • وأخص بذلك ما كان ذا جانب تقدمي من التراث • ولست أوافق على خطة الذين يحاولون العودة الى القديم لمجرد كونه قديما ليس غير • وفي اعتقادي أن عمل هؤلاء ، بصرف النظر عن نياتهم ، يؤدي ، موضوعيا ، الى تكريس وتبرير ما هو رجعي حاليا في الفكر العربي السائد ويقضي باستمراريته حتى المستقبل ، وفي الوقت نفسه أعارض اولئك الذين يستندون الى ما هو رجعي في التراث لتبرير رفض التراث بكليته، تاركين مجتمعنا العربي الحاضر يعتقد أنه ليس له من سبيل سوى تقليد واقتباس انتقائي من الحضارة البرجوازية الغربية المعاصرة • فان مثل هذا الاتجاه يعني اصطناع بناء فوقي مستحدث لبناء تحتي موجود واقعيا ومتكون تاريخيا • وهذا بدوره يؤدي بنا الى الوقوع في خطأ فلسفي ومنهجي جديد يرجع بنا الى النظرة المثالية التي ترى الفكر هو الخالق للواقع الاجتماعي •

*** كيف يمكن ، بهذا المعنى ، تحديد ارتباطنا بالتراث ؟**

ـ الارتباط بالتراث لا يعني أن نأخذ نتائجه ونعتمد عليها في الوقت الحاضر ، بل يعني تقييم دوره التاريخي ، والنظرة للارتباط المستمر • انالثورية كما أعتقد ، هي في الاعتراف وحسب ، بالوجه التقدمي في التراث وبكون حاضرنا مرتبطا ارتباط صيرورة مستمرة بماضينا وبمستقبلنا في آن •

*** أرسطو ، مثلا ، ما يزال مؤسسا للفلسفة • لا يمكن البحث في أية قضية فلسفية في معزل عنه • فهو ما يزال حيا ، حاضرا فاعلا في الفكر الفلسفي المعاصر •**

ـ فاعلا ؟ لا ، ليس فاعلا ٠

*** في الفلسفة أمران : طرح التساؤل والاجابة ٠ بالنسبة الى طرح التساؤل ، ما يزال أرسطو حيا فاعلا ٠ فنحن نطرح الاسئلة مثل أرسطو ، لكن قد نجيب بشكل مختلف ٠ فهل سألت الفلسفة العربية أسئلة ما تزال مطروحة، اليوم ؟**

ـ نعم ٠٠ وأنا آخذ مثلا عمليا : الملكية الخاصة ٠ الاسلام أقرها وأكدها ، ولكن هل الغاء الملكية الخاصة اليوم مناف للاسلام ؟ أنا أرى أنه غير مناف ، وذلك بالاستناد الى الاسلام ذاته ٠ ان روح التشريع الاسلامي قابل للتغير والتطور بحسب مقتضيات العصر ٠ وذلك وفقا لمبدأ المصلحة العامة أو المصالح المرسلة ٠ فما هو مقياس هذه المصلحة ؟ ليس في الاسلام مقياس خاص جاهز مطلق ٠ ان مقياسها يتطور حسب تطور المجتمع ، وهذا أمر طبيعي ٠ وقد اجتهد عمر بن الخطاب في نصوص واضحة بحسب فهمه للمصلحة العامة ٠ وما دامت المصلحة العامة ليس لها مقياس جاهز مطلق ، وما دام روح التشريع الاسلامي يقول بالمصلحة العامة ، فمن الممكن اذن تطوير التشريع بموجب مقتضيات هذه المصلحة ٠

*** لكن عندما ترد عبارة المصلحة العامة عن طريق الدين فهي تعني مصلحة المسلمين كواقع ، والمسلمون يعكسون مصلحة الاسلام كفكرة غيبية ٠ ومن هنا يلغى التاريخ كواقع متحرك آني ٠ في حين أن الواقع الاجتماعي أوسع ٠٠**

ـ أنا قصدت ، في هذا المثال ، ايضاح كيفية الموقف من التراث ٠ أما المقاييس التي ظهرت في فهم المصلحة العامة فكانت دائما مرتبطة بواقع اجتماعي وسياسي ٠ كان الحكام أنفسهم يفهمون المصلحة العامة من خلال مصالحهم كطبقة حاكمة ، وكان التفسير الديني حجة لهم دائما ٠ من هنا يظهر أن الواقع ، لا الفكرة الغيبية ، هو المنطلق في تحديد المصلحة ، عامة كانت أم خاصة ٠

*** ألا تعتقد أنك ، في كلامك هذا ، في طريقة طرحك للمشكلة ، ما تزال في موقع التقية ؟ فالغاء الملكية الخاصة لا يتنافى مع الاسلام ، كما تقول ٠ بعبارة أخرى : بدل أن تحل هذه المشكلة على ضوء التطور ، تحاول أن تحلها في اللجوء الى الدين ، فتجد في التشريع تبريرا للملكية الجماعية ٠**

ـ لست بكلامي ذاك ، في موقف تقية مطلق ، وانما حددت المسألة وناقشتها انطلاقا من الموقف العلمي تجاه التراث ، وهو الموقف الذي اعتقده كمفكر ماركسي ، أي في ضوء منهج فكري علمي يستند الى النظرة المادية التاريخية في تفسير أحداث التاريخ وقضاياه ٠

*** أنت تريد أن تجد للملكية العامة تبريرا دينيا ٠ أي أنك تبرر التطور،**

بالاستناد الى الدين ذاته · وهذا هو موقف الفلاسفة المسلمين في مختلف العصور ·

ـ لست في موقف التبرير للملكية العامة ، أولا ، وأما ثانيا فان مبدأ الملكية العامة يجد مبرراته النظرية العلمية الكافية في رأيي ، وانما المهم في حديثنا هنا الان ، هو أين يمكن أن نفيد من التراث ، وكيف ؟

*** لكن ، هل يمكن للثورة أن تنجح في موقع الدين ؟ أي هل يمكن أن نصنع الثورة بأساليب غير ثورية ؟**

ـ طبعا ، لا يمكن أن نصنع الثورة بأساليب غير ثورية · هذا أمر بديهي · ولكن هل ننفي المؤمن بالدين من الثورة ؟ المؤمنون كبشر ، لهم مصالح في الثورة ، فاذا كان فهمهم للدين يعرقل مسيرتهم في الثورة فالافضل ، بدلا من أن نريهم التناقض بين الثورة والدين ، أن نريهم ألا تناقض بين ايمانهم ومصلحتهم في الثورة ·

*** لكن هذا الجمهور المؤمن التابع لمؤسساته الدينية ، الخاضع لمفاهيم وقيم سلفية ، هل يمكن أن يقوم بثورة فيما هو يتمسك بهذه المؤسسات ويستمر في خضوعه لتلك المفاهيم والقيم ؟**

ـ يمكن الجمهور المسلم أن يصنع ثورة حقيقية · فالدين ليس عاملا حاسما في التطور · العامل الحاسم هو الواقع الاجتماعي والاقتصادي · اذن ، ذلك الجمهور يمكن أن يثور ، ويصبح ثوريا لان مصالحه الواقعية تدفعه الى ذلك ولا يتوقف ذلك على تغيير ايمانه الديني · ان المصالح الطبقية بالاضافة الى الوعي الطبقي هي المحرك الاساسي للثورة بمعناها الاجتماعي ·

*** قد يكون ذلك صحيحا ، ان كانت المسألة تكتيكا من أجل انتصار الثورة ، غير أن الثورة ليست الوصول الى مقاليد الحكم وحسب · انها تغيير الحياة والمجتمع ، جذريا · صحيح أن الانسان قد يصل ، من خلال التعامل ، الى الانصهار في الثورة · غير أن العلاقات الاجتماعية الجديدة تخلق بنية فوقية جديدة · وهكذا قد يحدث صراع بين البنية الفوقية الناشئة عن علاقات اجتماعية جديدة ، والبنية الفوقية الناشئة عن علاقات قديمة والتي ما تزال مستمرة ، كالدين · أفلا يمكن لهذه البنية القديمة أن تمنع نشوء العلاقات الجديدة والبنية الفوقية الجديدة ؟**

ـ كلا ، لا تمنع · ولكنها قد تعوق وتؤخر · الدين من البنيات الفوقية · ولكل طبقة ايديولوجيتها · صحيح أن ايديولوجية الطبقة السائدة قد تستمر وتؤثر في الطبقة الناشئة ، لكن العامل الحاسم ليس الايديولوجية ، بل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية · وهكذا لا يمكن للبنية القديمة أن تمنع الثورة ، لكنها قد تعوقها وتعرقلها · الدين ، الفلسفة ، الادب ، هي من أشكال الوعي ، وهي بنى فوقية وعبارة عن انعكاس للبنى التحتية · ولتغيير البنى

*** هل يعني ذلك أن الدين عنصر تطور حين تفيد منه الماركسية أو الثورة وأنه عنصر رجعي حين لا تفيد منه ، أو يفيد منه أعداؤها ؟**

ـ الماركسية ، كمنهج فكر ثوري وكدليل عمل ثوري ، لا تنظر للمسألة نظرة مطلقة ، والا كانت نظرتها مثالية ميتافيزيكية غير مادية دياليكتيكية • فهي تنظر في كل شيء من خلال حركتـــه واتجاه هذه الحركـــة ضمن الظروف الموضوعية الملموسة المعينة ، فحيث يتجه هذا الواقع أو ذاك في هذه الظروف بعينها اتجاها يخدم الحركة الثورية ، فهو حينئذ عنصر ثوري ، وحيث يتجه عكس ذلك فهو عنصر رجعي • هذه هي المسألة أولا وأخيرا •

*** ما نلاحظه هو أنك تقول بأن تغيير العلاقات الاجتماعية والبنيـــة الاقتصادية يمكن أن يتم بسرعة ، بينما تغيير الانسان والبنية الفوقية لا يتم الا في وقت طويل • فالمعركة هي أولا بحسب رأيك ، تحقيق التغير السريع • لكن ألا ترى أننا حين لا نهتم بتغيير البنية الفوقية فيما نغير البنية التحتية ، قـــد يصبح الانسان ذاته عائقا في وجه تغيير البنية التحتية ذاتها • بتعبير اخر : عندما تصبح البنى الفوقية عامل اعاقة ، فلا بد من أن نهتم بتغييرها اهتمامنـــا بتغير البنى التحتية • ونحن نعتقد أن البنى الفوقية في المجتمع العربي تشكل عائقا أساسيا في طريق الثورة وفي طريق التقدم • ولا يكفي لتحقيق الثـــورة والتقدم تغيير البنى التحتية وحدها ••**

في دراسة سوسيولوجية قام بها عضو هيئة التحرير ، حليم بركات ، عن الطلاب الجامعيين اللبنانيين تبين ، وهذا يوضح ما نذهب اليه ، أن الانتماء الديني أكثر تأثيرا في فكر الطلاب وسلوكهم من الطبقة الاجتماعية • المسيحي ، مثلا ، المنتمي الى طبقة فقيرة ، محافظ • بينما ظهر أن المسلم المنتمي الى عائلـــة تحصل أكثر من ٥٠ ألف ليرة في السنة ، يعتبر نفسه ثوريا ، ويشترك فعليا ، في القيام بأعمال ثورية • الدين اذن هو هنا عامل تحتي ، عطل فعل الطبقة •

ـ ان ما سميته عاملا أو موقفا دنيبا ، أعتبره عاملا طائفيا • ان الطائفية في لبنان هي ، كما أرى ، سياسية وليست دينية • فالكثيرون من الطائفيـــين ملحدون • ثم انني لا أعتقد أن المسلمين أصحاب الملايين يساريون أو ثوريون • الموقف الطبقي هنا بارز جدا • قـــد يتأثـــر البسطاء الكادحـــون من المسيحيين والمسلمين بأيديولوجية زعمائهم الطائفيين ، وذلك يعني أن الوجود الموضوعي للطبقية لا يرافقه بالضرورة وعي طبقي • ولذا يحتاج الكفاح الثوري عندنا الى عمل دائب لتحقيق الوعي الطبقي لدى الكادحين •

*** كثيرا ما نلاحظ ، في الازمات الحاسمة في لبنان ، أن عاملين من طبقة واحدة يفترقان كل الى طائفته ، دون أن تؤثر الطبقة ••**

ـ قد تكون ايديولوجية الطبقة السائدة في المجتمع هي الايديولوجيـــة السائدة لدى الطبقات الكادحة التي تستثمرها الطبقة السائدة • وهذا أمـــر واقع •

لكن ، من جهة ثانية ، لا يمكن أن نعتبر كأمر مطلق أن العامل المسيحي أو المسلم يلجأ الى الموقف الطائفي بدلا من لجوئه الى الموقف الطبقي • فهناك أحداث كثيرة في لبنان تبين أن العامل سواء كان مسيحيا أو مسلما وقف مواقف طبقية عندما كانت هذه المواقف مرتبطة مباشرة بمطالبه الاجتماعية الملموسة • والموقف النقابي في الحركة النقابية يبرهن على ذلك • فهناك مقررات صدرت عن اتحادات النقابات وعن المؤتمر النقابي العام وعن الاتحاد العام الاخير للنقابات جمعت مختلف الافراد ، على اختلاف انتماءاتهم الطائفية وحتى انتماءاتهم الحزبية والسياسية ، حول موقف موحد من مطاليب محددة لمصلحة الطبقة العاملة •

ثم انني أفرق بين الوجود الطبقي والوعي الطبقي • الوجود الطبقي شيء موضوعي ، لكن الوعي الطبقي قد لا يكون في مستواه ، بل قد يكون منعدما • لذلك يقتضي العمل الثوري ، قبل كل شيء ، اثارة الوعي الطبقي • وهذا كفيل بالقضاء على النعرات الطائفية داخل الطبقة العاملة وسائر الطبقات الكادحة •

*** كان هذا استطرادا مفيدا • نعود الى التراث • حين نقول « التراث العربي » هل يعني ذلك التراث المكتوب باللغة العربية وحده ، والذي يبدأ بحوالى ستمئة سنة قبل الاسلام ، أم يعني التراث الذي نشأ في الارض العربية منذ القدم ؟**

— في مجال الكلام على « التراث العربي » بقول مطلق ، وفي مجال الكلام على احياء القيم الثقافية من الحياة التاريخية العربية ، ينبغي أن يشمل ذلك كل هاتيك القيم ذات الوجه الحضاري التاريخي ، مكتوبا كان أم منحوتا أم منقوشا منذ أقدم أزمنته • أما مجال عملي في الوقت الحاضر فيقتصر على ما له صلة بالتمهيد لنشوء الفكر الفلسفي العربي وعلى الفلسفة العربية ، وذلك ينحصر في مدى تاريخي يبدأ من القرن السادس الميلادي وينتهي في القرن الثالث عشر •

*** الارتباط بالتراث هو ارتباط بنوع من الاصول القومية • كيف تحدد ، في هذا الضوء ، الصلة بين القومية والماركسية ؟**

— يبدو لي أنكم تلمحون الى الفكرة التي تشيعها أوساط البرجوازية المعادية للماركسية ، أعني بها فكرة **التعارض** بين القومية والاممية البروليتارية التي تاخذ بها الماركسية مبدأ طبقيا • والواقع أن الماركسية ترفض فكرة **التعارض** هذه بصيغتها المطلقة • صحيح أن ماركس وانغلز قد حاربا ، نظريا وعمليا ، دون هوادة ، النزعة القومية الاوروبية المتفشية في عهدها ، ولكن حربهما لم تكن موجهة للقومية بذاتها من حيث هي مفهوم مطلق ، بل لما كانت تتضمنه القومية الاوروبية البرجوازية من نزعة شوفينية ومن تسلط طبقي في ظروف تطور الرأسمالية ومن خداع وتضليل للطبقة العاملة وسائر الطبقات والفئات الكادحة باسم « القومية » في سبيل استثمار هذه الطبقات واستعباد

الشعوب الاخرى ونهب خيراتها المادية واستنزاف طاقاتها الروحية وفي سبيل اثارة الحروب العدوانية ·

في هذا الاطار الخاص من مضمون القومية البرجوازية كانت الماركسية ، وستبقى ، على تعارض مع « القومية » · ولكن في خارج هذا الاطار الخاص المعين تقف الماركسية موقفا اخر من القومية يختلف اختلافا كليا عن موقفها ذاك من القومية البرجوازية الاوروبية · فان ماركس نفسه لم يكتف برفض التناقض او التعارض بين المصالح الوطنية الحقيقية للطبقة العاملة وبين المصالح الامية لها ، بل كان يؤكد ــ فوق ذلك ــ أن المصالح الوطنية والمصالح الامية البروليتارية **مترابطة ترابطا عضويا** · ولاثبات هذا الترابط نبه ماركس الطبقة العاملة الى أن نسيانها المبادىء الامية لن يضر بالحركة العمالية العالمية وحسب، بل يصيب بالضرر كذلك ــ أول ما يصيب ــ المصالح الوطنية للطبقة العاملة ذاتها في وطنها ذاته · ومن هنا أوضح ماركس مدى الترابط بين النضال الطبقي للبروليتاريا وبين نضالها **الوطني** لمقاومة النزعة العسكرية في كل وطن اوروبي حينذاك ولمقاومة حروب الاغتصاب ·

وعلى هذا الاساس دعا ماركس بروليتاريا مختلف الاوطان أن يشارك بعضها بعضا في مكافحة المستثمرين وسياستهم العسكرية الذين يضربون على وتر **القومية** بغية تحقيق أهدافهم الاجرامية بأراقة دماء البشر واستنزاف ثروات شعوبهم والشعوب المعتدى عليها في حروب النهب · وهكذا فعل **انغلز** ، أحد معلمي الماركسية ومؤسسيها ، اذ كان يؤكد القول بأن عناية **المواطن بمصالح شغيلة بلاده وبالمصالح الوطنية لشعبه لا يمكن أن تنفصل عن الروح الامية الثابتة** ·

وانطلاقا من هذه الموضوعة الماركسية صرح انغلز بأن «**الافكار الوطنية حقا** في الحركة العمالية ، التي تطابق العوامل الاقتصادية في الصناعة والزراعة والعوامل التي تهيمن في البلدان المقابلة ، هي في الوقت نفسه ودائما **أفكار أممية حقا** » ·

وخلاصة الامر أن هناك فارقا أساسيا بين المفهوم البرجوازي والمفهوم الماركسي للوطنية أو القومية : فالمفهوم الاول يعني استئثار البرجوازية بخيرات الوطن المادية والروحية كلها ــ التي تصنعها البروليتاريا نفسها مع سائر الطبقات والفئات الخاضعة لاستثمار البرجوازية ، من غير أن تتمتع تلك الطبقات بسوى التافه مما تصنعه وتنتجه هي · كما أن هذا المفهوم البرجوازي للوطنية أو القومية يعني كذلك اثارة الطبقات الكادحة المحرومة ثمرات عملها لايقاع العداء بينها وبين الطبقات المحرومة أيضا في الاوطان الاخرى ، كما يحدث في الحروب العدوانية والاستعمارية التي كثيرا ما أثيرت تحت شعارات «وطنية» أو «قومية»، في حين لم يكن ينال الطبقات الكادحة في البلدان المعتدية والبلدان المعتدى عليها ، من هذه الحروب ، سوى الهلاك والخراب مع المزيد من الاستثمار والحرمان والاضطهاد ·

هذه هي « القومية » التي تعترف الماركسية ، باعتزاز ، أنها تتعارض مع مبادئها الاممية : ولكنها ـ أي الماركسية ـ تفرق بين قومية برجوازية **ظالمة** وقومية برجوازية **مظلومة** . وما قلناه سابقا انما ينطبق على القومية البرجوازية الظالمة . أما المظلومة فيختلف الموقف منها . وقد عبر لينين عن هذا الموقف بوضوح في قوله : « ... ولا شك أن كل نزعة قومية برجوازية في أمة مظلومة تتضمن فحوى ديموقراطيا عاما ينتصب ضد الاضطهاد . ونحن نؤيد هذا الفحوى تأييدا تاما ، وفي الوقت نفسه نقاوم كل ميل الى الاستئثار القومي مقاومة لا هوادة فيها » . (لينين : « ملاحظات انتقادية حول المسألة الوطنية » ـ الترجمة العربية ـ دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية ـ موسكو ص ٧٦) .

وقد التزم الماركسيون ـ اللينينيون الحقيقيون في الحركة الشيوعية والعمالية العالمية ، ولا سيما الدول الاشتراكية وطليعتها الاتحاد السوفياتي ، برعاية هذا الترابط العضوي بين المصالح القومية والمصالح الاممية انطلاقا من المواقف الطبقية ، دون أن ينزلقوا الى فكرة التعارض أو التناقض المطلق بين القومية والاممية وما تمثله هذه الفكرة البرجوازية من اتجاهين متعاكسين : يميني ، ويساري « طفولي » . وقد انعكس التزام الشيوعيين بمبدأ العلاقة الدياليكتيكية الطبقية بين القومية والاممية في شكلين أساسيين من أشكال التطبيق العملي لهذا المبدأ الماركسي ـ اللينيني :

أولهما ـ موقف التأييد والعون الدائمين الثابتين من الحركات القومية التحررية في بلدان آسية وأفريقية وأميركا اللاتينية ، ومنها حركة القومية العربية ذات الاتجاه التحرري والمضمون التقدمي .

وثانيهما ـ موقف الاحياء والتطوير لكل ما يحمل قيمة انسانية وشعبية وحضارية من التراث الثقافي القومي لدى مختلف القوميات في الاتحاد السوفياتي وفي سائر البلدان الاشتراكية . وقد حدد **لينين** طبيعة هذا الموقف المبدئي حيال التراث تحديدا علميا دقيقا . يقول لينين : « ان كل ثقافة قومية تحتوي عناصر ـ وان غير متطورة ـ من ثقافة ديموقراطية واشتراكية ، لان في كل أمة جمهورا كادحا مستثمرا (بفتح الميم) تولد ظروف حياته بالضرورة أفكارا ديموقراطية واشتراكية . ولكن ، توجد في كل أمة ثقافة برجوازية (غالبا ما تكون اكليريكية مغرقة في الرجعية) لا تبدو بشكل « عناصر » وحسب بل بشكل ثقافة سائدة . ولذا كانت « الثقافة القومية » هي ، بوجه عام ، ثقافة الملاكين العقاريين ورجال الدين والبرجوازية » . ثم يقول لينين : « .. أما نحن فأننا اذ نضع شعار « الثقافة الاممية ، ثقافة النزعة الديموقراطية والحركة العاملة العالمية » ، **انما نستخلص من كل ثقافة قومية مجرد عناصرها** الديموقراطية والاشتراكية ، ونستخلصها ـ بوجه الحصر واطلاقا ـ لمعارضة الثقافة البرجوازية ، لمعارضة التعصب القومي البرجوازي في كل أمة من الامم » (لينين : « في الثقافة والثورة الثقافية » الطبعة العربية ، ص ١٦) .

*** سؤال أخير : بصفتك ناقدا ·· الا تعتقد بأن الواقع المتخلف الذي يسحب ظله على حياة الامة العربية اليوم فرض السلفية أسلوبا تعبيريا ضيقا على الفن والادب وان أي فنان يرغب في ادراك معاصرته ضمن التحولات الادائية الكبيرة في هذا القرن لا بد ان يجد نفسه مفصولا لحد ما عن الشعب رغم المحتوى الانساني الذي يغمر عمله الفني ·· ان موقفا متزمتا سلفيا لا يزال يحاول شد الفنان عندنا بتراثية ادائية متخشبة وبهذا المعنى يصير التراث قيدا وقتلا للابداع والتطور ·· فكيف يجب أن نقوم العمل الفني وكيف يجب أن نخطط لادبنا المقبل ومن أية زاوية يجب النظر الى أدبنا الجديد الثائر على تلك القواعد السلفية المعيقة لمعاصرة حقيقية ·· ؟**

– صيغة السؤال ، بمجملها ، توحي بأنكم تنظرون الى الاسلوب التعبيري من حيث هو شكل وأداة ليس غير · والواقع ان الاسلوب التعبيري هو الشكل والمضمون كليهما مجتمعين في وحدة ديالكتيكية متحركة متطورة ضمن حركة التطور التاريخي للمجتمع · ولذلك لا يمكن أن تتحقق المعاصرة للاسلوب التعبيري من جانبه الادائي المحض دون جانبه المضموني ، أو بالانفصال بين هذا الجانب وذاك · بل يمكنني القول ، باطمئنان ، ان طبيعة المضمون هي التي تحدد طبيعة الشكل ، بمعنى أن كون المضمون نفسه سلفيا أو معاصرا هو المحدد لكون الاسلوب التعبيري سلفيا أو معاصرا ·

من هنا أجيب عن السؤال بأنه لا يمكن ارسال هذا الحكم المطلق القائل بأن : « الواقع المتخلف الذي يسحب ظله على حياة الامة العربية اليوم فرض السلفية أسلوبا تعبيريا ضيقا على الفن والادب » · اني أرفض هذا الإطلاق من جهتين :

أولا – لا يمكن القول بأن واقع المجتمع العربي الحاضر **واقع متخلف** بصورة مطلقة · ذلك بأنه واقع متحرك ومتطور نسبيا ، وهو يتجه بتحركه وتطوره الى القضاء على أسباب تخلفه · واذا كان لم ينجح بعد – وهذه حقيقة واقعية لا يمكن انكارها – في القضاء على هذه الاسباب وفي دخوله « عملية » التقدم مباشرة ، فذلك لان المسألة ليست **ارادية** وحسب ، بل هناك عوامل موضوعية معقدة ، داخلية وخارجية متداخلة ومتناقضة معا ، تتصادم الى حد التناحر مع ارادة التغيير الثوري التي هي الطابع العام لاتجاه التحرك والتطور في حياة الامة العربية اليوم · ان مسيرة ما يسمى بالنهضة العربية في ما بين أواخر القرن التاسع عشر والربع الاول من هذا القرن ، ومسيرة حركة التحرر الوطني العربية منذ أوائل الاربعينات الى اليوم ، يمكن أن تلقيا أضواء كاشفة على هذه المسألة ·

ثانيا – لا يمكن القول ، تبعا لما تقدم ، ان واقع المجتمع العربي المتخلف « فرض السلفية أسلوبا تعبيريا ضيقا على الفن والادب » · فانه اذا ثبت أن واقع المجتمع العربي يتحرك باتجاه القضاء على التخلف وأسبابه ، فلا بد من القول ، نظريا ، ان الاسلوب التعبيري متأثر – ضرورة – بهذا الاتجاه · ولكن ، لا بد

من النظر الى تحرك المجتمع العربي بذلك الاتجاه نظرة دياليكتيكية شاملة لكي نرى في داخل ذلك التحرك قوى طبقية وفئوية تقف مواقف معاكسة للاتجاه العام ، أي اتجاه التطور والتقدم ، أو التغيير الثوري للتخلف • ولا بد ـ بالطبع ـ أن يكون لهذه المواقف انعكاسات في الاسلوب التعبيري ، وأن تكون السلفية واحدا من هذه الانعكاسات • فالسلفية في الاسلوب التعبيري ليست مطلقة اذن كما يفهم من السؤال • هذا من الوجهة النظرية •

أما من الوجهة الواقعية العملية فالمسألة أكثر وضوحا • ذلك بأن الاسلوب التعبيري في الادب والفن العربيين ، لا يصح اطلاق القول فيه بأنه وقف « موقفا متزمتا سلفيا لا يزال يحاول شد الفنان عندنا بذاتية أدائية متخشبة » كما تقولون في السؤال • بل ان نظرة الى الخطوات التي خطاها الاسلوب التعبيري في الادب والفن عندنا ، ولا سيما خطواته في الستينات ، سواء بميدان الشعر أم القصة أم المسرحية أم المقالة والدراسة ، تضع أيدينا على تحولات أدائية كبيرة بالقياس الى الاساليب التعبيرية في مراحل تاريخية سابقة • واذا تتبعنا مسار التطور في أساليبنا التعبيرية منذ أوائل النهضة العربية حتى اليوم ، استطعنا أن نرسم « خطا بيانيا » متحركا باتجاهات تغلب عليها محاولة التحرر من « التراثية الادائية المتخشبة » • واذا قارنا الاسلوب التعبيري الشعري السائد اليوم بالاساليب الشعرية السلفية ، خرجنا من هذه المقارنة بحاصل يعارض ما يفترضه سؤالكم معارضة صارخة •

أما ما تلاحظونه ، في السؤال ، من « أن أي فنان يرغب في ادراك معاصرته ضمن التحولات الادائية الكبيرة في هذا القرن لا بد أن يجد نفسه مفصولا ، لحد ما ، عن الشعب » فانه يخضع للمناقشة أيضا • فان هذه الظاهرة هي ـ أولا ـ ليست مطلقة كذلك • اذ ليس كل من يرغب في ادراك المعاصرة يجد نفسه مفصولا عن الشعب • وهي ـ ثانيا ـ ترجع الى تحديد مفهوم المعاصرة نفسها • فاذا كانت المعاصرة تعني تخطي القضايا والمشكلات القائمة اليوم بالفعل في حياة الامة العربية الى قضايا ومشكلات معاشة في المجتمع البرجوازي الغربي بالذات ، بالرغم من اختلافها النوعي عن قضايانا ومشكلاتنا ، فانه من الطبيعي جدا أن يقع الفنان في الانفصال عن الشعب : شعبنا ذاته • وذلك بناء على كون الاسلوب التعبيري هو وحدة الاداء والمضمون • أما اذا كانت المعاصرة هي الانطلاق من الخصائص النوعية لقضايا المجتمع العربي ومشكلاته الراهنة ، فليس من الممكن أن يقع الفنان بهذا الانفصال عن الشعب ، مهما كان الاسلوب التعبيري متمتعا باستقلاليته النسبية عن الواقع المعاش •

أما التراث فنحن اذا نظرنا اليه في حركته وتطوره ، لا في حالة ثباته وجموده ، انتفى الخوف من أن يصير « قيدا وقتلا للابداع والتطور » •

من كل ما تقدم أستطيع أن أجيب عن الفقرة الاخيرة من السؤال ، فأقول: ان رؤية العمل الفني منفصلا عن موقف الفنان من القضايا الحادة الفاعلة في مجتمعنا اليوم ، وعن مكانه من الصراع الايديولوجي حول هذه القضايا ، هي

مصدر ما نقع فيه من اضطراب في تحديد القيم الفنية وسط هذا الجدل الذي ندور معه في حلقة مفرغة • فالاسلوب التعبيري يبقى مشكلة هذا الجدل ما دمنا ننظر اليه من جانب واحد ، أي جانبه **الاداتي** ، وننسى جانبه الاخر ، أي جانبه **المضموني** ، وما دمنا ــ بهذه النظرة الجانبية ــ نغفل أثر المضمون في تحديد نوعية الاداء • والواقع أن مضمون العمل الفني لا يمكن الا أن تكون له صلة ، قريبة كانت أم بعيدة ، بموقف الفنان من قضايا مجتمعه وبمكانه من الصراع الايديولوجي بشأن هذه القضايا • ومن هنا أعتقد أن « التخطيط لادبنا المقبل » يبقى تخطيطا في الهواء وفي المجرد اذا فصلناه عن التخطيط لمواقفنا من حركة التغيير الثوري بكليتها وشمولها ، أي بارتباطها بالعام الذي هو تغيير المجتمع ثوريا • ان الموقف الاجتماعي الثوري بذاته يؤدي بالضرورة الى الموقف الفني الثوري القادر على تخطي القواعد السلفية العائقة دون المعاصرة بمفهومها الحقيقي ، أي النابع من حركة الصراع المعاش بالفعل •

حسين مروه
(بيروت)

(شارك في النقاش وطرح الأسئلة جميع الاعضاء في هيئة تحرير «مواقف»)

هادي العلوي

كيف نقف من التراث الاسلامي ؟

يشمل تعبير **التراث الاسلامي** حصيلة النشاط الاجتماعي والفكري للمسلمين (*) ، المنتجة طوال الحقب الممتدة بين بعثة النبي محمد ونهاية

(*) شمل التطور الحضاري وجوه الحياة المختلفة في ديار الاسلام • وقد وضع الاسلام الاول بذور هذا التطور بتجاوزه المنهج الديني البحت للمسيحية والبوذية والاديان الروحانية المماثلة ، الى تاسيس مجتمع ديني سياسي تسيره تعاليم اجتماعية أعطيت قوة الالزام ••• ويعكس النهوض السريع للفقه مدى التعقيد الذي أصاب المجتمع الجديد في وقت مبكر • ودعوة الاسلام هي ـ كشان أية حركة اجتماعية ـ نتاج مرحلتها التاريخية • وعلى الرغم من اختلاف الباحثين في تسمية هذه المرحلة فمما لا خلاف فيه انها كانت مرحلة صعود أدت الى حضارة عملاقة غيرت بقاعا شاسعة من اسيا وافريقيا واوربا • وترسم هذه الحقيقة الاولية الحدود التي يجب أن يمتد اليها تراث الاسلام : ففضلا عن العلوم الدينية أسهم بناة الحضارة الاسلامية في انتاج وتطوير علوم الطبيعة والرياضيات والطب والعلوم الانسانية من تاريخ وفلسفة واجتماع • هذا الى جانب ممارستهم في الحرب والسياسة والعمران ، وما اجترحه الصراع الطبقي في مجتمعاتهم من سياسات وأفكار كانت تعكس خصبا في الفكر الاجتماعي والسياسي واتساعا نسبيا في وعي الطبقات •

واذن فالتراث الاسلامي لا يؤلف ـ كما قد يفهم في أحيان كثيرة ـ مشكلة دينية الا في مجال معين ، فالدين هو أحد عناصره وليس العنصر الوحيد فيه • وبالتالي فان تجارب كثيرة دينية ودنيوية يمكن أن تكون قد دخلت في تكوين هذا التراث بما هي عليه من تعارض أو تماثل • وما دام الامر متعلقا بمجتمع انساني مفتوح لابتكية دينية مغلقة على زمرة من الدراويش ، فعلينا التسليم بهذه الحقيقة • وينبغي التأكيد بناء على ذلك أن كل ما أنتجته العصور الاسلامية فهو ملك لها وجدير بان ينضوي تحت لواء الاسلام فاذا كان الفكر الديني ـ مثلا ـ جزءا بارزا من هذا التراث فان موروثنا من الفكر الالحادي هو الاخر جزء منه ، فكلاهما نتاج الحضارة الاسلامية • وتراثنا ليس هو التجسيم الحنبلي فقط ولا هو عقيدة الا شاعرة وحدهم ، انه بالعكس عالم شديد التنوع بعيد عن الانسجام وقد اتسع للاهوت كما اتسع للالحاد وتجاور فيه الطب وعلوم الطبيعة والسحر والتنجيم • ولا ريب في أن ذلك يتعارض مع أي منهج يعتبر تاريخ الاسلام مجموعة متكاملة من القضايا ذات المدى الديني المحدود •

عصر الحضارة الاسلامية • ولم يتفق الباحثون على الزمن الذي استقرت فيه تلك النهاية ، وهو مطلب لا علاقة له بموضوع هذا البحث ، وانما يهمنا استجلاء المعطى الذي يتضمنه التوقيت : ذلك أن القول بأن مسألة ما مرتبطة في نهاية عصر سحيق يعني انها مسألة من مسائل الماضي • ولكن هناك عقدة تتحكم في مجمل المواقف المعاصرة من التراث وتؤثر تأثيرا مباشرا على مناهج البحث واتجاهات الباحثين • والعقدة ناشئة عن الامتداد الذي تفرضه الحضارة الاسلاميـــة على مجتمعاتنا الحديثة ، فالجمهور يعتنق العقيدة ويتابع طقوسها ، والاسلام دين المجتمع ودين الدولة • وثمة تطابق في الموقف من هذه الناحية بـين السلطـة والجمهور • وتنطلق الهيئات الحاكمة في التزامها للعقيدة من الادعاء بايمانهـا بالاسلام وحرصها على شعائره ، ولكن الالتزام سياسي في الجوهر • ذلك ان الدين يبدو ، بالنسبة الى سلطة متخلفة ، كضمانة ميسورة لكسب الرأي العام وامتصاص نقمته اذ من النادر أن تلجأ سلطة كهذه الى تقديم تنـازلات حقيقية للجمهور من أجل الحصول على تأييده • وتوفير هذه الضمانة لا يكلف أكثر من الاستجابة لمطالب المتدينين واتباع ما يؤدي الى اشباع عواطف الجمهور الدينية مثل : اعلان دين الاكثرية دينا رسميا للدولة ، تسخير أجهزة القمع للدفاع عن حرمات الدين وصيانة مقدساته ، تسخير أجهزة الاعلام لاحياء المناسبات والاشياء الدينية واثارة الضجيج حولها بأقصى درجة ممكنة من الحماسة • وقد استمرت السلطة والجمهور على ممارسة هذا النوع من التواطؤ منـذ عهـود **الخلافـة العثمانية** وبعد ذلك في عهـد الاحتـلال الغربي حيث استخدمت السلطـة الاستعمارية الورقة الرابحة نفسها • وفي زمـن **الاستقـلال الوطني** أحست الطبقات التي تنازل لها الاستعمار عن حكمه المباشر بالحاجة الملحة نفسهـا الى الدين فاستمرت تمارس اللعبة نفسها • ولا شك ان حكومات كتلك التي خلفت الاحتلال العسكري الاوربي لا يمكنها الا أن تصطنع هذا المسلك لسبب واحد وهو انها لا تملك ما تقدمه لشعبها غير ذلك الاسراف في اشباع نزعاته الدينية متخذة من الدين نقطة التقاء حاسمة تجمعها بالشعب • وقد سقطت هـذه الكيانات تحت ضربات الحركة الوطنية وقامت على اشلائها سلطات جديـدة رفعت شعارات تقدمية وتعهدت باقامة مجتمع عصري • وكان من المنتظر أن يتفكك التواطؤ القديم تحت وطأة هذا التحول • ومما عزز الامل في النفوس ان الجمهور لم يعد في موقعه السابق نفسه • ذلـك ان اتساع نطـاق الوعي الاجتماعي وتغلغل الثقافة العصرية في زوايا المجتمع القديم قد فتنا جمهورنا عن الكثير من مأثوراته العزيزة ، وارتفعت في السنوات الاخيرة نسبة المرتدين بما أدى الى تكوين قطاع من الرأي العام لا تشغله قضايا العبادة ولا يتحمس لها كما كان أسلافه يفعلون • ولكن السلطات التقدمية الجديدة لم تتحرك شبرا واحدا في هذا الاتجاه • بل ان بعض النماذج طرحت على صعيد سلطتها عكس ما كان منتظرا منها • ومن ذلك ما شهدناه في العراق بعد الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ حيث وسعت المواد الدينية في برامج الاذاعة والتلفزيون بشكل لم يسبق له مثيل وشددت الرقابة على المطبوعات حذرا من تسرب ما قد يعتبر مسا بالعقائد

وصحب ذلك غيرة دينية شديدة أصابت الموظفين المكلفين بهذه المهمة ــ حدث مرة أن شطب الرقيب على فقرات من كلام الكندي فيلسوف العرب لاعتقاده انها كفر ! ــ كذلك ارتفعت حمى بناء الجوامع وأنفقت في سبيلها ملايين الدنانير (١) ٠

*

التراث الاسلامي يتمتع ، اذن ، بسلطان ــ رسمي وشعبي ــ بوأه مكانة خاصة بين تراث الحضارات القديمة ٠ وقد ترتب على ذلك خضوع دراسته للرقابة الحكومية وصار على الباحث أن يتوقع الاستجواب عن أية وجهة نظر قد لا تعجب جهاز الشرطة ٠ ومن هنا شاع استخدام مبدأ التقية في دراسة تاريخ الاسلام حتى أصبح مادة معترفا بها في أي منهج للبحث ٠ وقد يكون لهذا الوضع أثره في قلة عدد الباحثين العلميين ، على أنه في المقابل قد هيأ لنسبة كبيرة من الكتاب أن يتبوأوا عرش الدراسات الاسلامية بمناهج تعكس الامتثال الطوعي لعواطف الجمهور ومخططات السلطة ٠ ولسنا في حاجة الى تذكير القراء بممارسة كل فنون الدجل والمتاجرة من أولئك الذين اتخذوا من التراث حرفة للعيش أو طريقا للصعود ، وعند أفضلهم : أداة للتسلية تستحيل معها موضوعات علم التاريخ الى لعبة تشيع ولعا بالمأثورات وهواية لصيد الطرائف والحكم والامثال ! وقد روعيت المصالح الاعلامية للدولة في معالجة التاريخ عند هذا الفريق ، كما عهدت اليه مهمة تثقيف الاجيال الجديدة بالافكار التي تريدها السلطة فأخذ على عاتقه تخطيط مناهج تعليم التأريخ والادب في مراحل الدراسة الرسمية كلها ٠ أما تفسيرهم للتأريخ فخليط من التصورات الدينية والعرقية ، ومن تثقف منهم بالثقافة الغربية لم يتجاوز جدران التفسير المثالي ، الذي يطغى على دراسة التاريخ في الغرب البرجوازي ، لان هذا التفسير لا يتعارض في جوهره مع المفاهيم التي ألفوها ، ولا مع المصالح التي يمثلونها ٠

ومع ذلك لم يكن مقدرا لهذه الاتجاهات أن تستمر من غير أن تثير الاعتراض ، وذلك هو ما كان يجب أن يكون مع ظهور تيارات الفكر التقدمي بما يؤدي الى انعطاف جديد في النظر الى موضوعات التراث ٠ ولكن المناهج الجديدة تأثرت الى حد كبير برد الفعل الذي أثارته المناهج السابقة ٠ ومهما يكن نصيب أي منهج من الاخلاص فان قيامه في موضع الخصومة لا بد من أن يلقي عليه قتام رد الفعل فيصرفه الى المقارعة بدلا من استقراء وقائع الموضوع ، وتغدو الخصومة مصدر استنتاج يستمد منه الباحث ما يعينه على تحطيم خصمه واغلاق منافذ الاستنتاج في وجهه ٠ وقد بحثت قضايا التراث من قبل بعض الكتاب المعاصرين تحت تأثير هذا القانون ٠ كما ان قطاعا كبيرا من الرأي العام المثقف ينطلق في نظره الى الحضارة الاسلامية من زاوية الاستنكار الذي يجابه

---

(١) منذ ثمانية قرون استنكر الغزالي ــ حجة الاسلام ــ ظاهرة الاكثار من الجوامع لغير ما حاجة واعتبرها من الرياء الذي يتقنع به الاغنياء ٠ (انظر احياء علوم الدين ج ٣ ص ٣٥١)

به ذلك التواطؤ الديني المزمن بين السلطة والجمهور • ومما ساعد على تأجيج هذه النظرة استغلال الحكومات المتخلفة للاسلام واتخاذه ستارا لسياساتها التخريبية المعادية للتقدم ، العاضدة لمصالح ومخططات الاستعمار الاوروبي ــ الامريكي • ولا يفوتنا ان ننوه بدور المنظمات الدينية التي ظهرت منذ الثلاثينات للمطالبة بالعودة الى ما يسمى بنظام الاسلام • فقد تصاعدت مع ظهور هذه المنظمات موجة من الكتابات الهادفة الى شرح أحكام الاسلام في ضوء المبادىء الحديثة من أجل اكسابها مغزى عصريا ، فتكرر الكلام على صلة الاسلام بالاشتراكية والديموقراطية والرأسمالية والعلم الحديث والسلام العالمي والعدالة الاجتماعية وغيرها من مصطلحات لم تخلق الا في هذا الزمن • والح الباحثون والدعاة الدينيون في مكافحة مسلمات العصر الحالي عن طريق معارضتها بالاحكام الاسلامية • وغالبا ما اقترنت كتابات الدعاة بنزعة معادية للتقدم الاجتماعي والاشتراكية العلمية وحركة التحرر الوطني مما جعلها تقف في صف الفكر الرجعي والاستعماري • وهكذا لم يعد الباحث المعاصر في وضع يستطيع معه رؤية الفاصل التاريخي القائم بين الحضارة الاسلامية القديمة وبين ما ينتمي اليها اليوم من متحجرات دينية • ان سوء الفهم الناجم عن الخلط بين مفاهيم الدعاة وبين المحتوى التاريخي للاسلام وحضارته ، وروح الخصومة التي فجرها المتدينون بالتكافل مع السلطة دفعا الى منهج عدمي في معالجة هذه القضايا ، فاتجه الطرف المقابل الى تركيز الهجوم ضد ما يعتقد انه من أسلحة الدعاة بصرف النظر عما قد يرتكز اليه من واقع تاريخي • وبفضل هذا المنهج صار للاحكام الارتجالية سوق رائجة فيستطيع الباحث أن يستصدرها من وراء ظهر النصوص والوقائع بل انه لم يعد يجد بأسا في أن يستهين بالعناصر الايجابية الفعالة من حضارة الاسلام لتفنيد آراء يطرحها بعض الدعاة لاغراضهم الخاصة • وعلى غرار ما فعله أولئك في دفاعهم عن شعارات وهمية لا تقوم على أرضية راسخة ، ضحى هؤلاء بالكثير من مطالب البحث العلمي توصلا لاهداف آنية ــ قد تكون نبيلة ومشروعة ولكنها ليست على أي حال في حاجة الى ركوب طريق العسف والتزييف لكي تثبت جدارتها (١) •

---

(١) لا يتسع المجال لعرض الشواهد • ولكني أشير الى نموذج بارز يحمل دلالة قريبة على الدور الذي تلعبه الخصومة في تكييف اراء الباحثين • ذلك هو كتاب مكسيم رودنسون المعنون (الاسلام والراسمالية) • ان مكسيم رودنسون عالم فاضل ومستشرق تقدمي نزيه • وفي محاولة منه لدراسة المعضلات التي تطرحها علاقة الاسلام بالراسمالية والاشتراكية والنضال الاجتماعي في العالم الاسلامي الحديث وضع كتابه المذكور • وكان لا بد له وهو يتناول هذه المعضلات من أن يذهب الى دراسة الاسلام في ضوء حاجات العصر الحاضر وبهذا وجد الباحث الكبير نفسه مدفوعا الى وضع نتائجه في خدمة الجدل الذي أثارته كتابات الدعاة المسلمين • ومع القدرة الاستقرائية الفائقة التي امتاز بها رودنسون فان أحكامه لم تخل من اثار الارتجال حين اندفع بروح عدمية مكابرة ليشطب على كل ما يكتنزه تاريخ المسلمين القديم من تجارب في المجالين الاجتماعي والاقتصادي ، وقد تجاهل أهمية كل الحركات الاجتماعية في الاسلام وانتهى من ثم الى تجريد الفترة الاسلامية من كل حدث ذي دلالة على وعي اجتماعي أو صراع طبقي •

في سبيل أن يتحرر تاريخ الاسلام من الاثار التخريبية التي أحدثتها جهود الفريقين على جبهتي الفعل ورد الفعل يتحتم البحث عن منهج اخر • واذ قامت المناهج الحالية على أساس من مواقف اجتماعية محددة سلفا فان هدم هذه القاعدة يجب أن يكون أول الخطى في هذا المضمار • وانه مع ذلك لتوقع ساذج أن يخرج باحث من دائرة تفكيره الاجتماعي وهو يعالج قضية من قضايا التاريخ، أي تاريخ • وأين مكان الموضوعية من هذا العلم ؟ ان العلوم البحتة قد عانت غير قليل من الاستغلال على يد مفكري البرجوازية الغربية فاستخدمت علوم الفيزياء والفلك والانتروبولوجيا وغيرها لتلفيق فلسفات تخدم نظريات العنصريين أو مصالح الاستعمار الكولونيالي والامبريالي ، أو لكبح جماح الفكر المادي • فاذا جاز ذلك هنا فأحرى به أن يجوز في علم يدور أساسا حول نشاط الانسان الاجتماعي ، أي حول صراع الطبقات • والتشكيك في حياد المؤرخ من المقولات الشائعة • ويبدو أن من الصعب انكار جديته ، ولكن مع شيء من التحفظ يمكن أن يرد في مجال العلاقة الطبقية بين الباحث والظاهرة التاريخية التي يعالجها ، فحين يتناول المؤرخ موضوعا يرتبط ، بشكل مباشر ، في وضعه الطبقي فان الحياد قد يصبح أمرا عسيرا ، كما لو طلب الى مؤرخ برجوازي أن يكتب عن كومونة باريس أو اضراب العمال في شيكاغو أو ثورة اكتوبر في روسيا • ولكن هذا قد يكون أكثر قدرة على الاخذ بناصية الحياد لو انه كتب مثلا عن تاريخ الحضارة السومرية • لماذا ؟ لان الاخيرة قد لا تلمس ـ في مجال قريب على الاقل ـ حدود الوضع الطبقي الذي يتقلب فيه ، أو أنها لا تثير ما يشكل تعارضا مع ايديولوجيته الاجتماعية أو السياسية • وأستطيع أن أورد هنا مثلا من تاريخنا الاسلامي يوضح هذه المسألة بشكل أدق • والمثل مستمد من تاريخ الطبري • والطبري مؤرخ كبير يتمتع بقدر مشهود له من النزاهة وقد أورد الاخبار المتضاربة من دون أن يبدي فيها رأيا وانما اكتفى بالاحالة على السند وتخريج الخبر من وجوهه المختلفة • ولغة الطبري مهذبة وموضوعية ومع انه كان فقيها وصاحب مذهب في أصول الدين وفروعه فان طريقته في تسجيل الحوادث لم تتأثر كثيرا بعاطفته الشخصية من هذه الزاوية • وقد احتفظت لغته بوقارها في أشد الفصول حراجة مثل مقتل عثمان والحسين واستباحة المدينة ورمي الكعبة بالمنجنيق واحراقها والمذابح التي ارتكبها المسلمون ضد بعضهم • ولكننا نفاجأ بتبدل كلي في سلوك المؤرخ حين نصل الى أخبار ثورة الزنج في البصرة • فقد سجلت أحداث الثورة بانحياز مفضوح الى جانب السلطة واستخدم الطبري في وصفها اسلوب البلاغات الحربية ، أما لغته فتدنت الى حضيض الشتم الرخيص فأطلق على قائد الزنج لقب (الخبيث) وردده حتى صار علما له أغناه عن التصريح باسمه ! ونتساءل عن سر هذا التصرف من مؤرخ ممتاز كابن جرير الطبري فنجد انه كان معاصرا لثورة الزنج التي وقعت أيضا على مقربة منه ـ في البصرة وكان هو في بغداد ـ ولا بد أن الرجل كان مدركا لخطر الثورة على مصالح الطبقة التي ينتسب اليها ـ طبقة الاشراف والسادة مالكي العبيد ـ فكان من الصعب عليه أن يقف منها موقف المتفرج • وهو بذلك يسجل موقفين ،

فيلتزم نوعا من الحياد تجاه القضايا التي لا تربطها رابطة مباشرة بوضعه الاجتماعي وان تكن من قبيل استباحة المدينة واحراق الكعبة واغتصاب بنات الصحابة على يد جنود أهل الشام ، ثم يواجه مشكلة تمس مصالح طبقته في الصميم فيتخلى عن (حياده) ويصير طرفا مهرجا فيها ٠

*

ان تزييف التاريخ حرفة تمارسها الطبقات السائدة في مراحل تخلفها وجمودها ٠ وليس في وسع هذه الطبقات وهي تواجه حركة التاريخ ، المنطقية ، المتطابقة مع قانون الضرورة ، أن تنظر الى الوقائع في وضعها الصحيح لان ذلك يقتضيها أن تتخلى عن مواقعها ، عن وجودها اللاشرعي في مجتمع يرفضها ٠ ان مصلحة هذه الطبقات تتعارض باستمرار مع الحقيقة الموضوعية ، وفي ظل هذا التعارض ترعرعت شتى التفسيرات المثالية وفسح للتزييف المتعمد مجال أوسع٠ وتبرز هنا مرة ثانية مسألة الوضع الاجتماعي للباحث ٠ ان أحداث الحياة قد كشفت عن ارتباط متين يشد الكثير من الباحثين الرسميين أو الدعاة الدينيين الى مصالح اجتماعية تملي عليهم السير وفق المنهج الذي اختاروه ٠ وسواء كان القصد أو الوعي متوفرين أم لا فان النتائج التي يعطيها مثل ذلك المنهج لا بد من أن تتطابق في النهاية مع الارتباطات التي يرجعون اليها ٠ على أن الباحث في الجانب المقابل ليس بريئا من الارتباط ، ان مثل هذا الانسان لم يخلق بعد ! ولكن هناك ما يحمل على الافتراض بأن ايديولوجية تنهض من مواقع تقدمية ، وتتصل بمتطلبات عصر صاعد ، متجدد ، لا يمكن أن تشكل حاجزا يحول دون الرؤية السليمة لحقائق التاريخ ٠ وهو افتراض يسمح ــ مبدئيا ــ بأن نمنح هذا الفريق من الباحثين شيئا من الثقة ٠ أما عمليا فان التجربة المتحصلة حتى الان لا تبرر هذا الرجاء ، ولذلك يظل من الافضل أن نتجه نحو تأكيد منهج أكثر جدية وصرامة ٠ ولن يتم هذا بغير التخلص من التأثيرات التي تفرضها العقيدة على مجالات البحث سلبا أو ايجابا ، ووضع الحضارة الاسلامية على قدم المساواة مع الحضارات القديمة التي انتهت بانتهاء مرحلتها التاريخية ٠٠٠ وهكذا فلكي يدرس تاريخ الاسلام بموضوعية كافية يجب توفر طقس معتدل يحافظ فيه الباحث على هدوئه وذلك بالتخلي عما يحتمل أن يربطه من تعاطف مع الظواهر المدروسة ٠ واذا كان هذا المطلب عسيرا على المؤمنين فهو بالنسبة لكاتب لا ديني لا يعني أكثر من تحصين نفسه ضد ردود الفعل ٠ ويمكنني أن أفترض بناء على ذلك أن تجاهل الامتدادات الروحية والفكرية المعاصرة للحضارة الاسلامية ودراستها في اطار مرحلتها الخاصة سيوفر للباحثين فرصا من النزاهة لم تتوفر لاكثرهم حتى اليوم ٠

وقد يفرض تحقيق هذا المطلب أن نستبعد من ميدان البحث العلمي ما قدمته وتقدمه المناهج السابقة من ثمرات للمكتبة الاسلامية وهي تشمل :

١ ــ ما يكتب تحت شعار العودة الى أحكام الاسلام ومن بينها مشروعات التوفيق أو المعارضة بين الاسلام ومبادىء العصر ٠

٢ ــ الكتابات التي يتراشق بها أتباع الطوائف الدينية في مجرى الصراع الدائر بينهم : دفاعا عن عقائدهم أو تفنيدا لعقائد خصومهم ٠

٣ ــ نتاجات أجهزة الاعلام الرسمية وما تنشره باسم بعث التـــراث مستخدمة لهذا الغرض من يسير في ركابها من الباحثين ٠

٤ ــ الموضوعات التي تنشر ، تحت وطأة الغرور القومي ، بقصد المفاخرة والتغني بأمجاد العرب والاسلام (٣) ٠ ومنها أكثر المؤلفات المقررة للتعليـــم المدرسي ٠

٥ ــ المباحث التي تكتب لاغراض سياسية ، رجعية أو تقدمية ٠ بما في ذلك ما يأتي انعكاسا للسخط الناجم عن اقحام الاسلام في قضايانا الراهنة ، وما هو نتاج التعصب للعرب والمسلمين أو عليهم مهما يكن السبب الباعث له ٠ على أن هذا لا يعني تحريم البحث عن مواقع في التراث تستند اليها مطالـب ذات مغزى ثوري وتقدمي تعزيزا للمطلب أو ترسيخا له في أوساط الجمهور ٠ ومن ذلك مثلا : ــ الدعوة الى تأميم الارض استنادا الى ما فعله عمر بن الخطاب في اقليم السواد ــ العراق ــ وغيره من بلاد الاسلام حين جعلها وقفا عاما وحرم تملكها على الافراد ٠ ثم ان دراسة العناصر التقدمية في التراث يمكن أن تكتسب وضعا أكاديميا اذا هي استندت الى فهم جيد للنصوص وقامت على مراعاة الحدود الدقيقة للمصطلحات التاريخية وقد تعسف مكسيم رودنسون فأغلق هـــذا الباب بينا تتيح التجارب التي خاضتها الشعوب الاسلامية في عصور ازدهار الحضارة مجالا كافيا للخوض في مطالب كهذه ، بفضل اتساعها وتنوعها (انظر الملاحظة في رقم (١) من الهامش) ٠

ان هذه الاثار هي كما قلت من ثمرات الاعتراف بوجود الحضارة الاسلامية في المجتمع الحاضر وقد أساءت الى تاريخ هذه الحضارة وسببت له البلبلة ٠ وحين نقدم على الغاء هذا الوجود فمن المنطقي أن نرفض اثاره ، وان نترك البديل العلمي يأخذ مكانه منتقلا بالتراث من معترك الصراع الاجتماعي أو السياسي الى معاهد البحوث ، هنا حيث يغدو بالامكان تحويل الاسلام الى مشكلة علمية تدرس وتفسر باستخدام أدوات البحث التاريخي من غير أن تقسر على الخضوع لمتطلبات أي موقف اجتماعي ٠

هادي العلوي
(بغداد)

(٣) وربما استبطن الغرور نقيضه ! يقول ايلوار ٠٠٠ « هناك دائما كآبة وشعور بالنقص يمتزج بعبادة الماضي وبحب الاطلال وأشكال التفكير البائدة » ٠ وكأن الرجل قد نظر الينا من خلال ستر رقيق !

الشرق الثاني *

جان ـ ماري دومناك : أود أولا أن أسألك عن الاسباب التي دفعتك الى كتابة هذا الكتـــاب (١) ، بعد « استلاب العــــالم Dépossession du monde وعما اذا كان يشكل ، بالنسبة اليه ، مرحلة .

جاك بيرك : نعم ، لم يكن من الممكن أن يكتب الا بعـــد كتاب « استلاب العالم » (٢) الذي كان يمثل تأملا أول في المشكلات التي يثيرها زوال الاستعمار، وكان ما يزال في بداياته . لا أقول انه اكتمل الان ، فما أبعدنا عن ذلك . غير أن مشكلاته تطورت ، وتجربته اتسعت ، بخيبتها ورجائهـــا ، وكلاهما غني بالعبر . وعندنا ، طرحت المسائل من جديد ، وكانت مفاجئة للكثيرين ، لكنها على صلة مع ما يطرحه العالم الثالث . من هنا الحاجة الضرورية الى تأليفات جديدة ، وفرضيات جديدة ، ورهانات جديدة . من هنا هذا الكتاب .

جان ـ ماري دومناك : تميزت تماما هذه السنوات الخمس أو الست التي بدأ خلالها عدد من الشعوب التي تعنى بها خاصة يستعيد هويته القومية ، ــ تميزت بالنسبة الى عدد منا ببعض الخيبات ، ويدهشني أن هذه التجربة لم تزعزع قناعاتك الاساسية .

جاك بيرك : أكيد أن الموجة الاولى من زوال الاستعمار قد انتهت . لكن لا يعني هذا موافقة الذين يدافعون عن الامبرياليـــة القديمة . لقد انتهت ... بمعناها الحقيقي . .

---

* حوار أجراه مع جاك بيرك جان ـ ماري دومناك Jean - Marie Domnach مدير مجلـة « اسبري » التي تصدر في باريس وبول تيبو Paul Thibaud رئيس تحريرها . وكان الحديث بعنوان « الشرق ومجيء القيمة ـ العالم » . (Esprit, Septembre 1970)

(١) « الشرق الثاني » ، (منشورات غاليمار ، باريس ١٩٧٠) .

(٢) منشورات لو سوي .

جان-ماري ـ دومناك : سمعت في هذه الآونة الأخيرة أشخاصا يزعمون أنهم أخصائيون يقولون اننا نشهد نوعا من نمو استعمار جديد نموا خفيا ؛ أو بتعبير آخر ، ستكون **الدول** الكبرى ـ ولم تعد فرنسا هنا في الصف الأول ـ من جديد ازاء هذه الشعوب بمثابة قوى استعمارية مع فارق هو أن الاستعمار في الماضي كان يتضمن شيئا من المجابهة وشيئا من المعانقة كذلك ، بينما الاستعمار اليوم يتم عن بعد ، وأميل الى وصفه بأنه استعمار بارد حيث ستلعب التقنية المستوردة ، المشتراة من هذه القوة الكبرى ، دور العنصر المستعمر الجديد الذي لا يقل وحشية واستلابا عن الضباط والمبشرين •

جاك بيرك : نعم ، علينا دائما أن نطارد أشكالا جديدة من الاستلاب • ما تشير اليه وما يسمى باختصار الاستعمار الجديد يظهر أشكالا أكثر تنوعا وأكثر مكرا ، اذن أكثر تهديما من الأشكال الساذجة للاستغلال • اننا اليوم ، على الصعيد العالمي بالنسبة الى الثقافات غير الغربية ، وعلى صعيد مجتمعاتنا الخاصة بالنسبة الى الجماهير ، نلاحظ أن تدرج السلطان ، وعلاقات القوة ، غيرت لغتها دون أن تفقد شيئا من عنفوانها • مثلا : الشعوب التي تخلصت حديثا من الاستعمار • لنلاحظ الصعوبات التي تواجهها في اعطاء استقلالها محتوى اقتصاديا • اذا شاءت أن تطبق منهجية بناء اقتصادي ، يقال لها أن تستلهم النماذج الغربية • هل يكون التقدم آلة لمحو الشخصية ؟ لعل الأسوأ لم يكن يتمثل في الاحتلال العسكري ، والادارة المباشرة أو غير المباشرة ، والاستغلال الصريح ، والقهر الفرح الذي تمارسه الامبريالية ، لعل الأسوأ كان يتمثل ، كما أدرك ذلك فانون بشكل بشجي على نحو فريد ، في محو شخصية الفرد ، والجماعات ، والطبقات ، والثقافات • حتى الوسائل الخاصة لتحليل هذا المحو هي في جزء كبير منها أوروبية التمركز ، وأكاد أقول أنانية التمركز ، أو أحادية الجانب ، وتسهم في الشر الذي تكشف عنه •

جان-ماري دومناك : هذا ما جذبني بشكل خاص في كتابك : الجهد الذي لا يرضى بتطبيق فكر على واقع غريب عنا ، بل الذي يدخل في اواليتنا العقلية Mécanisme ، في جهاز ادراكنا مخططات أخرى ، ومن هنا أعتقد أن كتابك يجيء في وقته ؛ يجيء لحظة نبلغ نحن أنفسنا ، في **الغرب** ، بعض حدود الجدليات التاريخية التي عشنا عليها ، وحيث يظهر لنا العالم الخارجي ، بنوع ما ، من الداخل • ومن رأيك ، كما أظن ، أن *المنازعة* Contestation هو كذلك مظهر لهذه البرّانية Extériorité •

جاك بيرك : صحيح أن البرّانية العالمية وبرانية المجتمع هما في تقابل حي مع جوّانيتنا Intériorité • هنا نتوقف عند العبارات الثلاث لعلاقة مركبة ما يزال تحليلها حتى الآن ناقصا • فقد تبين لعلماء الاجتماع والنفس العلاقات بين الأنا والجماعة (ومن هنا أهمية النقد الماركسي للمثالية والذاتية مثلا) • غير أن من مهمات عصرنا أن يكتشف العلاقات بين الأنا والجماعة والواقع الجمعي للعالم • يبقى أن نُعمل هذا السلّم Clavier ذا الطبقات الثلاث •

جان ماري دومناك : هذا الذي فعلته هو ما أرحب بـه وهو يبدو لي ذا أهمية كبيرة ، أعني محاولتك أن تفتح جهازنا العقـلي • كان فاليري يقول : « أن تفكر هو أن تصطدم » • ليس هناك تحديد أكثر غربية وديكارتية من هذا الجهد العقلي • أما جهدك فيتخذ وجهة معاكسة تماما ، هذا اذا كنت قد فهمتك جيدا : فأنت تمارس شكلا من الفكر لا يصطدم ولا يصدم ••

جاك بيرك : لكن أليس فاليري هو الذي يتحـدث ، كغربي صحيح ، عن الحدود البارزة أو الغائرة ؟ ان جدلية الداخل والخارج توحي ، من نواح عديدة اليوم ، بأفعال أقل وضوحا : توافقات ، تجانسات ، اثارات مختلفة • هـذا يدخل في نقدنا للآلة ، والترف الذي نمارسه والذي نوصله الآن الى حدوده القصوى بما يناقض المذاهب الوضعية الضيقة والعقلانية الجزئية •

جان-ماري دومناك : لكن في أي مجال يفرض انبعاث العالم الثالث ، كما تقول ، هذه المراجعات ؟

جاك بيرك : منذ قرن الح بحق تفكيرنا الاجتماعي والتاريخي على الصلات المشتركة بين المجتمع والحياة النفسية • وكان على القيم الجماعية ، بل على قيم الشخص أن تخضع للتفسير العلمي لهذه الصلات المشتركة • وكانت الاشتراكية تقدم نفسها ، بين الاتجاهات الأخرى ، لا كعلم وحسب ، بل كأخلاق للانسانية كذلك ، بعد الثورة الصناعية •

ما هو الدور الذي كانت تلعبه ، في ترتيب هذه العلاقات ، الأرض ، تنوع ثقافاتها ، والتنوع بوجه عام ؟ لم تكن تلعب تقريبا أي دور • وكان صراع الشعوب الاستعمارية يعتبر ملحقا أو تفسيرا أو حقـل مناورات للصراعات الأوروبية ، سواء كانت صراعات بين الأمم أو الطبقات أو الأفكار • هكذا أرى أن زوال الاستعمار آخذ في تغيير هذا كله : في الوقائع وفي المفاهيم • من جهتي ، أعتبر أن تحرر أي من العبارات : مجتمع / حيـاة نفسية / تعددية عالمية ، غير ممكن دون تحرر العبارتين الأخريين • وهذا وهم • اذن ، لا يمكن التحرر الاجتماعي الا بتحرر الداخل ، أو اذا شئت بتحرر العواطف • وفي هذا يجب أن يكون فورييه تكملة لماركس • ولا يمكن التحرر الاجتماعي أو الشخصي دون اعتبار تنوع العالم • ان تعددية أبعاد Pluridimensionalité الانسان هي ذاتها أساس تعددية العالم الثقافية ومحرّضها •

جان-ماري دومناك : لست أنا من سيخالفك الرأي في هذه المسألة ، لكنني سأطرح عليك سؤالا حول هذه التعددية الثقافية : كيف يمكن لمشروعك الذي يقوم على معاملة الآخر لا كفريسة أو كتسلية ، بل بالفعل كجزء هو ذاته بالنقص الذي أعانيه والذي يمكن أن يصبح ذاتي أنا في انسانية أكثر تحررا — كيف يمكن لمشروعك هذا أن يتحقق ؟ هل يتحقق بالفن ؟ الفن وسيلة لاعادة تأليف هذه المجموعات كلها ، وحين أقرؤك أشعر أحيـانا أن الفن وسيلة من وسائلك •

جاك بيرك : غير أن الفن في وضعه الحالي في مجتمعنا غير قادر أن يلعب الدور الذي ننتظره منه • منذ فترة وجيزة زرت آثار ليبتيس ماغنا Leptis Magna على الشاطىء الليبي • وقد زرت آثار مدن قديمة كثيرة ، لكن هذه الزيارة الأخيرة صدمتني • لو كنت اقتصاديا ، لقدرت النسبة الضخمة للاستثمارات التي تمثلها الروائع المتعلقة باللعب في هذه المدينة : المسرح ، ميدان الرياضة ، قاعة المحاضرات ، الملعب المدرّج ، المعهد الرياضي • عن أية مدينة من مدننا يمكن أن نقول انها تحتوي هذا الذي كانت تحتويه تلك المدينة القديمة ؟ كان بعد اللعب في تلك المدينة يمثل دورا يضاهي على الأقل دور الاقتصاد ، مثلا • كانت الجمالية تغلف كل شيء الى درجة انفصالها المتباهي في بعد مستقل • الفن ، بالنسبة الينا ، هو زيارة معارض اللوحات ، هو المتحف ، وأحيانا بيت الثقافة ، والنزهة صباح الأحد أو مساء السبت • والحال أن الفن في مجتمع يعترف ببعده الجمالي لا بد أن يكون حاضرا في كل مكان وفي أية لحظة •

جان ـ ماري دومناك : أوافقك ، لكن يمكن أن يكون الانسان معنيا باللعب فيما يكون أمبرياليا • المثل ذاته الذي تحدثت عنه يؤكد أن روما ، في أعلى مراحل أمبرياليتها ، حققت ذلك وأن العرب بنوا في تدمر مدينة رومانية وفقا لأكثر الأصول جمالا •

جاك بيرك : لا أوافقك فيما يتعلق بتدمر • أنت تقصد بعلبك • فأنا أعتبر تدمر ابداعا أصيلا ، أو اذا شئت ، ثنائي الثقافة • الشخصية العربية هنا تعبر عن ذاتها بلغة يونانية ـ رومانية • وهذا ما ينطبق ، بأشكال أخرى ، على البتراء أو مدائن صالح ، هذه الأنقاض النبطية في قلب الجزيرة العربية التي زرتها في رحلتي الأخيرة • لكن ذلك أمر آخر •

جان ـ ماري دومناك : الحق معك • لكن لنستمر في كلامنا على **الشرق** • أليس في كتابك بعض الغموض من حيث أن **الشرق** هو هذه الحضارة العربية ـ الاسلامية التي تعرفها جيدا والتي هي قريبة الينا من بعض الوجوه ، مكملة لنا وغريبة عنا في آن ، ـ وهو كذلك الشرق الآخر الذي قد لا تعرفه كمعرفتك للشرق الأول ، والذي قد تكون افترضته ـ أرجو أن تسمح لي بأن أقول ذلك ـ انطلاقا من هذا الشرق القريب الذي تعرف ؟ مفهومك هذا للشرق تمكن مناقشته • لكن أعود الى سؤالي الذي يمكنك أن ترفضه والذي قد يكون سيئا : كيف يمكن لمفكر من الغرب ، يواجه حضارات مغايرة ، الزعم أنه يستشف تكوينها في مشروع ليس مشروع استهلاك ، وليس مشروعا جماليا خالصا ، كمشروع **متحف خيالي** ، بل هو مشروع جماعي حقيقي ؟ ألا يفترض هذا كله ، بتعبير آخر ، فلسفة أو رؤية تفترض هي نفسها اختيارا ؟

جاك بيرك : لن تذهب على ما أظن الى رفض حق التحليل ، ورفض آمالنا في فهم العالم •••

جان ـ ماري دومناك : أتساءل عما اذا لم يكن هذا الفهم "شركاً" ناعماً يأسرنا في غربيتنا ، ذلك أن **الغربي** لم يتوقف عن تفسير الآخرين ، تفسيرا يبدو أن الآخرين لم يعودوا قادرين على القيام به ٠

جاك بيرك : في سؤالك أشياء كثيرة ٠

جان ـ ماري دومناك : كثيرة جدا ٠٠٠

جاك بيرك : الشك أوافق عليه ، أما التأكيد فأرفضه ٠ أرفض أن يكون **الغربيون** هم الوحيدين الذين طرحوا مسألة **الآخر** ٠ فمن المؤكد أن الثقافات العربية والفارسية والصينية وغيرها طرحت هي كذلك مسألة **الآخر** ، وبطريقة متقدمة جدا ٠ غير أنني أعود الى سؤالك الذي ينطلق منه بالضبط السوسيولوجي والأنتروبولوجي ٠ هذه الجـدلية بين **الذات والآخر** تؤسس منهجية عدد من العلوم الانسانية ٠ فيما يتعلق بي شخصيا ، باعتبارك تشير الى ذلك ، فأنا أبقى، كما أظن ، فرنسيا وفرنسيا من الجنوب الغربي ، عريقا في غربيته ، عريقا في توكيد ذاته ، فيما أمارس المطابقة المنهجية مع الآخر ، الى درجة قلما بلغها ، كما أعتقد ، أي من زملائي أو أسلافي ٠ وأعتقد أنه كان من حظي أن أفهم وأُفهم ، لأنني مارست في داخلي جدلية اللغتين ، العربية والفرنسية ٠ هل تعرف أنه ما من فكرة تقريبا من الافكار التي أعرضها في الكتب التي أنشرها كهذا الكتاب مثلا ، الا أضعها مسبقا على محك الاختبار في مناقشات مع أشخاص من المجتمعات التي أكتب عنها ؟ لكن لا بد من الاعتراف أنني حين أكتب عن الشرق الاقصى أو الهند ، أعتمد ما أسمعه أو أعتمد الوثائق ، وأكتب وأنا أقل يقينا مني حين أكتب عن العالم الذي أعرفه مباشرة : العالم الاسلامي ٠ غـير أن العمل في النهاية واحد ، فهو ضروري لكل بحث عن ثقافة مغايرة : انه لعب متناوب أو متضام من الاقتراب والابتعاد d'identification et de distanciation.

جان ـ ماري دومناك : سأوجه قصدي في اتجاه مغاير وأسألك اذا لم يكن ما تقترحه على **الغربيين** يختلف جوهريا عما تقترحه على **الشرقيين** : فهم **الآخر** لا « استلهام » الذات ٠

جاك بيرك : لا أقترح هذا ، مع الاسف على **الشرقيين** ٠ بل لقد سبق أن فرضته عليهم ! أقصد أن مجتمعاتنا فرضته عليهم وتفـرض عليهم باستمرار وبشكل أكثر خشونة أن يصيروا غربيين ٠ لقد تم هذا ، وبشكل أكثر قسوة ووحشية من هذا التبادل في تعددية الابعاد التي أقترحها على الغربيين والشرقيين معا ٠ ذلك أنني أميل الى القضاء على هذه اللاتماثلات ، مبرهنا بخاصة على أن البعد التكنولوجي ليس امتيازا غربيا ، وعلى أن التطور التكنولوجي لا يحول دون الابعاد الاخرى ، وعلى أن من مهمات الجميع اذن ، شرقيين وغربيين ، أن يحرروه ٠

جان ـ ماري دومناك : لكن ماذا يعني بالنسبة الينا نحن الغربيين ، أن نستعيد امتلاك ذاتنا ؟ وأي معنى لذلك الآن ؟

جان بيرك : بهذا الشرط سنعطي معنى « للمدنية الصناعية » أو بالاحرى سنصنع مدنية بدءا من المرحلة التكنولوجية التي نعيشها •

بول تيبو : تماما • أنت **غربي** بكونك تستند ، بشكل مستمر ، الى التقنية • أنت من هذه الناحية ، لا تتشبه بالقدامى قطعا • الا أن مفهوم المدنية الصناعية ــ الكلمة لم ترد ، كما أظن ، في كتابك ــ يقف في الطرف الآخر المناقض لتفكيرك • أتمنى أن تحدد موضعك بالنسبة الى هذه المدنية ، وأن تقول لنا كيف تفصل بين هذين المفهومين : **التقنية والمدنية الصناعية** Technique et Civilisation indistruelle اللذين يمتزجان تقريبا في الفكر العام •

جان بيرك : أنت على حق في ملاحظة ذلك : فأنا مقتنع بالتكنولوجية ولست مدافعا عن العودة الى ما قبل التاريخ ، ولو كان ذلك مما يحمس ويشجي • لا أومن بالعصور الذهبية • أعتبر نفسي معنيا بالتاريخ Historiciste ، ضمن التراث الغربي تماما • لكنني أنظر الى التكنولوجية بجدية ، أعني أطلب منها أن تقدم لي **لوغوسا** Logos ، أي أن تكتمل في معنى للعالم • وحين ألاحظ ما يسميه بعض زملائي بالمدنية الصناعية أرى أننا بعيدون عن ذلك • أرى ذلك من ناحية مع الماركسيين الذين يريدون أن يؤسسوا تحت اسم الاشتراكية ، كمال تكنولوجية حقيقية بلغت تفتحها الانساني ؛ وألاحظ كذلك مع جميع نقاد المدنية التي تسمى استهلاكية ، النقاد الذين تتقاسمهم اليوم المجتمعات الاشتراكية والرأسمالية على السواء • ألاحظه أخيرا بوجهة نظري الخاصة •

المدنية الغربية اليوم لا تتعلق بالتحولات التي حصلت منذ قرن بفضل التقدم التكنولوجي ، الذي جاء على العكس ، بشكل عام لكي « يزيل المدنية » • هكذا أنتج تقدم الآلة **الاكداح** Prolétarisation ، والحروب العالمية ، واللامساواة المتزايدة بين الشعوب • هذا ليس ، في نظري ، مدنية ، بل هو العكس • اذا تأملنا جيدا ، فان العجز أو الانحراف أو القسر التكنولوجي هو ما يجب أن نلاحظه : التناقض « الثقافي » الذي تمكنت الاشتراكية من أن تتنبه له • ان ما في أوروبا وفي العالم من المدنية يتمثل ، على العكس ، في الكتل التائهة من الثقافات التي سبقت الثورة التكنولوجية • هكذا توجد في أوروبا الغربية ثقافة « فرنسية » ، وثقافة « جرمانية » ، وثقافة « بريطانية » • ان تعددية هذه الثقافات ، التي لم تتقارب منذ مئة وخمسين عاما ، بل على العكس تميل الى التباعد ، تؤكد أنه لا توجد ثقافة صناعية بالمعنى الخالص • لكن اذا لم تكن قد وجدت بعد ، فانها ستوجد ، وبهذا المعنى أتحول الى متفائل تاريخي • آمل وأعتقد أننا ذات يوم سنبطل مفعول ما يتناقض مع تحول الثورة التكنولوجية الى مدنية • يجب أن ننتصر على عدد من هذه العقبات • سنتوصل آنذاك الى ابداع مدنية صناعية ستكون كذلك مدنية عالمية ، مدنية تمارس فيها تعددية الثقافات حق التنوع والحق بتحرر الفرد • لنلاحظ اليوم ، في مختلف الصيغ التي قدمت لنا ، أن هذه التطابقات المتنوعة لم تقدم لنا أبدا في كل متماسك •

بول تيبو : نشعر أن مجرى العالم اقترب منك ، منذ كتابك السابق • خصوصا أن القضايا التي تثيرها حول زوال الاستعمار أصبحت غالبا قضايا داخلية ضمن العالم الغربي • مع أن رأيك في تعددية العوالم الممكنة ، على الرغم من فشل بعض البلدان الحديثة العهد بالاستقلال السياسي ، أكثر تجاوبا مع المرحلة منه قبل خمس او ست سنوات • تتحدث عن مكان ــ وهنا في رأيي

الاهمية الخاصة لما تكتبه ــ عن ملتقى بين العالم المستعمَر والعالم الذي زال استعماره ، في حين أننا كثيرا ما سمعنا من يتحدث عن عالمنا باعتباره قسمين : مشكلات الأغنياء ، ومشكلات الفقراء ــ وهذا التفكير يقودنا الى مآزق من جميع النواحي ــ بينما أنت تفتح لنا بحق بابا نحو شيء ما يتجاوز هذا التقسيم السهل والذي يخفي مشكلات كثيرة •

جاك بيرك : ان تحليل تاريخنا نفسه قد ارتوى مجددا ، اذا جاز التعبير ، من تجربة زوال الاستعمار • ما تقوله صحيح جدا • حتى على صعيد التحليل السوسيولوجي الخاص بمجتمعنا ، لم يعد بامكاننا أن نهمل ما يجري في بقية العالم • مثلا: هل بامكاننا أن نهمل مفهوم محو الشخصية Dépersonnalisation. من المستحيل اليوم رفض هذا المفهوم الذي يكمل مفهوم الاستلاب Aliénation ويصححه وينوب عنه الى حد ما • مثل آخر : اليوم يتضح لنا التحطيم الثقافي الرهيب الذي تقوم به الثورة التكنولوجية التي تفسر بعبارات الربح Profit الرأسمالي • حدث ذلك في مجتمعات الفرز Sociétés de départ ، المجتمعات التي كانت تكتشف التكنولوجية بالطريقة ذاتها التي استخدمتها اوروبا لهدم الثقافات العالمية • تطبيق آخر : هل نستطيع في تحديد الطبقات أن نقتصر على العناصر الاقتصادية والمورفولوجية والترتيبية Classificatoire ، التي هي قواعد نظامنا ، أم ينبغي أن ندخل كذلك العنصر الأنتربولوجي الذي يزداد أهمية في المجتمعات الآفرو ــ آسيوية في هذه اللحظات من اعادة بنائها ؟ ألسنا هكذا مقودين الى أن نعطي معنى جديدا الى « الطبقة » و « القاعدة » ، يقوم على تجربة الشأن الاجتماعي في أثناء حدوثه ؟ لقد حاولت ذلك ، على أي حال •

بول تيبو : مع ذلك يبقى قلق يساورني • تتحدث عن الربح الرأسمالي : لو أن التأزم والتدمير لا مصدر لهما غير الربح الرأسمالي ، فربما كنا نستشف نهاية متاعبنا • غير أننا نشعر أن ثمة قوى اكثر عمقا وأقل تميزا تفعل فعلها ، وبخاصة قوة التقنية ، كما نعرفها ونمارسها • الابتكار التقني هو الاكثر وعدا وربما الاكثر خطرا بين القوى التي أطلقناها • حتى أمكننا القول ان حرية الابتكار التقني هي الآن مخربة كالحرية الاقتصادية •

جاك بيرك : هذا صحيح ، لكن في بعض الأطر ، في الاطار الذي أسميه بالواحدية الانتاجية Monisme Productiviste • صحيح أن التكنولوجية لم تغتصبها بعض الجماعات وحسب ، وانما تقدم لنا نموذجا خاطئا لاصلاح الانسان • انه خاطىء لانه ذو بعد واحد من جهة ، ولأنه يجهد ، من جهة ثانية ،

لاعادة تكوين الانسان الداخلي والمجتمع وفقا لطراز الآلة • كثيرا ما سخرنا من عضوانية Organicisme علماء الاجتماع القدامى مثل سبنسر • هل تعتقد أن اعادات البناء أو التكوين السببية ، آلية أو غير آلية ، أكثر اضاءة ؟ كلا ، انها حجة تكاد أن تكون في سذاجة العضوانية القديمة • كانت هذه تعتبر المجتمع كائنا عضويا حيا ، أما تلك فتعتبره آلة ، وتبحث فيها عن الترابطات السببية • والحال أن تقدم العلوم الانسانية وبخاصة علم اللغة يؤكد أن ثمة علاقات كثيرة غير العلاقات السببية : مثلا ، علاقات المعنى أو الدلالة • هذا ما حاولت أن أوضحه في القسم الاول من كتابي • ففي مستوى قاعدة المجتمع ، وأعني بذلك مستوى التصاقه بالأساس الطبيعي ـ تلاحظ أنني أتمسك بالطبيعة ، وأبتعد عن كل نزعة شكلية ـ نجد الدلالة بمقدار ما نجد الحادثة ، والرمز بمقدار الشيء ، اذن « البنية الفوقية » و « البنية التحتية » • وهذا ما يقضي على عدد كبير من التناقضات الخاطئة •

جان ـ ماري دومناك : كنت أود أن أقاطعك منذ هنيهة ، لأنني حين سمعت عبارة **محو الشخصية** وكلمة **استلاب** ، قلت في نفسي ان من الممكن ترجمتك حتى البلاد العربية لكن دون تجاوزها ، على الأرجح ، الى أبعد ، واننا اذ نتجاوزها ندخل في عالم آخر ليس فيه ما يعادل هذه المفاهيم • حدث لي في اليابان أن ألقيت محاضرة ، وقد لاحظت وأنا أتابع الترجمة ، أن جميع هذه الكلمات التي تستخدمها ـ وهي غالبا كلماتنا ـ انما هي كلمات تقال ببساطة بمعادلها الانكليزي أو الألماني أو الفرنسي • ان عبارة **محو الشخصية** ، التي أرى وراءها كلمة **شخص** ، تعيدني الى ترجمات لا تتجاوز الاطار الثقافي العبري ، الهليني ، اليوناني ، اللاتيني ، ومن ضمنه ، بالتأكيد ، الاطار العربي • لكن هناك ذلك **الشرق الآخر** الذي أعتقد أن مواجهته ستكون ، بالنسبة الينا والى أحفادنا ، المغامرة الرئيسية ، وأتساءل فيما اذا كان ممكنا ادخال ذلك **الشرق** الآخر في مثل هذه المفاهيم •

جاك بيرك : أكيد ، يا عزيزي دومناك ، اذ من البدهي أنني أعاني أنا كذلك صعوبة في نقل هذه المفاهيم من لغة الى أخرى • ولا تظن أن من السهل نقل كلمة Aliénation الى العربية • هذا ما اتضح لي منذ بضع سنوات في مصر : ذلك أن هذه الكلمة لم تكن غائبة عن الفكر الاشتراكي العربي وحسب ، بل كان معناها كذلك غائبا ، على الرغم من ثلاثين عاما من نشاط الحركات الماركسية • لقد قُلِّصت الماركسية في الجدل الطبقي ، وأهمل التحليل الجوهري المليء بالهيغلية • ومن ثم ، مُليء هذا الفراغ • لكن ليس القلق الجديد وحده هو الذي يولّد في بعض المجتمعات مفاهيم جديدة ، ويدفعه نحو مزيد من الابداعية النظرية والعملية ؛ اذ حتى لو كانت مفاهيم الشخص ، والشخصانية ، والشخصية صعبة النقل ، وحتى لو كانت بعض المجتمعات لا تشدد على الفرد أو على الشخصية الفردية ، فانها لا تستطيع الا أن تشعر بشخصيات الجماعة • أعرف ان هذه الكلمة تثير الإعتراض • ولهذا أتمسك

بعبارة أكثر حيادا أعني الهوية الجماعية Identité Collective •

جان ــ ماري دومناك : يقودني هـذا السؤال الى آخـر هو السـؤال الميتافيزيقي المشهور الذي سأحاول أن أطرحه عليك : أذهلني جدا ــ وأذهلك أيضا ــ التطابق بين بعض أفكارك وكتاب ميشليه Michelet : **الشعب** • يرى ميشليه ، كما ترى أنت ، أن عبقرية الشعب مستمدة مما تسميه « العتمة الخصبة » ، من هذه الحرارة الخلاقة ، لكن ميشليه يرى أن الامة تتكون شأن الكائن الانساني ، شأن الشخص تماما ، وهو يرى أن الشعب الفرنسي كان فوق الشعوب الأخرى لأنه متشخصن • سؤالي يذهب الى أبعد من ذلك ، وهو هنا ينضم الى أسئلة بول تيبو : كيف تنظر الى هذا التكوين العام للانسانية ، أي وفقا لأية خطوط وأية اتجاهات • ان كان ذلك يتم وفقا لتشخصن متدرج ، أقول : أنت تبتعد تدريجيا عن الطبيعة وتمضي في اتجاه قريب الى ما يذهب اليه مفكر مسيحي ، تيلار دو شاردان مثلا ، نحو تصور كيان عضوي Organisme للانسانية يصير تدريجيا وتصاعديا ، فقريا وواعيا • وأعرف أية نماذج للقيم والنظام يفترضها ويحققها بناء كهذا • لكنني لا أرى بوضوح أية نماذج من القيم ومن النظام تنهض وراء مفهومك • ذلك أنه تعددي ، أليس كذلك ؟ لكن أين التعضية الفقرية ؟ أين الحركة الموجهة ؟ ما هي القيم التي ستفرض التدرج بحيث لا تكون هذه الانسانية فوضى بركانية هائلة ، حيث لا يقدر الانسان ، وقد امتلأ بذاته ، أن يتآلف مع الآخرين ؟ ان ثمة خطـرا في أن تنشأ ، على المستوى الجماعي ، الظاهرة نفسها التي نشأت على المستوى الافرادي ، وهي ظاهرة المشارك * التي لا تخضع لأي نوع من القواعد • أعتقد ، على الجملة ، أنه لا بد من الاختيار بين الحلولية والشخصانية ، ــ بين **الشرقين** •••

جاك بيرك : انني فخور جدا بالتقريب الذي تقيمه بين بعض أفكاري وآراء ميشليه • كان ميشليه يفهم عميقا طبيعة المجتمعات أو لنقل طبيعة الهويات الجماعية • لكنه كان يفسر هذه الحقيقة في صيغة مؤنّسة Anthropomorphique . لم يكن يدرك آنئذ أن المسألة ليست في نوع من النمو العضوي القائم على العفوية أو على مجرى الأشياء ، وانما هي ، من نواح عديدة ، مسألة الحركات المتفرعة أو حتى المقصودة • كان يهمل ، بتعبير آخر ، جانب الافتعال في التاريخ • والحال أن ماركس هو الذي أدخل ، في ذلك الوقت بالذات ، المفهوم الهيغلي عن الافتعال Facticité الذي أدخله في نزعة انسانية نمت بعض جذورها عند روسو • والواقع أن هذا مظهر بقي ، لفتـــرة ، مستبعدا عن التفسيرات الماركسية • وأعتقد أننا مدعوون الى أن نُروسن * الماركسية !

---

* Phalanstères ، تجمعات انتاجية دعا الى اقامتهـــا الفيلسوف الاشتراكي الفرنسي شارل فوريه ، يعيش فيها العمال عيشة مشتركة • (المترجم)

* من روسو Rousseau .

لكن لنعد الى صورة هذا البناء الذي ينضده المجتمع من ذاته • يعرف علماء النفس كلهم أن الشخصية الفردية تبني ذاتها ؛ أنها ليست كلا معطى ، وأنها بناء يتجه نحو وعي أقوى فأقوى • كذلك الأمر في المجتمعات ، وفي العالم• ويحاول كتابي أن يشارك في هذه الرشدنة Consciencisation العامة •

هنا نلتقي بتيلار دو شاردان ، وتسألني عن صلاتي بفكره • مثلما سألتني عن الميتافيزياء ، تلك الميتافيزياء التي أرفضها ، كما ذكرت في ما كتبته عني في جريدة « لوموند » •••

جان ـ ماري دومناك : على أي حال ، هذه هي النقطة التي أتعثر بها : في نقطة اللقاء بين الحق والسياسة ، ما هي معايير اختيارك ، ما هي مبادئك التنظيمية ؟ ان الانبثاق المتعدد للهويات المستعادة يمكن أن يفضي الى شيء آخر غير الانسانية التامة ، الى تمزق تعسفي •

جاك بيرك : دعني انطلق مجددا من الملاحظة • أظن أنني أوضحت أننا نجد جانبا من الواقع ـ من الشخص والمجتمع والعالم ـ أضعفت قيمته رؤيا أحادية الجانب باعتبارها اياه بنية فوقية ، أو انعكاسا أو حتى وهمـــا ، نجده في المستوى الاكثر مباشرة والاكثر موضوعية من المجابهة بين مجموعة وأساسها الطبيعي • ان ما أسميه **الشرق** ، هو هذا المستوى المباشر جدا من التبادل بين الانسان **والطبيعة** ، والذي يكوّن « بنيته » العميقة • على هذا الاساس تقوم تدرجات وبنيات مطردة التعقيد ، وتنزع الى الوعي الجماعي • كيف نفسر هذا الارتقاء ؟ هل يتحول الـشكل الدال Signifiant الذي يبلغـــه اذاك الى مدلول Signifié ، وفقا لأحد هذه الابدالات الطرازية Commutations de mode التي تبدو لي أنها ملازمة لكل ممارسة انسانية ، وهل يرجع ، في هذا الفعل الدلالي ، الى ذاته ، ومن ثم تدريجيا الى الطبيعة ، منتجا فيها من جديد وفي اتجاه معاكس يبلغ أقصى الجذور ، عملية ارتقائه ذاتها ؟

أو ، على العكس ، هل تراه يشير الى معنى اخر غير ذاته ؟ هل تتشخصن ، بتعبير آخر ، « نفس العالم » التي تحدث عنها ابن رشد ، في **نقطـة النهـاية** Point Oméga التي يقول بها الأب تيلار ؟ أظن أنه ليس لنا أن نحيي من جديد الخلاف بين ابـن رشد والغزالي • دعني في الـــواقع أتذكر أنني مستعرب•••

لكن حيث أقبل سؤالك ، فبناء على الاساس والتنظيم الذي أنسبه الى القيم الاجتماعية • والحق أنني أرى هنا الشبه ، وربما المصدر في نوع من اللامماثلة ، أو الاغماء ، الذي يعتري عملية السياق الموضوعي ـ الدلالي ، الذي تكشف عنه ملاحظة القاعدة •

ان « المعنى الشجاع للكلمات » ، كما يقول ميرلو ـ بونتـــي ، لا يولد

التماس الا بين الاطراف المتعادلة ، والتي يمكن تخمينها : الدال ومدلوله . أكيد أن ثمة طاقة تنبثق من هذه الفيضانات . ولعل القيمة أو بعض القيم تكمن في التناقض بين دال اجتماعي : مؤسسة ، كلمة ، حركة ، والانتشارات المعبئة التي **تستدعيها** ، بالمعنى المليء للكلمة . ان جدلية الحادث والقيمة قائمة اذن في لاامماثلات في الفعل Acte الاجتماعـــي ، أي رويدا رويدا في تآلفات مورفولوجية ، علما أن هذه اللاامماثلات قابلة للانعكاس ، وأنه اذا كانت هناك قفزة من الفعل الى القيمة ، فان ثمة كذلك قفزة من القيمة الى الفعل . ينبغي اذن أن نبحث في اتجاه هذه العلاقات القابلة للاستبدال بين الكمية والنوعية والشكل . وكتابي يتوقف على عتبـــة هذه الفرضية . غير أنه يؤكد مجـيء **القيمة ــ العالم** ، التي تتحرك وتنشط في البحث عن الاستقلال ، في الثورات الآفرو ــ لاتينو ــ آسيوية ، وفي ممارسات التنـــوع . هذه القيمـة سوف تحاصرنا حتى في صراعاتنا الاجتماعية وحتى في جوانيتنا . والقضية العكسية ليست أقل صحة . فعلى التاريخ أن يتحرك في أبعاد ثلاثة : النمو الشخصي ، والتحرر الاجتماعي ، والتعددية العالمية .

جاك بيرك
(باريس)

بلند الحيدري

النزع

أشعر بالدّوار
أشعر بالأرض التي حببتهـــا
في مخلبٍ لقطتي
وصبوة في عين كلب الجـــار
تنهـــار
تغور في بئر بــــلا قرار .
. . . . .
تصرخ بي :
لا تقرب السياجَ ان ارضنا تنهار
ستسقط الشمس فلا ...
لا تقربِ السّياجْ
لا تحـكم الرتاج
أمسِكْ بقايا النّفَسِ اللائــــذِ بالفرارْ
*
أتسقط الشمس التي عرفتهـــا حكايةً طويلةً
في رحلة الرمال والبحار
في رحلة الصباح عــــبر دارنا
ودارهم
والف الف دارْ

أتسقط الشمس التي عرفتــها في نظرة الغواص ،
من سنـــينَ ، في استغاثة المحارْ

*

أجمع رجــليّ سؤالاً ساخراً
سأركل السماء
سأركل السحاب والنجوم والمستوحد الزّناء
أركله .. اقتله
اغرس اسنانيَ في جثته الزرقاء
أشعـــله
أسحله من شارعٍ لشارعٍ ، اقيم من جذاه
آلهة صغارْ
ان شئت ان أعبدَها .. اعبدُها
ان شئت ان أطردَها .. اطردها
أرقصهــــا
أوشمُ في اثدائها زانية وزانياً وكومة الحجــار
اركله ... اقتله
انسج من خصيته الفارغة الشوهاء
أهلـّةً وأنجماً ..
مسالكاً حوالكاً ... فليكبر المتاهْ
آن لنــــا
ان نبدل الفئران بالإنسان في المتـــاه

. . . . . .

اجمع رجـــليّ سؤالاً ساخراً
قهقهة ... فماً مدمّى ساخراً
أتسقـــط الشمس ولم ..؟

*

تصرخ بي
تصرخ بي بألف فم
يصير عظم كوسجٍ في حلقها الألم

... لا تقرب السياج
لا تحكم الرتاج
أمسك بقايا النفس اللائــذ بالفرار
ستسقط الشمس ولما ينقض النهار
داكنــــة ، سوداء مثل القار
ستسقط الشمس ولمّا يَنقضِ النهــــارْ .

*

دوار ... دوار
تمتصّني سماكة الأسوار
تنكفىء الوجوه والابعاد والاسفار
وينطفي الجدار
ولم تزل عيناي موعدين وانتظــــار
دوار ... دوار
يداي ترحلان في الظلام والغبــــار
لا تقربي ...
الشمس تلتف خيوط عنكبوتْ
لا تقربي ...
يرتطم الجنــــاح بالسكوتْ
ينفجر السكوت
... ها انها تموت
ذبابة ثانية تموت
. . . . .
اسقط في بئر بلا قرار
لا شمسَ
لا ارضٌ ولا نهـــارْ

*

ويصمت الزئبـــق في الحِرارْ .

بلند الحيدري

فاضل العزاوي

نزهة المحارب

في البدءِ سمعتُ صريرَ المفتاحِ
يفتح قفـــلي
فخرجت الى العالم من ثقبٍ في جبل الريـــح
أسرجت مشاعـــل أيامي . لكنّ الفقراء
ملأوا قلبي
فوقفت هنالك أنظر في أبناء الانســـان
يعدون كأيام الموتى
فوق خليج الشيطان .

مصلوباً في هذا الليل تهبُّ الريحُ من العـــالم ، تعبر أصواتَ الأجيالِ لتدخل في جيلي اذ أنظر في تأريخ الانسانِ . هنا علمني الحبُّ الصرخـــة في هذا العصرِ . هنا الموجة تهبـــط فوق صخور يغسلها زبد البحر . هنا علمني الحب الغربة — أن أمسك كف الله وأمشي بين مفازات العشاقِ تضيء سواحل قلبي أحلام تخفق بين الأشجارِ : تقدمْ يا بحرُ الي ، تقدمْ في فرح الزهرةِ ، في أحزان الفاتح بين المدنِ المقهورةِ ، واجعلني ملكاً للصحراء ، أميراً مجتمعاً في زاويةٍ من عصر يطرد أمثالي . كيف يكون الصلح مع الشيطان إذِ النفس تغني الله ؟ فقل لي يا بحرُ لمن أكشف وجهي ؟ كيف أغني أو أنفخ في أبواق العـــالم ما دام الحب أسيراً في المنفى ، ما دام السيف على عنقي ؟ آهِ ها أنذا أسمـــع أجراساً وأقولُ : لتمطرْ أحجاراً هذي الغيمة ولينهض أبناء الثورة كالأفعى في هذا الليل الواقف في النار .

انني أدخل العالم الوثني الجديد
من ممر الدموع القـــديم
من غبار الغزاة الأخيرين فـــوق الفراتِ
يدخلون قباب العصور
مانحين قصائدهم للصحارى
ناثرين الهموم المضيئة فوق السهوبِ .
ودخلنا الجزيره من بابها الأزلي
مقبلين الى واحة بين نهر وسهلٍ
حيث يسقط ثلج الشتاء على قبعات الجنـــود
وجيوش المغول تطاردنا ، والمجوس
معتلين ظهور الخيول ، معلقة يدهم بالرمـــاح
بين منفى ومنفى تمزقنا الذكريات
كل أرض حصار . أضعنا الطريق ، وقفنا حيـــارى عند باب الملوك
وعلى الماء سرنا تعذبنا صرخة الميتين :
علمونا الجلوس على العشب نحن الخطاة
بهدوء وصمتٍ
علموا شعبنا كيف متنا وصرنا حياة جديـــده .

وقف السيف في عنق البحر ، صار الطريق وراء القوافل حيث
النساء يلاحقننا بالحجاره
طالبات من البحر ألا يغيب على هضبات الليـــالي
ها هو العربي القديم يجيء الينا من الزمن المتكوم فوق الرمالِ
حاملا معه الرب في هودج الذاكره
معطياً مقلتيه الى الكبرياء :
رحلة في السلام الى جسد العنكبوت
فافتحي الباب يا أرض — ان دمـــوع الجزيره
غسلت جبهتي . افتحي الباب حيث الحضارة تلبس جلد الطيورِ
افتحي الباب كي نعبر الوطن الذي نام فيه الإله ، وفيه رأيت حيـــاتي
تستقيم على خشب عائم في مياه الحروب
اخلعي ثوبـــك القرشي فللدائرات شجيّ قبَليّ

للورود أصابع تفتح عشقك قبل الطفوله
فأنا معك اليوم أجلس عند الحديقة ، أسقط عن وجهك الزمني قناع الكهوله
لتقبّلْ جبيني الزنابق ، ولتقتربْ من هُتافي الغيوم
فأنا العربي الذي قتلوه هنالك بين الصخور
دفنوه أمام الجماهير في الناصرهْ
علقوا ثوبه الدموي على سعفات النخيل
مات تحت حذاء الخيولِ
بين جيل وجيلٍ .

واقتربنا من السادة الواقفين على ظلمات العصور
داخلين احتفال الصعاليك بين الخيام
حيث شدّ المهرج حبلاً يسير عليه
ومن الشرفة التاسعهْ
عرفتنا الأميرة ، قالت لسيّافها : هات لي بالغريبِ ، صعدت اليها ، الى البرج في القلعة السابعهْ
جعلتني أميراً أنا البائس الهزليّ
جعلتني فقيراً أنا الملك العربيّ
قطفتْ جسدي . ورأيت المهرج يهوي ويغرق في دمه الجاهلي . هبطتُ اليهِ .
وقفتُ قليلاً وقلتُ : ايه طيري المحارب بين الصقور . لماذا اختبأت من الوحش بين الحقولِ ؟
ولماذا تخاف الصعود الى القارة المقبله ؟
ولماذا أراك هنا مثقلاً بالدماء أمام الشعوب السعيده ؟
فسمعت القتيل يقولْ :
ماشياً في الزمان صلبت وفي كل مرّهْ
كنت أقتل أبعث حيـاً ، وأدفن ثم أقومُ
من دمي صارت الأرض زهرهْ
والنهار طريقي .
فجأةً سقط الرأس مني ، وصار الغريب أنا
فكسرت مرايا الزمان الجديد

ونواميسه القديمه .

وارتحلت مع القافـــله
نحو منفى جديد
لتكن لغتي رحلة القادمين من الأزمنـــه
فأنا العربي المشيد من حجر غامض في القفـــار
زمرة الطير تأكل من حدقات عيوني
والغزاة ينامون في غرفتي
في خيول المغول تدوس على لغتي
تشرب الماء من بئر زمزم
تسرق الحجر الأسود العربي
من فم الكعبة الحزينه .
لتكن كلماتي طريقاً اليكم ، وأنتم تريدون قتلي
تقطفون زهور الحدائق ، تعتمرون رؤوس الخيول
فأنا رجل رفعت حجب الغد عن صوته البربري
عن دم الجيل يسحقه القاتلون
بجـاء الجنود يعودون من ثكنات الحروب
ذاهبين الى أي مبغى قريب
ليغنوا السلام الذي لا يجيء .

ناهضاً في العصور شهدت الجلاوزة الواقفين على قبر جدي ،
يدوسون صـــوتي ، يمدون كفاً من الخشب الفارسي اليه ، يقيسون آباره المظلمه
ورأيت الطيور على باب مكة تشرب من جرحه الوثني
آه يا صوتي الوثني انتشر في الليالي الحزينه
انتشر بين جيل وجيل
انتشر في الصحارى
انتشر في البحار
وانتشر في السهول
فالطريق طويله .

وعبرنا الطريق الى الجاهليه
حيث مدت الينا السهوب الجميله
لوحة العشب في واحة يستظل بها الهاربون
فوجدنا الجنود يبيعون أرقامهم لليهود
ورأينا امرأ القيس يبكي وحيداً ، صرخت وحيدا

خرجت من الأيام بيني وبينها
مضيق الى المجهول يعبر ممطرا
وجبت الصحارى بالدموع تخضبت
وبيت ملوك الفجر أصبح مقفرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحقانِ بقيصرا
فقلت له : لا تبكِ عينك انما
نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

يا زمان الدموع تعال معي نعبر العالم المتقوس نحو السلام
عابرين المحيطاتِ في زمهرير الشتاء
لتكون لنا مدن في الهواء
ومواثيق عهد جديد .

في الطريق الذي سار فيه المسيح رأيت صليبي
وسمعت المنادي يصيح :

يا سكان الأرض تعالوا ، في هذي البقعة تعقد حفلة صلبِ
فلتأتوا من أوربا ، من قبرص واليونان
من يثرب ، من سومطره
من بابل والقفقاس
من هضبات العجم السوداء
وبلاد الكرد
من مصر وبادية الشام
فلتأتوا
فلتأتوا .

ومع الصبح ضجت ميادين قصري من القادمين الى مهرجاني
فعدوت الى حقل قمح وخبأت نفسي ، ومرّ من القلعة الحرس الفقراءُ
بهدوء الى الساحة المعتمه
وأقاموا صليبي
وعلى بعد ميل رأيت الجنود
يسفكون دم الزهرة الخائفه
فنهضت ، صرخت : كفى . غير أن الجنود رموني بعيداً
ومضوا
فبقيت وحيدا مع الزهرة الخائفه
وحلمت بأني أنا الزهرة الخائفه .

وقبل هبوط الليل في الأشجار
قبل أن يشهد الشعب صلبي
وتنطفىء الشمس خلف الأسوار زرت غار حراء ، وكلمت ماضي النبي الذي تضيء صوته الأحلامُ فرأيت النور يغرق صفحة الآتين من غابة الرمال اذ تغيب النجوم على غصون الليالي ، جاءني النبي الأخير وعانقني لنظل صديقين نقرأ باسم الجزيرة كتاب السلام. ذهبت اليه وهربنا من الملحدين في ارتجاف الرياح قاصدين المدينة . اكتشفنا الطريق ، اكتشفناه في ليـــلة المعراج

ووقفت هنالك أقول: الحقيقة بيت الرياح
والمسافة ملغومة بالخطى ، والقناديـــل على الأبراجِ

أطفئت . أين شمس الصباحِ ؟
فأنا السر بين الرمالِ
وأنا وطن سابـــح في الدموع
أين ظل النبي المحاصر يخطو هنالك عبر الدروب القصيّـــه
خطوة في غياب الحضور
خطوة في اختلاطِ العصور
خطوة في دم الأبديه .

دفنت السيف في قلبك يا بغداد ، أشعلت دمي حلما عبرت البحر والأمواج في تأريخك المكتوب بالفقراء والثوره ، بماء العقل والكبريت والحلاج والفوضى :

صرخت افتح لي الباب الذي أوصده المشنوق يا جلاد هذا العـــالم المشبوح
رأيت الموت . أدهشني مضيق الموت في العالم اذ يجلس شعب دون أسلحـــة
أمام عواصم الأمراء
رأيت حضارة الموتى بلا دخان
سمعت خطى تجوس رمـــال صحرائي
نهضت أمـــام آبائي
مليئاً بالأساطير
ورعب الغربة الأولى .

عبرت من سهل الى ربوة
رأيت حراساً بلا أسمـــاء

أوقفت أحـلامي ، هبطت في طريق العشب واقتربتُ من خيمتهم رأيت أن أكون قديساً (عبور نحو رأس الليل كالرسم على الأسود قصائـــد للجنس في مرعى الطيور ، اذ فم الوحشي على فم العروس . مشهد مجنون .) أين أنا ؟ هتفت هذا العالم المقلوب ليس وطني .الحب منقوع بحزن الزهرة الفائح والعربي غرفة أغلقها الفاتح مليون عام ، تاركاً أفكاره في سفلس الأطفـــال يختبئون تحت ظل صخرة اذ تهبط الشمس على الجبال ،وتذهب الفصول للصحراء في نزهة جديدة . أمسكني الحراس في مملكة الموتى أمام هوة مضيئة في شجـــر الغياب ، سرنا معاً نحو قرى تدخن العذاب .جرّدني الخوف من الصراخ أغلقت فمي سمعت أصواتاً من الأجيال تصيح بي :

أجنحة أخرى بلا خفاش
أجنحة أخرى بلا عصفور

بكيتُ ، قلت : كل ما أراه في زمانكم حماقة سوداء وبعد أن أهانني الحراس وسرقوا لساني عدت اليكم ماشياً ، مفرغاً من صورتي كالغول ، لا شكل ،مخلوق من العصور ، لم يولد ولم يلد سوى نفسه ، مفصول الى عشرة أجزاء بلا أسماء آتٍ من الخارج للداخل ، مسنود الى الفكرة ، مفعول بلا فاعل فلتغلقـــوا أبوابكم دوني أنا القاتل فلتغلقوا أبوابكم يا سادة العصـــور .

في هذا العصر الساقـــط من أعلى مبنى في العالم
فوق هموم الفقراء ، انسبنا عبر خـــلايا الثورة نحو الريف مع العمال
وعبر الأهوار ، بنادقنا فوق الاكتاف

والبردي يغطي الجزر البيضاء
ليكون لنا وطن لا يجلس في مقهى
ويدخن نرجيلة .
بين الأشجار رأيت عزيز الحاج ينثر اسماكاً مقتولة
ومدائح للطلاب المحمولين على سيارات الإسعاف
وجرائم مجهولة
في الصيف دخلنا طنجة بين صفوف المقهورين
مختارين رداء الغربة عند الحلفاء
نصطاد الجنرالات الخشبيين
نحن الماشين على بركة طين
لكن الريح رمتنا خلف الأسوار
فرجعنا أسرى في قافلة الملك المملوك
مشدودين الى أيام الحب وشارات الحرب .

من أجلك أيتها الثورة
أكتب فوق ذراعي
بدمي أسماء رفاقي الشهداء
وعلى خشب المدفع في الجبهة
أحفر أسماء الحرية
بلغات العالم كله .

أنا مجنون بالثورة ، مجنون أبدي ، اكتب اشعارا لا تقرأ او
تنشر ضد عيوني ضد يدي
ضد الشعراء المداحين
ضد كمال الشناوي
ضد حروب الردة
ضد نهار العقرب في دائرة النار
أنا مجنون لي رغبات معقولة :
١ ـ امرأة تسلخ جلدي في غرفه
٢ ـ ٥ حزيران بدون حروب وهمية
٣ ـ شعب يقرأ اشعاراً في الساحات العامة

أيتها الحرية ، يا جثمان أبي
أيتها الزوجة والابن
أيتها المكتوبة في الماضي والحاضر والمستقبل
أنا شعبك محمولاً فوق الأعناق
أيتها الحرية .
أنا كالفجر انظر في عواصف
جسدي الممزق . اجلب وطناً
من سوق اخرى . اية ادارة

تحرك منشـــآت العشاق القائمة في متاحف الأحزاب اليمينية ، ربما المجازفـة وحدها قادرة على شراء الآمال المؤجلة ، حيث تبول السياسة دماً احمر فنحـن نقدس مجاعات البحر ونعطي للمدن المجزأة تعاليم المقاومة وتقويم الايام

الاردن رصاصة في كتفي (اضرب
القدس مفتاح فخري للموجة وقف
اريد ان ارى وجـــه الله
بنادق . بنادق . بنادق
ان كنت تحمل بندقية جيدة
صوب الى الرأس . وانتظر .

في طائرة تعبر قارات العـــالم
انثر اشواقي
منشورات يقرؤها عمـــال النفط بـكاوروباغي
اغسل مرآة البحر من الضجة في رأس الاعمى
اعطى بغداد يدا ترفع راية
اصدر مرسوماً اقرؤه في ساعة حزن
اشهد في المرآة صقورا في مصيدة الاشباح
واصابـع تطفو في اغوار فضاء مسروق
داخل مبنى وطني .

وأسفـــاه ، وأسفاه لم يعد لعبد الرحمن الداخل
شقيق آخر ليقتل ، فقد رأيتهم يضربون عنقه ويمضون برأســـه

الى السير بيرسي كوكس الجالس في شركة شيل
وهو يشنق الحاج نجم وكاظم العبي في الكوفة
باحتفال جماهيري وقصائد من الشعر العمودي
حيث يغني الشبانة لحروب العمال العاطفية
تراتيلهم المؤجلة .

قبل ان ابلغ عامي الخامس والعشرين
امضيت ثلاثة اعوام في السجن
مسروقاً من حبي ورفاقي في الكلية
ومعي في سرداب السجن الابدي
كنت ارى اشباحاً تتحدث عن ماضي الإنسان
كنت ارى عارف يقضم اسنان الشيطان
كنت ارى قاسم يجلس في مقهى الوطني الديمقراطي
ويدخن احلاماً KING SIZE بالفلتر
كنت ارى عبدالناصر يخطب في الساحات
وانا بين اللوطيين
اخطب في ساحة سجني
عن ايام الإنسان المكتوبة بالاحزان .

وكالعادة يدلف من خارج القاعة عصر رائع
داخل شاحنة مليشة بأطلس الشياطين
من الذي ينظر الى العمارات وهي بردائها
الجامعي تتزوج حضارة الحيوان. انا
اعرف. ولكن هذا ليس مهماً.
ما يهم حقاً ونحن نقترب من حافة السكين ان نخترع للجزيرة اسماء تكون اصابع . انني رجل مهموم ، قابل للقتل والقاء الخطب ، بينما لم يكن امام حواء سوى احتمال واحد : ان تحب آدم فقط . لو لم تكن المعرفة خراطيم لليد لناديت : انت يا روزاليندا تعالي الي من الفن العظيم الذي يكتب اليوم معكوساً ، من القصائد التي تستعمل مناشف للصوص الصحراء . آه .. لندع العالم يطرد كوابيسه ، اما نحن فسنعمد بفعل رائحة الموتى داخل الثلاجات الى اختراع :

وحش خاص بنا .
يقينا ان الحرية لم تذهب الى المدارس الليلية
ومع ذلك كان يمكن ان تكون مفيدة
في اضاءة شبح ستالين يعمده البابا
او لتجميل الدول في الاحتفالات على الاقل .
لقد قررت توزيع الدول من جديد . وهذا يعني ان اليابان ستسكن في افريقيا
والروس في جزر هاواي اما انا فسأكون موجودا معكم ، في الليل والنهار ،
في كل عصر وفي كل عاصفة .

آه .. ايتها الارض ، يا معلمة الشجاعة والغربة
انني اهبط اليك حيث تعبر العاصفة فانتازيا الجسد
ويقف نوري السعيد على صخور دجلة الزرقاء
محدقا بأزواج مشنوقين بلا ذنوب
انني اعبر مراتك متبوعاً بألف شرطي سري
يقفون امام باب كلية التربية
لاعلن في هذه اللحظة وفي الايام المقبلة
ان الحب يقطر في القناني ويباع في الصحف والصيدليات
لازالة الصلع
وان البطالة وحدها تجعلنا نكتب الشعر
وان السجون والمواقف تعلمنا
كيف نصادق شرطياً في ٧ ايام بدون معلم .

اية اغصان تنبت في هذي الارض الصخريه :
الزهرة تسقط فوق بكاء الفردوس
والخوف يسجل في كتب المستقبل احزان الاطفال
والالفاظ فقاعات تطرح في سوق الذكرى
كالجثة في بيت مهجور
اذ لا يوجد من يفتح شباكاً للنور
اية ضوضاء داخل رأس الجندي العائد من حرب الزنج
تطرق جدران الفجر الهابط من عرش النوم
(اشكال في القفر . فصول في الاعراس

الكلمة قطب يسكنه شعب يحبل ايام عذابه ، والموت المكتوب
ولادتنا ، حيث الحب سفار في المجهول).
اهي الاشباح تجوس الظلمة
ام ان الريح تغني خلف الباب ؟
في الثلاجة هذا الاسبوع رأيت شهوداً يقتربون من الاسبوع
ويقولون نعم للجوع امام بيوت بيضاء
منحدراً في النهر تشير الموسيقى للروح : وقوفاً
تحت ظلال الاغصان
في هذي الارض المحروقة .

علقت بلادي تحت خليج الشرق ، رسمت عيوناً تقطر انهاراً ، واقمت صحارى يخرج منها شعراء مقرورون . بلادي كانت فيكم . اين هي الآن ؟ المحتلون ينامون على فخذيها ، في الليل يراها العشاق مكومة ، تنزف من جرح في ثدييها. يصّاعد فيها قمر مشنوق ،والاعداء يعيرون الاطفال وجوهاً خائفة . آتٍ زمن الانسان من الغبطة في غصن مقتول ، من سيناء تعاني آلام الطلق ، من الحاضر في الغائب ، والغائب في الحاضر . آتٍ انسان الفقراء ليكنس هذا الوادي من اشباح الليل . وقوفاً يا جيلي بين المعول والصخرة ، بين القاتل والقتل فما الموت سوى ومض في ليل مهجور ، والقلب مغن يطرده السلطان . وقوفاً يا جيلي في سيناء . وقوفاً في الموجة والبحر . وقوفاً في وطن أشعله كبريتاً ، فلينهض وطني فوق تخوم الثورة وليصرخ : لن ادفن بعد اليوم قتيلاً حتى اشهد وجهي في مرآة الحرية .

واقفاً في جزيرة الظل اذ يصعد النعاس اليها رأيت نهراً يغني بين الطيور ، نجمة تعبر الغيمة الاخيرة ، والارض ترتدي لغة الموجة الاسيرة : ان الهموم تدخل بيت السلام تمسك كفي ، وتجرح الغصن في الريح — ايها الحب ، يا نزهة المحارب ، عنواني الطبيعة والغامض المقدس اسمي . فلتبح باسمك المؤلف من وردة الدخان ، من الفرحة التي تعبر والكلمة التي تتلاشى بين الغياب وبيني .
لتكن ثورة الجحيم الذي يمنح الحياة نهاراً ، وليلة من حريق
لتكن في معابري وطناً ناهضاً يضيء طريقي .

فاضل العزاوي
(بغداد ، تموز ١٩٧٠)

لهب الماء

١ - مات زياد

من يثقب جدران الأشيـــاء
يملأهـــا ظلاً او أضواء
يملأها ماء ؟

هدبي مرصودٌ بالرؤيا
ولأرضي شاكلةُ الأحيـــاء
مات زيادْ :
لم يفتح أندلساً لم يغز بـــلادْ
لم يتركْ للنّجدةِ بعدَهْ
سُفنَ العودَهْ .

٢ - لم يبق لنا غير الابحار

ألشوقُ الغامض يأخذنا
خلف الأشياء
لا ندري هل بحرُ المنفى
لهبٌ او ماء

تحبسنا في الطّينِ الأسماءْ .

لم يبق لنا غير الإبحارْ
في سُفن المنفى
في لهبِ الماءْ .

٣ - قلبي سمكـــه

ألصيادون بلا شبكهْ
ينتظرون المـــدْ
قلبي سمكهْ
في عينيها حلمُ الغَدْ .

٤ - مهرج الملـــك

لا وجه لك
ونحن نعتزّ هنا بالوجه يا مهرّج الملـــكْ
أطفالنا تحلم بالسيوف والسفنْ
فيا غرابا ما يزال ينقرُ المدن
لا وجه لكْ
لا وجه لكْ

ونحن لا تضحكنا الأصبـــاغ في الوجوه
نؤثر أن نتوهَ في هياكل الفلكْ
نصادق الجبال والنجوم والحلَكْ
وجوهنا لا ترتدي الاصباغ في المســـاء
نبحر للقاع الى لآلىءٍ غريبهْ
خلف قصور الماء
نخبىء فيها ضحكنا المضاء بالدّموعْ
ونبتني بيتاً من الشموع

أعلى من الملوك ، لا تأخذه
في وجهك الصبيغ صورة الشرك
لا وجه لك
لا وجه لك

رئاتنا تسكن في الأعماق
تحلم بالأطفال في حرائق الأشواق
في المرفأ الغريب تحرق الحبال والشبك
نشلح ظل اللون في معابر الفلك
ونلبس الجراح والدماء والحلك
نغسل وجهك العتيق يا مهرج الملك

٥ - سفرة ازميل

أجنحتي مملكة
وسنابك أيامي شعل
في جلد الزمن
عمّرت لاطفالي بيتا
كتبوه على أحجار العين
« لله الملك »
يستولي الملك على قدري
يقعدني تحت رماح الشمس يمدّني فوق الإبر
ويُشيّد لي قصر الضجر
لله الملك

حاضرنا ملحمة ثكلى
غدنا فجر يورق في عربات القتلى
صبوتنا حلم
الشمس هنا طفل محترق
والكلمة ماتت ، ما من فرس تحملنا

يا أطفالي أعطوا للنجمة رايتنـــا
الليل لنا سفـُن السّفرِ
الليل لنا سفرةُ ازميـــلِ في الحجر
الليل لنا.

٦ ـ قصيدة للسفر

الى امي

تنقش ذكري أمي البعيدهْ
على قبور الاولياءِ أحرفاً عنيدهْ
تجدّدتْ سُبحتها واهترأتْ
تكرُّ اسم الله حولي سنةً جديدهْ
« ربّ أعدْهُ لِضوءِ وجهيَ العتيقْ
ربّ أعدْهُ وليكفنّ وجهي الحريقْ
إنْ لم تطرّزْ كفني دموعهُ
الموتُ نفـْيٌ والقبورُ عتمةٌ . »

وها انا أرفعُ راية الرحيـــلْ
أهرب من إسمـــي على قصيدهْ
أكفـّنُ الجراحَ بالاصيـــلْ
أبحثُ عن جراحيَ الجديــدهْ .

نذير العظمه

مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف

تحية لجمال عبد الناصر، أول قائد عربي
حديث عمل لكي ينتهي عصر ملوك
الطوائف ويبتدىء العصر الآخر .

وجـــهُ يافا طفلٌ / هل الشجَرُ الذابل يزهو ؟ هل تدخـل
الأرض في صورة عذراء ؟ / مَن هناك يرجّ الشرقَ ؟ / جاء العصف
الجميـــلُ ولم يأتِ الخرابُ الجميلُ / صوتٌ شريدٌ ... /

(كانَ رأسٌ يهذي يهرّج في الفسطاط في حضرة العســاكر
محمولاً ينادي أنا الخليفـــةُ) / هاموا حفروا حفرةً لوجه
عليٍّ / كان طفلاً وكانَ أبيض أو أسودَ يافا أشجـــارهُ
وأغانيه ويافا ... / تكدّسوا ، مزّقوا وجهَ عليٍّ /
دمُ الذبيحة في الأقداحِ ، قولوا : جبّانةٌ ،
لا تقولوا : كان شعري ورداً وصار دماءً ، ليس بين الدمـــاء
والورد إلا خيط شمسٍ ، قولوا : رماديَ بيتُ
وابنُ عبّادَ يشحذ السّيفَ بين الرأس والرأس وابنُ جَهْورَ
ميْتُ .

لم يكن في البدايه
غير جذْرٍ من الدمع / أعني بـــلادي

والمدى خيطيَ — انقطعتْ وفي الخضرة العربيهْ
غرقت شمسيَ / الحضارةُ نقّالةٌ والمدينهْ

وردةٌ وثنيّهْ —
خيمةٌ :

هكذا تبدأ الحكايةُ أو تنتهي الحكايَهْ .
والمدى خيطيَ — اتّصلتْ أنا الفوهةَ الكوكبيهْ
وكتبتُ المدينــه
(حينما كانت المدينة مقطورةً والنــواحْ
سورُها البابليُّ) ، كتبت المدينهْ

مثلما تنضــحُ الأبجديّهْ
لا لـكي ألأمَ الجراحْ
لا لـكي أبعث المومياءْ
بل لـكي أبعث الفروقَ .. / الدمــاءْ
تجمــعُ الوردَ والغرابَ / لـكي أقطع الجسور
ولـكي أغسل الوجوه الحزينه
بنزيف العصور ،
وكتبت المدينه
مثلما يذهب النبيُّ الى الموت / أعني بــلادي

وبلادي الصّدى
والصّدى والصّدى ...

كشفَتْ رأسها الباءُ ، والجيمُ خصلةَ شَعْرٍ ، إنقرض إنقرضْ
ألِفٌ أولُ الحروف انقرضْ إنقرضْ
أسمعُ الهاءَ تنشجُ والراءُ مثل الهـــلالْ
غارقاً ذائباً في الرمالْ
إنقرضْ إنقرضْ
يا دماً يتخثّر يجري صحارَى كلامْ
يا دماً ينسج الفجيعة أو ينسج الظـــلامْ

إنْقرض إنْقرض
سحرُ تاريخكَ انتهى
ادفنوا وجهَه الذليلَ وموروثَهُ الأبلَها
واعذري واغفري
يا قرونَ الغزالاتِ ، يا أعينَ المها ...

أحارُ ، كلَّ لحظةِ أراكِ يا بــلادي
في صورةٍ ،
أحملكِ الآنَ على جبيني ، بين دمي وموتي : أأنتِ مقبره
أم وردةٌ ؟

أراكِ أطفالاً يجرجرون
أحشاءهم ، يُصغون يسجدونْ
للقيد ، يلبسونْ
لكل سوطٍ جلدهُ ... أمقبرهْ
أم وردةٌ ؟

قتلتِني قتلتِ أغنياتي
أأنتِ مجزرهْ
أم ثورةٌ ؟
أحارُ ، كلَّ لحظةِ أراكِ يا بلادي في صورةٍ ...

وعليٌّ يســأل الضوءَ ، ويمضي
حاملا تاريخه المقتولَ من كوخٍ لكوخٍ :
« علّموني أنَّ لي بيتاً كبيتي في أريحا
أنَّ لي في القاهره
إخوةً ، أنَّ حدودَ الناصره
مكــةٌ .
كيف استحالَ العلمُ قيداً ؟

ألهذا يرفض التاريخ وجهي ؟
ألهذا لا أرى في الأفق شمساً عربيه؟»

ه لو تعرف المهزله
(سمّها خطبةَ الخليفةِ أو سمّها المهرجانْ)
ولها قائدانْ
واحدٌ يشحذُ المقصلَهْ
واحدٌ يتمرّغُ ... لو تعرف المهزلهْ

كيف ، أينَ انسللْتْ
في حصار المذابح ... ماذا ، قُتِلتْ ؟
أنظرِ الآنَ كيف انتهيتَ ولم تنتهِ المهزلهْ
مُتّ كالآخرينْ
مثلما ينشجُ الدهرُ في رئة السالفينْ
مثلما يكسر الغيم أبوابه القزَحيّهْ
مثلما يغرق الماءُ في الرمل أو تقطعُ الأبديهْ
عُنُقَ القُبّره

كنتَ كالآخرين ، انتهيتَ ولم تنتهِ المهزلهْ
كنتَ كالآخرينَ – ارفضِ الآخرينْ
بدأوا من هناكَ ابتدىءْ من هُنا
حول طفلٍ يموتْ
حول بيتٍ تهدّم فاستعمرته البيوتْ
وابتدىء من هنا
من أنين الشوارع من ريحها الخانقه
من بلادٍ يصير اسمها مقبره
وابتدىء من هنا
مثلما تبدأ الفجيعةُ أو تولد الصّاعقهْ

مُتّ ؟ هاصرتَ كالرعد في رَحم الصّاعقه

بارئاً مثلما تبرأ الصاعقه
أنظـــر الآنَ كيف انصهرتَ وكيف انبعثتَ ، انتهيتَ ولم
تنتهِ الصّاعقهْ .

أعرفُ ، كان ملكك الوحيدَ ظلُّ خيمةٍ ،وكان فيها خِرقٌ ،
ومرّةً يكونُ ماءُ مرةً رغيفٌ ، وكان أطفالك يكبرونْ
في بُرْكةٍ ،
لم تيأسِ انتفضتَ صرتَ الحلمَ والعيونْ
تظهرُ في كـــوخٍ على الاردنّ أو في غزّةٍ والقدسْ
تقتحمُ الشارعَ وهو مأتمٌ تتركه كالعرسْ
وصوتُك الغامرُ مثلُ بحرٍ
ودمُكَ النافرُ مثلُ جبلٍ
وحينا تحملك الأرضُ إلى سريرها
تترك للعاشق للاّحق جدواينْ
من دمكَ المسفوحِ مرّتينْ .

وجه يافا طفلٌ / هل الشجرُ الذابلُ يزهو ؟ هل تدخل الأرضُ
في صورةِ عـــذراءَ / مَن هناكَ يرجُّ الشرق / جاء العَصْفُ
الجميلُ ولم يأتِ الخرابُ الجميلُ / صوتٌ شريدٌ ...

سقطَ الماضي ولم يسقطْ (لماذا يسقط الماضي ولا يسقطُ ؟)
دالٌ قامةٌ يكسرها الحزنُ (لماذا يسقط الماضي ولا يسقطُ ؟)
قافٌ قابُ قوسين وأدْنى
أطلبُ الماءَ ويعطيني رملا
أطلب الشمسَ ويعطيني كهفاً
سيّدٌ أنتَ ؟ ستبقى
سيّداً . عبدٌ ؟ ستبقى
هكذا يُؤْثرُ ، يعطيني كهفاً وأنا أطلبُ شمساً ، فلماذا سقط
الماضي ولم يسقط ؟ لماذا هذه الأرضُ التي تنسل أياماً كئيبهْ
هذه الأرضُ الرّتيبهْ

سيّدٌ أنتَ ؟ ستبقى
سيّداً . عبدٌ ؟ ستبقى
غيّر الصورةَ لكن سوف تبقى
غيّر الرايةَ لكن سوف تبقى

... في خريطةٍ تمتدّ ... الخ ،

حيث يدخلُ السيّد المقيمُ في الصفحة ١ راكباً حيواناً بحجم المشنقة ، يتحوّلُ إلى تمثالٍ ملء الساحات العامة . و(كانت) الحاكمة تغسل عجيزتها وحولها نساءٌ يدخلن في الرّمح ويمضغن بخور القصر والرجال يسجلون دقات قلوبهنّ على زمنٍ يتكوّم كالخرقة بين الأصابع حيث

ك ترتجف تحت نواةٍ رفضيّةٍ بعمق الضوء
ت تاريخ مسقوف بالجثث وبخار الصلاة
ا عمود مشنقة مبلّل بضوءٍ موحل
ب سكين تكشط الجلد الآدميّ وتصنعه نعلاً لقدمين سماويتين في خريطةٍ تمتدّ ... الخ .

شجرٌ يثمرُ التحوّلَ والهجرةَ

في الضوءِ جالسٌ في فلسطين وأغصانُه نوافذُ / أصغينا لأفراحهِ قرأنا معه نجمةَ الأساطير / جندٌ وقضاةٌ يدحرجون عظاماً ورؤوساً ، وراقدون كما يرقد حلمٌ يُهجّرون يُحرّرنَ إلى التّيه .../

كيف نبدأُ ،

من أينَ ، هل البحر قادرٌ ، هل حنانُ الشمس ؟ /
(— يكفيني رغيفٌ

كوخٌ وفي الشمس ما يمنحَ فيئاً ، لا لستُ خوذةَ سيّافٍ ولا ترسَ سيّدٍ ، انا نهرُ الأردنّ أستنفرُ الزهورَ وأُغويها / دمٌ نازفٌ / تبطّنتُ ارضي ودمي ماؤها دمي وسيبقى ذلك الساهر النحيلُ : غبارٌ يمزجُ العاشقَ المشرّدَ بالريحِ ، ويبقى نسغٌ /)

يتمتم طفلٌ ، وجـهُ يافا

طفلٌ / هل الشجرُ الذابلُ يزهو ؟ /

(— متى أتوا ؟ كيف لم نشعرْ ؟ جبال الخليل يدُفعها الليل ويمضي والأرضُ تهزأ / لم نشعر / دمٌ نازفٌ / هنـا سقط الثائرُ / حيفا تئنُّ في حجَرٍ اسودَ والنخلة الـتي فيأت مريمَ تبكي / حيفا تسافر في عينيْ قتيلٍ حيفا بحيرة حزنٍ جرحت قلبها وسالتْ مع الشمس إلينـا / همسْتُ في قدمي جوعٌ وفي راحتيَّ تضطرب الأرضُ / كشفنا اسرارَنا (بُقع الدمع طريقٌ)أجسُّ خاصرة الضوء يحثّ الصحراءَ والكونَ مربوطاً بحبلٍ من الملائكِ / هل تشهدُ آثار كوكبٍ ؟ يسمـع الكوكبُ صوتي رويتُ عنه سأروي ...

في الزمنِ القاتل شخصٌ رمى تاريخه للنار غطّى مدى وجوهنا بحمرة الخجلْ

ومات /

لن تعرفَ حريةً ما دامت الدولةُ موجودةً /

تذكرُ ؟ كان السجن بوابةً للشمس كان الأملْ

تذكرُ ؟ (والقاعـــده

وسلطة العمال ...) ما الفائده

تنحدرُ الثورة بعـــد اسمهِ

في لفظةٍ ، تمتدّ في مائده /

هل تقرأ المائـــده ؟ /

كان فدائيٌّ يخطّ اسمـــه ناراً وفي الحناجر البارده

يموتُ /

والقدسُ تخـــطّ اسمها :

لم تزل الدولةُ موجـــودةً

لم تزل الدولةُ موجـــودةً ...

غيرَ ان النهَرَ المذبوحَ يجري :

كلُّ ماءٍ وجه يافا
كل جرحٍ وجه يافا
والملايين التي تصرخُ : كلا ، وجه يافا
والأحبّاء على الشُّرفة او في القيد او في القبر يافـــا
والدمُ النازفُ من خاصرة العالم يافـــا
سمِّني قيساً وَسمِّ الأرض ليـــلى
باْسم يافا
باسم شعبٍ شردته البشريهْ
سمِّـــني قنبلةً او بندقيّهْ ...

هذا انا : لا ، لستُ من عصر الأفولْ
انا ساعةُ الهتْك العظيم أتت وخلخـــلةُ العقولْ
هذا انا – عبرَتْ سحابه
حبلى بزوبعة الجنونْ
والتيّهُ يَرق تحت نافذتي ، يقول الآخرونْ
« يرعى قطيـــع جفونـــهِ
يصل الغرابةَ بالغرابهْ »
هذا انا أصلِ الغرابةَ بالغرابهْ
أرّخْتُ : فوق المئذنهْ
قمرٌ يسوس الاحصنَهْ
وينام بين يدَيْ تميمه
وذكرتُ : بقّعتِ الهزيمـــه
جَسدَ العصورْ
وَهرانُ مثل الكاظميّهْ
ودمشق بيروت العجوزْ
صحراءُ تزدردُ الفصولَ ، دمٌ تعفّنَ – لم تعد نارُ الرموزْ
تَلِد المدائن والفضاء ، ذكرتُ لم تكن البقيه
إلا دماً هَرِماً يموت يموتُ بقّعت الهزيمه
جسدَ العصورْ

... في خريطةٍ تمتد الخ ،

حيث تتحول الكلمة إلى نسيجٍ تعبرُ في مسامّه رؤوسٌ كالقطن المنفوش ، ايامٌ تحمل أفخاذاً مثقوبةً تدخل في تاريخٍ فارغ إلا من الاظافر ، مثلثات بأشكال النساء تضطجع بين الورقة والورقة ؛ كل شيء يدخل الى الارض من سُمّ الكلمة ، الحشرةُ اللهُ الشاعر بالوخز والارق وحرارة الصوت بالرصاص والوضوء بالقمر ونملة سليمان بحقولٍ تثمر لافتاتٍ كتب عليها « البحث عن رغيف » او « البحث عن عجيزة لكن استتروا » او « هل الحركة في الخطوة ام في الطريق ؟ »

والطريقُ رملٌ يتقوّس فوقه الهواء والخطوة زمنٌ املس كالحصاة ...

حيث وقفَ على طرف العمل ، وضع الكتاب كالشامة على جبينه ورسم جوقةً من الملائكة على شفتيه واذنيه ، اخذ يغرز اصابعه واسنانه في قصعة الكلام طالت اذناه وسقط شعره وتحول ، وكان الوقت يشرف ان يصبح خارج الوقت وما يسمونه الوطن يجلس على حافة الزمن يكاد ان يسقط ، « كيف يمكن إمساكه ؟ » سأل رجل مقيد وشبه ملجوم لم يجئه الجواب لكن جاءه قيدٌ آخر واخذ حشد كمسحوق الرمل يفرز مسافة بحجم لام ميم الف او بحجم ص ع ي ه ك ويسير فيها ينسج راياتٍ وبسطاً وشوارع وقباباً ويبني جسراً يعبر عليه من الآخرة إلى الاولى ...

حيث عبرت
ذبابةٌ وجلست على الكلمة ، لم يتحرك حرف ، طارت وقد استطال جناحاها عبر طفل وسأل عن الكلمة طلع في حنجرته شوكٌ واخذ الخرَس يدبّ الى لسانه ...

في خريطةٍ تمتد ... الخ ، حيث

؛ العدو يطغى وهم يخسرون ، ويمد وهم يجزرون ، ويطول

وهم يقصرون ، الى ان عادوا الى علم ناكس وصوت خافت ،
وانشغل كل ملك بسد فتوقه ،

... وعندما يجد الجد ويطلب الاندلس عون الملك الصالح لاستخلاص إقليم الجزيرة وقد سقط في ايدي الاسبان يكتفي بالاسف والتعزية ويقول بان الحرب سجال وفي سلامتكم الكفاية،

... ولم يزل العدو يواثبهم ويكافحهم ويغاديهم القتال ويراوحهم حتى أجهضهم عن اماكنهم وجفّلهم عن مساكنهم وأركبهم طبقاً عن طبق واستأصلهم بالقتل والاسر كيفما اتفق ...»

في خريطة تمتد ... الخ ،
رفض التاريخ المعروف الذي يطبخ فوق نار السلطان ان يذكر شاعراً ... والبقية آتية ،

في خريطة تمتد ... الخ ،
يأتي وقتٌ بين الرماد والورد
ينطفىء فيه كل شيء
يبـــدأ فيه كل شيء .

... وأغنّي فجيعتي ، لم اعد المح نفسي إلا على طرف التاريخ في شفرةٍ / سأبدأ ، لكن اين ؟ من أين ؟ كيف اوضح نفسي وبأيّ اللغات ؟ هذي التي ارضع منها تخونني سأزكّيها واحيــا على شفير زمانٍ مات امشي على شفير زمانٍ لم يجىء

غيرَ أنني لستُ وحدي

... ها غزالُ التاريخ يفتحُ أحشائيَ / نهرُ العبيد يهدرُ لم يبقَ نبيٌّ إلا تصعلكَ لم يبقَ إلهٌ / نجيء نكتشفُ الخبز / اكتشفنا ضوءاً يقود إلى الارض اكتشفنا شمساً تجيء من القبضة هاتوا فؤوسكم نحمل الله كشيخٍ يموت نفتح للشمس طريقاً غيرَ المآذن للطفل كتاباً غيرَ الملائك للحالم عيناً غير المدينة والكوفة / هــاتوا فؤوســكم

لستُ وحدي ...

... وجه يافا طفلٌ / هل الشجر الذابل يزهو ؟ هل تدخل الارض في صورة عذراء ؟ / من هناك يرجّ الشرقَ ؟ / جاء العصف الجميل ولم يأت الخراب الجميل / صوتٌ شريدٌ ...

خرجوا من الكتب العتيقةِ حيثُ تهترىءُ الاصولْ
وأتوا كما تأتي الفصولْ
حضنَ الرمادُ نقيضَهُ
مشت الحقولُ إلى الحقولْ :
لا ، ليس من عصر الافولْ
هو ساعة الهتكِ العظيم أتتْ وخلخلةُ العقولْ .

ادونيس
(بيروت، ١٩٧٠)

إشارة :
اقرأ السطر الثالث في الصفحة ٩٦ ، هكذا :
آهٍ ، لو تعرف المهزلهْ

في الوضع الثقافي اللبناني

فؤاد سعيد حداد

نظام التربية ونظام الحكم :
نقد لمنهج التاريخ الابتدائي في لبنان

المدرسة مؤسسة اجتماعية نشأت لتقوم بمهمة خاصة لا يمكن أن تقوم بها بصورة فعالة أية مؤسسة أخرى • ومهمة المدرسة هي التربية • هذا لا يعني ان المدرسة هي المؤسسة الوحيدة التي تعنى بشؤون التربية اذ ان هنالك عدة مؤسسات تقوم فيما تقوم به بمهمات تربوية ، كالبيت ، والنادي والكنيسة أو الجامع • الا ان المدرسة تختلف عن سائر المؤسسات في كونها انشئت لتقوم بمهمة التربية • فالتربية هي مبرر وجودها •

ان مقومات المدرسة ثلاثة : طلاب ومعلمون ومناهج وما عدا ذلك ، كالكتب والصفوف والدرجات العلمية وسائر الاجهزة الاكاديمية ليست سوى آلات لتسهيل عملية التعليم • فالمناهج اذن هي احدى المقومات الاساسية للمدرسة • لذلك عمدنا الى دراسة قسم من المناهج اللبنانية وهو منهج التاريخ على المستوى الابتدائي كما حددته المادة الثانية من المرسوم رقم ٦٩٩٨ والمنشور في منهج التعليم الذي أصدرته وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة سنة ١٩٤٦ • ولكنني قبل أن ابدأ بتحديد موضوعي لا بد لي من كلمة توضح مفهوم المنهج وأهميته •

يعتبر علماء التربية مناهج الدروس أهدافا عامة حللت وترجمت الى أعمال مفصلة دقيقة ثم نسقت ورتبت بطريقة تنسجم وطاقات الطالب على القيام بها • فالاهداف هي المحور الاساسي والمرتكز الذي تقوم عليه المناهج • وبما أن منهج الدروس في الجمهورية اللبنانية تضعه وزارة التربية ، وبما أن الوزارات من حيث المبدأ ، لا تعمل مستقلة عن بعضها البعض ، نرى ان مناهج الدروس في نظام تربوي مركزي ، كالنظام اللبناني ، ترتبط بمؤسسات اجتماعية غير تربوية • لا بأس من هذه الظاهرة بالذات ، انما المهم في هذا الوضع هو التناسق

بين جميع أعمال هذه المؤسسات بحيث تتمكن كل منها أن تسهم في تنمية المجتمع تنمية سليمة معافاة ٠ اذ ان التناقض بين أهداف المؤسسات وأعمالها يؤدي بصورة حتمية الى تفكيك المجتمع من ناحية والى اضطراب فكري ونفسي عند الناشيء الفرد من جهة اخرى ٠ فتكامل المجتمع والذات الفردية يتوقفان الى حد بعيد على تكامل وتناسق الجهود التي تبذلها جميع المؤسسات الاجتماعية ٠

وأما أهمية المناهج فهي في كونها تجسيدا لفلسفة المجتمع ونظرته الى الحياة التي تهدف المؤسسات أن يحياها أبناء المجتمع ٠ فالقيم التي توجه أنظار القيمين على المناهج هي المقياس لاختيار المواد التي تتضمنها هذه المناهج ٠ وهي التي ترسم الخطوط الكبرى لاتجاهات مستقبل المجتمع ٠ لذلك عمدنا في هذه الدراسة أن نتناول منهج التاريخ اللبناني على الصعيد الابتدائي ٠ والموضوع الذي اخترناه يوجب توضيح نقطتين أولاهما اختيار المرحلة الابتدائية والثانية انتقاء مادة التاريخ ٠

اهمية نظرية وعملية

وأما المرحلة الابتدائية فتقع أهميتها في ناحيتين : نظرية وعملية ٠ فمن الناحية النظرية يعتبر علماء التربية ان المرحلة الابتدائية مرحلة مهمة ودقيقة في حياة الناشيء ٠ ذلك ان قوام شخصيته من حيث مزاجه الفكري والعاطفي والاخلاقي يتبلور الى حد بعيد في هذه الاثناء ٠ واما من الناحية العملية ، فالمرحلة الابتدائية تعتبر مرحلة نهائية لقسم كبير من طلابنا ٠ وبهذا الصدد يذكر منهج التعليم : « قد يكون التعليم الابتدائي كلا مستقلا قائما بنفسه يختتم بالشهادة الابتدائية ، فيكتفي بها الطلاب وينصرفون الى الاعمال المهنية وسائر طرق الكسب في الحياة ٠ وقد يكون مدرجة لما فوقه من درجات التعليم » (١) ٠ لسنا ندري بالضبط نسبة الطلاب الذين ينهون تربيتهم المقصودة في المرحلة الابتدائية ٠ وبما انه ليس لدينا احصاءات دقيقة حول الموضوع ، يمكننا ان نعطي فكرة تقريبية استخلصناها من مقارنة مجموع عدد الطلاب في المدارس الخاصة والرسمية في السنة الخامسة ابتدائية لعام ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ ومجموع الطلاب في المدارس الخاصة والرسمية في السنة الاولى المتوسطة للعام الدراسي التالي ٠ فمجموع الطلاب في السنة الخامسة ابتدائية عام ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ بلغ ٤٨٤٧١ ومجموع الطلاب في السنة الاولى المتوسطة ٣١٢١٦ ٠ فيكون عدد الطلاب الذين لم يتابعوا دراستهم الثانوية ١٧٢٥٥ أي ٣٥،٦ بالمئة من مجموع

---

(١) وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة ، منهج التعليم (بيروت : مطبعة جوزيف سليم صيقلي ، لا تاريخ) ص ١٦ ٠

الطلاب الذين أنهوا المرحلة الابتدائية (١) • فاذا كانت المرحلة الابتدائية مرحلة نهائية لهذا العدد من الطلاب ، نرى انها ولا شك مرحلة خطيرة وحاسمة خاصة ان المنتهى سيبدأ مواجهته للحياة بما أعد نفسه له في هذه المرحلة • وأما اختيارنا للتاريخ فلا يعني اننا نفرده كحقل أكثر أهمية من سائر الحقول • ان اقتناعنا وطيد بأن مثل هذه الدراسات يجب أن تشمل جميع الدروس التي تعطى في جميع المراحل التعليمية • الا ان التاريخ يشير الى اتجاهات اجتماعية وسياسية تهم لبنان وبصورة خاصة في هذه الحقبة من حياتنا • فضلا عن أن التاريخ هو حصيلة خبرات المجتمع عبر الزمن وهو مصدر عبر وقيم ومفاهيم تؤثر في مواقف المواطن في حياته اليومية وفي نظرته الى نفسه وصلاته بمجتمعه وسائر المجتمعات حوله • فالتراث الذي ينقله التاريخ هو أحد عوامل التنشئة الاجتماعية للطالب ، ذلك ان مزاج الفرد الفكري والاخلاقي هو في المرحلة الاخيرة العامل الذي يبعث الشعور بالانتماء الى مجتمع ما دون اخر • وهذا المزاج يقوم التاريخ بقسط وافر في تنميته في الناشىء • بالاضافة الى ذلك ، ان ربط الاحداث المتتالية بعضها ببعض وتطورها من مرحلة الى اخرى ، يفيد التاريخ في اجلائها • فواقع القوم لا يمكن أن يفهم الا اذا درست جميع القوى التي تفعل في المجتمع وربطت بعضها ببعض • فالتاريخ يفيد في اظهار هذا التفاعل • لذلك نرى ان دراسة التاريخ على جانب كبير من الاهمية ولذلك وقع اختيارنا على دراسته • ودراسة المنهج تقتضي العودة الى المصدر الرئيسي ، أي المنهج الرسمي كما وضعته وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة • الا ان هذا المنهج لا يعدو كونه اشارات عامة الى ما يجب أن يعالجه المعلمون في صفوف التاريخ ، ولذا لا يمكن الاخذ بها على انها مناهج •

الترابط الوثيق بين التاريخ والجغرافيا

تنظر وزارة التربية الى التاريخ والجغرافيا على أنهما حقلان مرتبطان ارتباطا وثيقا وتشدد على المعلمين الاخذ بهذه الناحية : « وليدرك المعلم ان بين التاريخ والجغرافيا ارتباطا وثيقا يستفيد منه في احياء الحوادث التاريخية المهمة • ويعزز ذلك بزيارة الاماكن الاثرية والمتاحف والاهتمام بالخرائط التاريخية والصور والرسوم » • (٢) فعندما أعطت منهج التاريخ ذكرت معه منهج الجغرافيا • واما فيما يتعلق بالتاريخ فتقدم له الوزارة بما يلي : « لا يخفى أن التاريخ من أجدى الدروس فائدة في تعزيز العاطفة الوطنية والاعتزاز

(١) لقد حصلنا على هذه الاحصائيات من الاستاذ عادل شويري في قسم الاحصاء في وزارة التربية • ولقد لفت نظرنا الاستاذ شويري الى أن هذه العملية لم تأخذ بعدة عوامل مثل عدد الطلاب الذين يعيدون صفوفهم والذين ينتقلون الى المدارس المهنية • كما ان هذا الاحصاء يصف الوضع في سنة واحدة • والسبب في عدم أخذنا بهذه العوامل هو عدم توفر الاحصاءات الضرورية • لذلك علينا أن ننظر الى هذه الارقام بكل تحفظ •

(٢) منهج التعليم ، ص ٢٣ •

القومي • وان التاريخ اللبناني خاصة غني بمواقف البطولة الرائعة وثمار العبقرية الفذة والخدمات الانسانية الجليلة في مختلف ميادين الروح والفكر والمادة • فعلى المعلم واجب لذيذ في اطلاع تلاميذه على كل هذا وفي اشعارهم بأنهم حفدة أولئك الجدود وعليهم تكملة رسالتهم السامية » (١) وبعد المقدمة تحدد الوزارة منهج التاريخ كما يلي : (٢)

« **السنة الاولى** : حكايات شفهية عن الحياة القروية في لبنان وعن الارض والكواكب وأهم المظاهر الجوية •

السنة الثانية : صور تاريخية مع شرحها تتناول أهم المظاهر في العصور التي مر بها لبنان •

السنة الثالثة : قصص وأساطير تؤخذ من تاريخ لبنان خاصة وتاريخ العرب عامة في مختلف الادوار •

السنة الرابعة : لبنان من أقدم عصوره حتى اخر العهد البيزنطي ـ قراءات تاريخية • لمحة اجمالية في أهم حوادث التاريخ العالمي ـ سقوط بيزنطة ـ اكتشاف أميركا ـ الدول الغربية •

السنة الخامسة : لبنان من الفتح العربي حتى اليوم • علاقات لبنان بالدول العربية •

(يستعان على هذه الدروس التاريخية بزيارة الاماكن الاثرية الطبيعية والمتاحف وسواها) •

لمحة اجمالية في أهم حوادث التاريخ العالمي : الثورة الفرنسية ـ محاولة توحيد أوروبا ، الاكتشافات الحديثة » •

ان هذا المنهج لا يمت بأية صلة الى مفهوم التربية للمنهج • فاستعنا على دراسته بانتقاء سلسلة كتب للتاريخ تستعمل في المدارس الابتدائية باعتبار أن السلسلة تفصل المادة باسهاب يمكننا من نقد المنهج وتقييم بعض النواحي التربوية كما تظهر في هذه السلسلة •

في لبنان عدة سلاسل لكتب التاريخ وضعت وفقا لمنهج التعليم الرسمي• ولكي نختار سلسلة للدروس والتحليل انتقينا عينة من المدارس في بيروت وجوارها ثم سألنا عن كتب التاريخ التي تستعملها هذه المدارس فكان لسلسلة « المصور في تاريخ لبنان » الحظ الاوفر في هذه المدارس • فاخترناها للدرس والتحليل • ودراستنا هذه ستتناول المنهج من عدة أوجه أهمها المادة التاريخية ، نوعية المادة من حيث أمانتها التاريخية ، صلة المادة بحياة الطالب في الوقت الحاضر ، طريقة دراسة التاريخ والاسلوب المتبع في معالجته ، الاتجاهات

(١) المرجع السابق •
(٢) المرجع السابق ، ص•ص• ٢٤ ـ ٢٥ •

التاريخية التي يهدف المؤلفون الى اظهارها ، المفاهيم والقيم والمواقف التي يسعون الى تنميتها في الطالب وأخيرا سندرس منهج التاريخ من وجهة نظر تربوية حتى اذا ما استقصينا هذه النقاط انتهينا بالادلاء ببعض الاقتراحات ٠

برنامج السنتين الاولى والثانية

تبدأ دراسة التاريخ في لبنان في السنة الاولى ابتدائية وتنتهي في السنة الخامسة ٠ وأعمار الطلبة في هذه المرحلة تتراوح بين السادسة والعاشرة ٠ فمنهج التاريخ في السنة الاولى شفهي ولذا لم يكن بالامكان تقييمه واما في السنين الباقية فلقد وضع المؤلفون لكل سنة كتابا الا السنة الثانية فقد وضع لها كتابان ، واحد مختصر والاخر مطول ٠ واما المختصر فقد وضع « تلبية لرغبة الاساتذة ومديري المدارس الذين يجد تلاميذهم بعض الصعوبة في دراسة ذلك الجزء لكثافة مادته وصغر حرفه » (١) ٠ الا ان المؤلفين يوصون بوضع الطبعة المفصلة بين أيدي الطلاب حالما ينتهون من درس الطبعة المختصرة (٢) ٠ وبما ان مواضيع الطبعة الخاصة موجودة في الطبعة العامة يمكننا أن نعتبر الطبعة العامة على انها تحتوي المادة المقررة للسنة الثانية الابتدائية ٠

تشتمل طبعة الجزء الاول العامة على ثلاثين فصلا وضع كل فصل بشكل قصة ولكل فصل صورة وفي نهايته أسئلة وتمارين ٠ يعالج الفصل الاول لبنان بحدوده وجماله وعلمه والغرض من هذا الفصل تحبيب الطالب بلبنان ٠ فالفصل أقرب الى التربية الوطنية منه الى التاريخ ٠ والفصول الباقية تعالج تاريخ لبنان من أقدم العصور وتنتهي بعهد الاستقلال ٠ خصص المؤلفون عشرة فصول ، أي ثلث المادة ، لتاريخ الفينيقيين ، فبحثوا في تجارتهم وصناعاتهم ودياناتهم واختراعاتهم وحروبهم ضد الاشوريين والكلدانيين والفرس والاسكندر ثم خصصوا فصلا لقرطاجة ٠ وهذا يعني ان ثلث المادة ينتهي بالقرن الثاني قبل الميلاد ٠ ثم يتابع المؤلفون فصولهم فيمرون بالرومان فالبيزنطيين فالعرب حتى فخر الدين الكبير في تسعة فصول ٠ ومن فخر الدين حتى القرن العشرين أربعة فصول ٠ ولبنان في القرن العشرين يعالج تاريخه في أربعة فصول ، اثنان منها يعالجان الحربين العالميتين الاولى والثانية ، ولا يأتي فيهما ذكر لبنان الا عرضا ، والاخران عن عهدي الانتداب والاستقلال ٠ فينتهي تاريخ لبنان الذي يدرس في السنة الثانية ابتدائية سنة ١٩٤٣ ٠

---

(١) جماعة من الاساتذة ، المصور في تاريخ لبنان ، الجزء الاول ، طبعة خاصة (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٦) مقدمة ٠

(٢) المرجع السابق ٠

برنامج السنوات الثالثة والرابعة والخامسة

وأما تاريخ السنة الثالثة فيقع في خمسة وعشرين فصلا تعالج تاريخ لبنان منذ أقدم الازمان حتى فجر الاستقلال • الفصل الاول منها يشدد على دور لبنان وعظمته في التاريخ وتمسكه بقضايا العدل وارتباطه بالدول العربية وما قدمه من خدمات للانسانية • وأما الثاني فيتناول الانسان في العصر الحجري والفصل الاخير مراجعة عامة • واما سائر الفصول أي الثلاثة والعشرين فيكرس المؤلفون تسعة منها للتاريخ الفينيقي وفصلين أحدهما لرحلة الامير فخر الدين والثاني لهيبة الامير بشير • أما لبنان القرن العشرين فيعالج في ثلاثة فصول واحد عن الشهداء والثاني عن معركة الدامور في الحرب العالمية الثانية والثالث ذكرى تشرين أي عهد الاستقلال •

برنامج السنة الرابعة يعالجه المؤلفون في خمسة وعشرين فصلا ولقد قسم المنهج الى قسمين • يعالج القسم الاول تاريخ لبنان القديم حتى العهد البيزنطي • والقسم الثاني يبدأ بضعف الدولة البيزنطية وسقوطها فيمر ببعض الاكتشافات الجغرافية ثم يتناول ظهور بعض الدول الاوروبية ، انكلترا وفرنسا وايطاليا وروسية فاسبانيا • والجدير بالذكر ان الفصل الاول يتناول لبنان فيتكلم عن أشهر مدنه وأمجاده وفي الفقرة الاخيرة منه بعنوان « البلدان المجاورة » يشير المؤلفون لاول مرة الى قضية فلسطين التي « اغتصبها الصهاينة بمساعدة الدول الاستعمارية ، وأقاموا فيها دولة اسرائيل » دون أن يسمي هذه الدول الاستعمارية • والفصلان التاليان يعالجان تطور الحياة في لبنان من الكهوف الى القرى ثم تطور استعمال الالة •

أما منهج السنة الخامسة فيقسم الى قسمين • في القسم الاول يعالج المؤلفون تاريخ لبنان من « الفتح العربي حتى اليوم » وعلاقات لبنان بالدول العربية في واحد وعشرين فصلا ، يبدأ القسم الاول بمراجعة عامة تتناول كل ما درس في السنين السابقة • ثم يبدأ بالعرب حتى عهد المتصرفية يعالجها في ستة عشر فصلا ولبنان في القرن العشرين يعالج تاريخه في أربعة فصول • ينتهي تاريخ لبنان بعهد الاستقلال وذلك لا يعدو سنة ١٩٤٦ • الا ان الفصل عن عهد الاستقلال مقسوم الى قسمين كرس القسم الثاني منه لقضية فلسطين • أما القسم الثاني من المنهج فمخصص « للمحة اجمالية في أهم حوادث التاريخ العالمي » • يعالج المؤلفون هذا القسم في ستة فصول تحظى منه الثورة الفرنسية ونتائجها بأربعة فصول والفصلان الاخيران خصصا للثورة الصناعية والاختراعات الحديثة •

غموض مفهوم التاريخ في البرنامج

هذا هو منهج التاريخ للمرحلة الابتدائية وصفناه وصفا مفصلا حسب

السنين الاربع • فاذا ما انعمنا النظر في المنهج والسلسلة التي درسناها ، نجد أن مفهوم التاريخ ليس واضحا لا في المنهج ولا في السلسلة المذكورة • فالمنهج يذكر فائدة التاريخ لا بل يستعمل التاريخ وسيلة « لتعزيز العاطفة الوطنية والاعتزاز القومي » (١) • ولاجل هذا التعزيز يذكر المنهج « ان التاريخ اللبناني خاصة غني بمواقف البطولة الرائعة وثمار العبقرية الفذة والخدمات الانسانية الجليلة في مختلف ميادين الروح والفكر والمادة » (٢) • لا شك ان في درس التاريخ عبرا ولكن العبرة ليست مادة التاريخ • فمادة التاريخ في وجهة نظرنا ، هي حوادث انسانية • والحدث هو شيء حصل في وقت ما • ومهمة المؤرخ هي أن يصف الاحداث وصفا موضوعيا ، ثم ينظمها ويفسرها • والحدث خاص بطبيعته وهو نتيجة عوامل عدة ادى تفاعلها لتحقيق حدث ما واقع بالفعل • من هنا نرى ان الحدث ليس انية بسيطة مجردة بل واقعا حياتيا معقدا • وكون الحدث انسانيا يعني انه نتيجة قرار اتخذه الانسان ليتصرف بطريقة ما • فارتباط التاريخ بهذا العامل الانساني ، أي من خلال الاحداث ، يربط التاريخ بعالم المعرفة بصورة عامة والمعرفة الاخلاقية الشخصية بصورة خاصة • ولذلك نقول ان مادة التاريخ هي ما فعل الاشخاص عن قصد في ممارستهم لحريتهم عن كامل وعيهم الاخلاقي • ويصبح التاريخ اذ ذاك قصة ما فعل الانسان بنفسه في بيئته الطبيعية والاجتماعية • ولكي نفهم التاريخ علينا اعادة بناء الماضي من خلال المشاركة ، بالفكر ، في حياة الذين جعلوا الماضي ما هو عليه • من هنا تأتي مسؤولية المؤرخ في كتابة التاريخ • فاذا ما أراد أن يعرض ما حصل بالفعل ، عليه أن يجمع شتى الخبرات الانسانية في وضع كلي مفيد يظهر أحداث الماضي من خلال جميع المقومات والعناصر التي تفاعلت في احداث واقع حياتي معقد • فتجزئة مواد التاريخ لا تنسجم وطبيعة التاريخ كما أنها لا تنسجم وطبيعة الانسان • ومن ناحية تربوية لا يمكننا الاخذ بطبيعة الموضوع فقط ، بل علينا ان ننظر الى الموضوع بالنسبة الى طبيعة المتعلم • وبما اننا ننظر الى الانسان على انه في جوهره كل متكامل لا مجموعة أجزاء متفرقة ، وجب علينا أن نقدم للمتعلم منهجا كليا تشكل أجزاؤه وحدة عضوية متكاملة والا كان المنهج نسفا لحقيقة الذات الانسانية • من ثم نرى من درسنا لطبيعة الانسان على انه يمتاز في كونه يملك القدرة على اختبار المعاني • فالموضوعات المختلفة التي يدرسها الطالب ليست في حقيقتها سوى معان يحصل عليها الطالب من تعلمه • فوحدة المعاني تنعكس على وحدة الذات الانسانية وتجزئتها تعني تجزئة الذات ولذلك نقول ان التجزئة هي عدوة المعنى وبالتالي عدوة الانسان • هذه حقيقة وصل اليها المربون وما زالوا يعانون وطأتها في عصر تفجر المعارف والمعاني • فالحياة المليئة بالمعاني المتكاملة هي حياة موحدة كثيفة غنية متكاملة • وما ذكرناه عن كلية الفرد الانساني ينطبق كذلك على المجتمع • فالمجتمع كل حي نام وتلاحم أجزائه يتوقف على مدى المشاركة بينها ، ذلك ان

---

(١) منهج التعليم ، ص ٢٧ •
(٢) المرجع السابق •

المشاركة ، كما يقول ديوي ، هي العامل الاساسي الذي يكون مزاجا أخلاقيا ـ فكريا مشتركا بين أفراد المجتمع • وهذه المشاركة يفعل التاريخ في تنميتها •

فقدان الموضوعية والروح العلمية

من خلال مفهومنا هذا للتاريخ والانسان والمجتمع نشرف على سلسلة الكتب فنرى قبل كل شيء انها لا تأخذ بالمعنى الحقيقي للتاريخ كما أنها لا تعنى بوظيفة تاريخية محضة • فهي تهتم بشؤون التربية الوطنية وتأخذ ببعض مفاهيم الثقافة العامة مما يظهر بوضوح ان عبرة التاريخ لا مادته هي التي تسيطر على أذهان واضعي المنهج والمؤلفين • وهذا الاتجاه افقد الحقائق التاريخية موضوعيتها وحرم الطالب من تنمية الروح العلمية والمواقف الموضوعية •

أما فيما يتعلق بالحقائق التاريخية فنرى ان المبدأ الذي تبناه المؤلفون لانتقاء العبرة ـ المادة كانت تمليه الرغبة في اظهار لبنان سيدا حرا مستقلا عبر الزمن وفي الاشادة بالدور الانساني الشامل الذي لعبه لبنان • وهاتان النقطتان تتضمنان مبدأين أخذ بهما للتأكيد على سيادة لبنان واستقلاله وهما الارض والحضارة • وأما الارض فهي المبدأ الذي نظر من خلاله على أن لبنان فينيقي • والحضارة ، أو بعض أوجهها ، كانت العامل للاشادة بدور لبنان وخدماته ولذلك يفخر لبنان في أنه قدم الى الانسانية الابجدية وأسهم في علم الحقوق من خلال مدرسة بيروت • فاذا ما حللنا هذين المبدأين وجدنا انهما لا ينطبقان على واقع لبنان فسخرا لاغراض خاصة • فمن حيث الارض لم يعرف لبنان بحدود جغرافية معينة • ومبدأ الارض لاثبات لبنان بلدا فينيقيا يمكن أن تتبناه كل من الجمهورية العربية السورية وفلسطين • فالمدن والممالك الفينيقية كانت قائمة على طول الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط ولم تكن محصورة بجبيل وصيدا وصور • فأرواد وعمريت وأوغاريت ، مثلا ، تشهد بصحة ما نقول فضلا عن ان الاثار المكتشفة في اوغاريت تظهر على انها كانت مدينة لا تقل أهمية حضارية عن سائر المدن الفينيقية • وبالاضافة الى كل ذلك يفيد التاريخ على أن الممالك الفينيقية لم تكن موحدة في بوتقة واحدة • فالاستشهاد بالتاريخ الفينيقي والتشديد عليه لا يعطي حجة قاطعة لكون لبنان دولة متكاملة سيدة ذاتها عبر الزمن •.هذا فضلا عن ان سيادة لبنان المعاصر ليست بحاجة الى هذا المبرر ، كما أن قبول اللبنانيين اليوم بلبنان ليس قائما على فينيقية لبنان • وأما الناحية الحضارية أو بعض مظاهرها فيمكن دراستها من عدة أوجه • الا انني لست هنا لابحث في هذه الناحية بالذات فهي ليست مرتكز بحثي ولكن الاشارة الى بعض الحقائق تظهر أهمية ما أنا بصدده • ان الحضارة التي أعطت الابجدية والتي شيدت بيروت مركزا للحقوق لم تكن حضارة لبنانية بمفهوم لبنان المعاصر فلبنان اليوم ليس فينيقيا من ناحية حضارية ولا هو روماني • ومن ثم نرى انه

لا صلة بين الحضارتين الفينيقية والرومانية كما أنه لا يوجد أية صلة بينهما وبين واقع لبنان الحضاري اليوم • فالتركيز على حضارات شهدتها هذه الارض ولكنها غير متصلة بحاضرنا تثير الاضطراب الفكري والنفسي في الناشئة كما أن المبالغة في عظمة لبنان تضر بلبنان وتبنيه على أسس وهمية واهية عقيمة • وللاشادة بدور لبنان ، لبنان اليوم ، أرى أنه عوضا عن أن نعود بادراجنا الى الماضي الذي لا يربطنا به أي عامل حضاري فنشدد عليه ، أرى انه من الواجب أن نشدد على دور اللبنانيين بصورة خاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين لان انتاجهم هو من ضمن الاطار الحضاري للبنان اليوم • فضلا عن أن الدور الذي قــام بــه اللبنانيون في هذين القرنين جدير بالتقدير والاحترام واقرارنا به يمليه حب الحقيقة والواجب • من هنا نرى ان أول ما يجب أن نقوم به هو تحديد هويتنا بصراحة وتواضع وواقعية • ففي المرحلة الاخيرة لا يمكننا أن نفر من أنفسنا وكما يقول خليل حاوي : « وجحيمي في دمي أين الفرار ؟ »

محتوى البرنامج : العقلية السلفية

وأما من حيث محتوى سلسلة الكتب ، فاذا ما أخذنا مجموع الفصول في السنوات الابتدائية كلها ، نرى انها تبلغ مئة وسبعة فصول خصص ثلاثــون فصلا منها للتاريخ الفينيقي وعشرة فصول للبنان في القرن التاسع عشر وواحد عشر فصلا لتاريخ لبنان في القرن العشرين • تنتهي دراسة تاريخ لبنان سنة ١٩٤٦ • ومما يلفت النظر ان تاريخ لبنان في السنة الرابعة ينتهي بسقــوط بيزنطية • ان هذه الظواهر خطيرة تثير أسئلة كثيرة وتوحي بمفاهيم خاصــة يحسن اظهارها • وأول هذه المفاهيم هو ان الماضي يسيطر على أذهان المؤلفين • فالعقلية السلفية تظهر بوضوح في كتب التاريخ • فالماضي هو المرتكز وهــو يدرس لاجل ذاته وكأن لا صلة له بالحاضر على الاطلاق • بينما نحن ننظر الى الماضي من حيث هو فاعل في الحاضر وهذا الربط يعطي الماضي مــدى حياتيا نابضا ، ويبقي الغابر في مضمون الماضي لا من حيث الفعل بل من حيث مفهوم الزمن العلمي ، أي الزمن الذي يقاس بالكم • من ثم قد يعترض البعض على أن طبيعة التاريخ تملي معالجة الماضي وهذا صحيح • الا ان السلسلة تعالــج ماضيا متجمدا ميتا وتكرس معظم المواد للماضي السحيق • أوليس أمس ماضيا؟ لماذا ينتهي تاريخ لبنان سنة ١٩٤٦ وليس سنة ١٩٦٩ مثلا ؟ أيهما أجــدى للطالب ، ان يحفظ عن ظهر قلب صناعات الفينيقيين ودياناتهم وأسفارهم أم ان يعرف صناعات لبنان اليوم ؟ أيهما أنفع ، ان يعرف الصباغ الارجواني وصدف الميوركس أم صناعة الخمور والنسيج والزيوت والادوية والخزف والاسمنت والحديد •• الى ما هنالك من صناعات حديثة ؟ ان منهج التاريخ صامت عــن لبنان اليوم • فلبنان أطفالنا هو لبنان الامس البعيد • هذا من حيث الماضي ، وأما أسلوب معالجته ، فتبدأ دراسة التاريخ من العصور القديمة وتنتقل قفزا الى الاقل قدما مما يظهر ان المنطق الذي يتبناه المؤلفون ، دون أن يطبقوه ، هو

البدء بالاسباب ثم تقصي نتائجها • ان منطق التاريخ لا يفرض بالضرورة هذا التسلسل الزمني • فالبدء بالنتائج وتقصي أسبابها ينسجم ومنطق الاحداث وبكلمة اخرى ، ان البدء من الحديث الى الماضي ينسجم ومنطق التاريخ • الا ان لهذا النهج الاخير فوائد تربوية سنعالجها فيما بعد •

والملاحظة الثانية هي ان المؤلفين يعالجون لبنان كيانا مستقلا منذ أيام الفينيقيين حتى اليوم • وتشدد السلسلة على أن لبنان فينيقي • والتشديد على الفينيقيين بارز في الكمية التي كرست لتاريخهم • ففي السنة الثانية يكرس المؤلفون عشرة فصول ، أي ثلث المادة للفينيقيين والسنة الثالثة تكرس تسعة فصول من خمسة وعشرين فصلا للفترة ذاتها والسنة الرابعة تعالج في أحد عشر فصلا من أصل خمسة وعشرين للمدة ذاتها • فيكون مجموع الفصول في السنوات الثلاث الاولى ثمانين فصلا خصص ثلاثون منها للتاريخ الفينيقي وسبعة للبنان في القرن العشرين • وهذا يظهر بوضوح ان الاتجاه الذي ينحوه المنهج هو اتجاه فينيقي • هـــذا من حيث الكم وامـــا من حيث المضمون فالمؤرخون يستعملون فينيقي ولبناني كلفظتين مترادفتين • والتشديد على الفينيقيين يظهر كذلك في تكرار المواد في السنوات الثلاث ، الثانية والثالثة والرابعة • فالمادة هي نفسها مع تغيير جزئي ضئيل • فاذا ما بحثنا في أسباب هذا التكرار نجد ان لا دافع اليه سوى تنمية الاتجاه الفينيقي وتركيزه في الناشئة • الا ان تكرار المادة نفسها ، من وجهة نظر تربوية ، يقضي على اهتمام الطالب بالمادة والموضوع فالتكرار ، وان كان مستحسنا في بعض الاحوال ، يستوجب الاعادة بطـــرق شيقة ، أي باعطاء الفكرة ذاتها في وضع جديد بالاضافة الى معلومات جديدة ، على أن تعالج معالجة أكثر شمولا ودقة من المعالجات السابقة • وهذا من شأنه أن يفتح افاقا لم يعهدها الطالب من قبل • الا ان السلسلة المذكورة لم تكـــرر المادة وحسب بل كررت الموضوع نفسه •

مشكلات حضارية

ان هذا التأكيد على فينيقية لبنان يتضمن نقطة حساسة ادى عدم التصريح بها ودراستها الى بلبلة مخجلة في أنفس اللبنانيين والعرب • ولكي نظهر أهمية هذه النقطة سنقابلها بنظرة المؤرخين الى تاريخ العرب • ينظر المؤرخون الى مهاد التاريخ العربي في الجزيرة العربية ويعتبرون ظهور الاسلام حدا زمنيا يفصل بين عهدين : الجاهلية والاسلام • بالمقابل ، نرى ان التشديد على الفينيقيين يركز مهد تاريخ لبنان على شواطيء المتوسط فيبعده بالتالي عن الجزيرة وهذا يؤدي حتما الى عدم الاخذ بالاسلام حدا زمنيا فاصلا بين عهدين • مفهوم العروبة اليوم يأخذ بوجهة النظر الاسلامية وهنا تكمن المشكلة • وهي ليست مشكلة سهلة لانها هي السبب في بلبلة اللبنانيين والعرب على حد سواء وهي السبب في عدم التمييز بين العروبة والاسلام عند فريق كبير من الناطقين بالضاد •

لذلك يجب أن يعاد النظر بالتاريخ العربي ودراسته في ضوء الحضارات التي نشأت في العالم العربي قبل ظهور الاسلام وبعده ٠

ان عدم وضوح هذه المشكلة ينعكس على عدم وضوح هوية لبنان وصلاته بالعرب ٠ ذلك ان هذه النقطة تثير بالنسبة الى لبنان مشكلة عروبة لبنان وصلاته بالعرب ٠ أما النقطة الاولى ، أي عروبة لبنان ، فهي مشكلة حضارية واجتماعية فسياسية ما زال لبنان يعانيها حتى اليوم ولا تزال آثارها فاعلة في جميع مرافق حياة اللبنانيين ٠ ومن أسباب هذا الاضطراب هو عدم التمييز بين الجانب الحضاري والجانب السياسي لمفهوم العروبة ٠ ان حضارة لبنان اليوم هي حضارة عربية ، حقيقة يجب أن نوضحها لانفسنا ودور لبنان هو من ضمن هذا الاطار ٠ فالعالم العربي هو مسرح الفكر اللبناني وهو مجال فاعليته ودون العالم العربي لا حياة للبنان لا من ناحية فكرية ولا اقتصادية ولا سياسية ٠ وتخوف لبنان من الوجه السياسي للعروبة هو أحد العوامل الاساسية التي تفعل في اقصاء لبنان عن العرب حضاريا وسياسيا بالرغم من أن صلات لبنان بالعرب هي صلات مصيرية لا ينكرها أي لبناني ٠ الا ان المنهج والسلسلة لا يظهران أية نقطة من هذه النقاط ٠ بل على العكس ، انهما يتغاضيان عنها كليا ٠ فاذا ما قرنت هذه الظاهرة بالتشديد على التاريخ الفينيقي ، استنتجنا ان الاضطراب الفكري من حيث هوية لبنان وصلاته بالعرب تظهر بجلاء في مناهج التاريخ ٠

من ثم اذا انعمنا النظر في المناهج نرى ان التاريخ لا يهمل لبنان بعد سنة ١٩٤٦ فقط بل انه يهمل كذلك تاريخ الدول العربية كل الاهمال ٠ فهو لا يأتي على ذكر سوريا والاردن والكويت والعراق والسعودية ومصر ٠٠ بل على العكس نراه يعالج تاريخ فرنسا وانكلترا وايطاليا وروسيا واسبانيا ٠ فاذا ما نظرنا الى مناهج السنتين الرابعة والخامسة ، نرى ان كل دولة من هذه الدول الاوروبية تستأثر بفصل خاص الا فرنسا والثورة الفرنسية اذ تحظى فرنسا بخمسة فصول ٠ قد يكون هنالك ما يبرر البحث في تاريخ فرنسا والثورة الفرنسية وفي تاريخ روسيا باعتبار أن آثار هاتين الثورتين فعلت في التاريخ الانساني وأثرت في اتجاهه وقيمه ٠ الا ان قيمة هاتين الثورتين وأهميتهما هي فوق مستوى الطالب الابتدائي ٠ فان كان الامر كذلك فلماذا ذكرا أساسا ؟ واما تخصيص فصل لتاريخ اسبانيا وايطاليا فاني لا أرى ما يبرره ٠ ما هي أهمية التاريخ الايطالي أو الاسباني بالنسبة للطالب اللبناني في المدرسة الابتدائية ؟ من ثم أيهما أجدى ، أن نخصص فصلا أو أكثر لتاريخ كل من سوريا والعراق والكويت أم ان نعالج تاريخ اسبانيا ؟ ان اهمال تاريخ الدول العربية التي تربطها بلبنان « أوثق الصلات » ومعالجة تاريخ اسبانيا وايطاليا لا يترك مجالا للاسترسال بتبرير ساذج لهذه الغفلة ٠ انها ولا شك غفلة متعمدة لا يجوز التغاضي عنها لا من ناحية تاريخية ولا من ناحية تربوية ٠

مفهوم الزمن في البرنامج

رأينا ان منهج التاريخ يكرس القسم الاكبر من مواده للماضي السحيق • فمعظم الموضوعات التي عالجها لا تمت الى حياتنا المعاصرة بأية صلة • فضلا عن ذلك ، ان التاريخ محشو بموضوعات شتى يصعب على الطالب استيعابها واسماء لا تعني لابن الثامنة من العمر شيئا • ماذا تعني الفاظ اشوريين ، كلدانيين ، صدف الميوركس ، روبسبيار ، ديدرو لابن ثماني وتسع وعشر سنين ؟ لم التشديد على حفظ أشياء لا يمكن شرح معانيها ومدلولاتها على المستوى الابتدائي؟ ولم التشديد على موضوعات لا تهم الطالب ولا هي ضرورية لحياته ، خاصة ان كانت المرحلة الابتدائية نهائية له ؟ اذ ما هي الوظيفة التي يسعى اليها من ترك المدرسة في سن العاشرة ؟ مهما كانت وظيفته ، فتاريخ اسبانيا لن يفيده وكذلك تاريخ ايطاليا وديانات الفينيقيين الى ما هنالك من حشو مضر • الا ان جهله لبيئته يضره كثيرا •

قد يتذرع البعض على أن التاريخ يجب أن يقدم للطالب معلومات عامة عن الانسانية جمعاء • وجوابنا عن هذا هو أن معرفة الغير لا يمكن ان تحصل قبل معرفة الذات فضلا عن ان هدف التعرف على الانسانية ليس ممكنا في المرحلة الابتدائية وعدا عن كونه لا فائدة منه فان له نتائج عكسية بما يلحق في رغبة الطالب وتشويقه للمطالعة ومتابعة الدراسة •

وتعليم التاريخ في المرحلة الابتدائية يثير مشكلة اخرى وهي مفهوم الزمن • وللزمن في تعليم التاريخ مفهومان أساسيان هما الوقت والكرونولوجيا فمفهوم الوقت مميزا عن الكرونولوجيا يظهر في وقت مبكر عند الطالب • فالطفل يبدأ بتنمية مفهوم الوقت عن طريق المقارنة فيتعلم الوقت المقازن من كلمات مثل الان ، الاول ، متأخر ، ليل • ثم ينمو مفهوم الوقت لديه من وعيه للساعة الالة والروزنامة وبعض المواعيد مثل وقت الدخول الى الصف • وأما مفهوم الكرونولوجيا فلقد أثبتت البحوث على انه لا ينمو عند الطالب قبل السنة الاولى من المرحلة المتوسطة • فالجيل والقرن والالف الاول قبل الميلاد أو بعده ليست سوى الفاظ يبقى معناها دون خبرة الطالب أو قدرته على الاستيعاب • حتى فكرة الالف لا يمكنه أن يحدها • فالربط الزمني من ناحية كرونولوجية ليس ممكنا • وفي السلسلة اشارات كثيرة الى تواريخ لا تعني للطالب الابتدائي شيئا •

تشتت البرنامج وهزاله

وأما اذا نظرنا الى نوعية المادة التي تعالج على الصعيد الابتدائي ، فنراها مادة هزيلة مجردة كل التجريد عن واقع الطالب ومقدرته على تفهمها • كما اننا نرى ان المادة شتات من مختلف العصور لا تمكن الطالب أن يتصور أي مجتمع

من المجتمعات أو حدث من الاحداث أو مرفق من مرافق الحياة تصورا كاملا • فالمنهج لا يعالج موضوعا واحدا بصورة جلية متكاملة • فلو سلمنا مثلا بضرورة دراسة التاريخ الفينيقي أو ليس من الافضل أن ندرس كيف كان يعيش الفينيقي ؟ ان تطور بناء البيوت الفينيقية ما زالت آثاره واضحة في جبيل • البيوت الاولى كانت مستطيلة قليلة العرض ثم تطورت الى بيوت بشكل دوائر يسند سقفها عمود في الوسط • الاسوار ما زالت قائمة حول بعض جهات المدينة والمدافن والمرفأ والمعابد وخزانات المياه كلها موجودة بحيث تمكن الدارس من اعادة بناء حياة الفينيقي بشكل مفيد • واما الموضوعات التي فوق مقدرة الطالب على تفهمها فيمكن اعطاء المثل التالي عليها : يتناول منهج السنة الرابعة الاحرف الابجدية ويشير المؤلفون الى أن الكتابة كانت تصويرية الى أن « اخترع الفينيقيون أسلوبا للكتابة خاصا بهم ، استعملوا فيه اثنين وعشرين حرفا فقط ، كل حرف منها يمثل صوتا من أصوات الكلمة لا مقطعا من مقاطعها » (١) فاسلوب الكتابة والمقطع والحرف الذي يمثل صوتا كلها مفاهيم لا يقدر الطالب أن يتصورها •

من ثم هنالك اشارات الى أماكن جغرافية كشبه جزيرة العرب والعراق واليونان ومصر وقرطاجة دون أن تكون في حالات كثيرة خارطة تشير الى هذه الاماكن • حتى وان توفرت الخارطة فالطالب لا يعد في دروس الجغرافيا لقراءة الخارطة • لذلك تبقى هذه المعلومات في ذهن الطالب آثارا سرعان ما يقضي عليها عامل النسيان •

وأما أسلوب الكتابة فهو قصصي لا يثير في الطالب رغبة الاستقصاء • والتشديد فيه على الذاكرة والحفظ • وهذا الاتجاه ظاهر كذلك في نوعية الاسئلة في اخر كل درس • ففي الجزئين الاول والثاني أسئلة للمحادثة في اخر كل درس وتدور الاسئلة حول تفهم النص فقط • وفي الجزئين الاخيرين هنالك ثلاثة أنواع من التمارين في اخر كل درس : دراسة الصور ، محادثة حول الموضوع ومقترحات عملية • فدراسة الصور تقوم على أسئلة بدائية لا تتعدى الاشارة الى محتويات الصور والمحادثة حول الموضوع تدور على فهم النصوص • وأما المقترحات العملية فتتراوح بين تحليل للنص ومقابلته بنصوص أخرى وبين مشاريع ، بعضها لا يمت بصورة عضوية الى المادة المدروسة ، والبعض الاخر يطلب وقتا لتحقيقه • وفي هذه الاثناء يكون الطالب قد انتقل الى موضوع جديد لا صلة له بالمشروع على الاطلاق • فتنمية الفكر الناقد وفن جمع المعلومات وتقصي الحقائق وتمحيصها واكتشاف المصادر وتقييمها ، وربط العوامل بعضها ببعض لاعادة خلق وضع ماض بصورة حية كل هذه أهداف لا يعيها منهج التاريخ •

---

(١) جماعة من الاساتذة ، المصور في تاريخ لبنان ، الجزء الثالث ، ص ١٩ •

قضية اللغة

الا أن مشكلة الطالب ليست محصورة بمادة التاريخ والاسلوب فبالاضافة الى هذه الصعاب هنالك قضية اللغة وكأن المؤلفين لم يخطر ببالهم انهم يكتبون لابن سبع أو ثماني أو عشر سنين ٠ فاذا ما فحصنا مستوى الكتب اللغوي نجد أنه لا انسجام بينه وبين نمو الطالب في اللغة ٠ فهنالك كثير من التعابير والتراكيب التي هي فوق مستوى الطالب ومقدرته على الفهم ٠ وعلى سبيل المثال أورد بعض هذه الامثلة من كتاب السنة الثانية الابتدائية : « لذلك انصرف اللبنانيون الى الاهتمام بالشؤون الادبية والعلمية والتجارية » ٠ « واحتفظت بيروت بمشعل العلم والثقافة وضاء سخيا » ٠ « ولكن الزلزال لم يرحم منهم غير القليل » ٠ « وقرروا الغاء حكومة القائمقاميتين ، وانشاء حكومة جديدة يرئسها متصرف غير لبناني » ٠ في هذه الامثلة الفاظ يتعلمها أطفال أعمارهم سبع سنين فضلا عن أن بعض التعابير يشير الى روح غير علمية لا يجوز أن تغرس في الاطفال ، مثل الزلزال الذي لا يرحم ٠

أما اخراج الكتب فهو ذاته في السلسلة كلها ٠ فحجم الاحرف صغير خاصة في السنوات الاولى ٠ ومما يلفت الانتباه ان حجم الحرف في التمارين أصغر بكثير من حجم الحرف في متن الفصول وكأن هذه التمارين وضعت للاستاذ ليقرأها وليس للتلميذ ٠

ملاحظات واقتراحات

بالنظر الى هذا المنهج القلق المضطرب لا بد لنا من أن نبدي بعض الملاحظات والاقتراحات لمعالجة هذا الوضع ٠ واولى هذه الملاحظات تتعلق في كيفية بناء المناهج (١) ٠ ان عملية اعداد المناهج تقوم على مفاهيم وعمليات أساسية ٠ والمفاهيم ثلاثة : أهداف وأعمال وخبرات ٠ والعمليات الاساسية ثلاثة : انتقاء وتنظيم وتقييم ٠ فالاهداف هي المرتكز الاول للمنهج وهي التي تفرض نوعية الاعمال التي تقدم للطالب كي يقوم بها ٠ فأول ما يجب أن يعنى به واضعو المناهج هو دراسة الاهداف ٠ بعد أن تحدد الاهداف يجب ترجمتها الى أعمال مفصلة دقيقة ٠ فاذا ما قام الطالب بالعمل نتجت الخبرة ٠ فوزارة التربية مدعوة اذن لتحديد أهداف التربية بصورة عامة وأهداف درس التاريخ بصورة خاصة ٠ وهذا بدوره يطلب موقفا لبنانيا صريحا تجاه هوية لبنان ٠

بعد تحديد الاهداف وترجمتها الى أعمال مفصلة ننتقي الاعمال وننظمها وفق مبادىء أصبحت في حقل التربية من المعطيات البديهية ٠ وفيما يلي بعض مبادىء الانتقاء نوردها على سبيل المثال لا الحصر ٠

---

(١) لقد استندنا في هذه الدراسة الى نظرية رالف تايلر في بناء المناهج ٠

١ ــ يجب أن يعطى الطالب لكل هدف من أهداف التربية أعمالا تفسح أمامه المجال كي ينمي السلوك المتضمن في الهدف • فاذا كان الهدف مثــلا تنمية الرغبــة في المطالعة ، وجب عندها انتقاء وضع يحث الطالــب على القراءة •

٢ ــ يجب أن يشعر الطالب بالاكتفاء اذا ما قام بالاعمال • لذلك يجب أن يعرف المعلم الكثير عن رغبات الطالب وحاجاته حتى اذا ما قدم له عملا ما وقام به شعر بالاكتفاء •

٣ ــ يجب أن تكون الاعمال بمقدور الطالب أن يقوم بها وهذا يستوجب بدء عملية التدريس من واقع الطالب •

٤ ــ هنالك أعمال مختلفة تؤدي الى تحقيق هدف واحد وأعمال متشابهة تؤدي الى أهداف مختلفة • وهذه الحقيقة تفسح مجالا واسعا أمام واضعــي المناهج لاختيار أعمال كثيرة •

٥ ــ ان العمل الواحد نفسه قد يؤدي الى نتائج مختلفة في مختلف الطلاب •

وأما تنظيم الاعمال بعد انتقائها فهو ضرورة قصوى ذلك ان لكل خبرة أثرا في حياة الانسان • ولكن الاثر الفعال العميق يقوم على العمل المنظم • اذ ان ذلــك يصل كــل خبرة بالخبرات التي سبقتها • الا ان صلــة الخبرات ببعضها تتخذ وجهتين ، الاولى هو أن تتصل الخبرات بغيرها عبر الزمن وهذا ما نسميه بالنظام العمودي والثانية هو أن تتصل الخبرات بغيرها وترتبط بعضها ببعض من حقل الى اخر وهذا ما نسميه بالنظام الافقي • فخبرة الطالب في درس التاريخ مثلا وربط ما يتعلمه في الصفين الرابع والخامس هو ما نسميه بالربط العمودي وربط التاريخ الذي يتعلمه في الصف الخامس بالجغرافيا التي يتعلمها في الصف ذاته أو غيره هو ما نسميه الربط الافقي • فعلى المناهج أن تعنى بهاتين النقطتين والا بقيت خبرات الطالب شتاتا ضارا •

والتنظيم ، عموديا كان أم أفقيا ، يجب أن يستند الى ثلاثة مبادىء : التتابع Continuity والتسلسل Sequence والتكامل Integration • وأما المبدأ الاول أي التتابع فهو يعني باقامة الصلات العمودية وهذا يستوجب تكرار السلوك عبر الزمن • وأما التسلسل فهو مرتبط بالمبدأ الاول ولكنه يؤمــن التطور والنمو بدل التكرار اذ انه يبني اللاحق على السابق ولكنه يتعمق فــي الامور • والمبدأ الاخير يعنى بالصلات الافقية ليؤمن الوحدة في الخبرة • ومن خلال هذا المفهوم للمنهج يرجى اعادة النظر في كيفية بناء منهج جديد •

الدروس الاجتماعية

بعد اعادة النظر في كيفية بناء المناهج ننتقل الى مادة المناهج • وبهــذا

الصدد وبالنظر الى وحدة الوضع الانساني الذي ينتج الخبرة نقترح الغاء مواد التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية والدين كمواد مستقلة بذاتها واستبدالها بما يمكن تسميته بالدروس الاجتماعية • ذلك ان الدروس الاجتماعية تعنى بالانسان وتفاعله ببيئتيه الاجتماعية والطبيعية • فصلة الانسان بالبيئة تشمل دروس التاريخ والجغرافيا والعلوم السياسية والاقتصاد والانتروبولوجيا وعلم الاجتماع وسائر العلوم والفنون • فربط هذه المواضيع بعضها ببعض يزود الطالب بخبرات تشمل معظم مرافق الحياة وتظهر المعنى الحقيقي لكل موضوع وتوضح المعاني الكاملة التي ينطوي عليها • واقتراحنا بدمج هذه المواد ليس غريبا على وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة لا من حيث نظرتها الى طبيعة المتعلم ولا من حيث نظرتها الى طبيعة بعض العلوم • يقول المنهج : « هذا ،ولينتبه المدرس لحقيقة أولية في التربية وهي ان شخصية التلميذ كل حي واحد ينبغي أن ينظر اليها بكاملها ووحدتها ، فتثقف على هذا الاساس ، وتكون المواد المختلفة عناصر متفاعلة متساوقة في القيام بهذا العمل » (١) • وفي مقدمة منهجي التاريخ والجغرافيا يوصي المنهج الرسمي بقوله : « وليدرك المعلم أن بين التاريخ والجغرافيا ارتباطا وثيقا يستفيد منه في احياء الحوادث التاريخية المهمة » (٢) • فارتباط الموضوعات بعضها ببعض وانعكاس هذا الارتباط على شخصية التلميذ الكلي الحي الواحد يفيد في تحقيقها دمج هذه الدروس •

وأما اقتراحنا التالي فهو ان تبدأ الدروس الاجتماعية بالحاضر منطلقة من بيئة الطالب المباشرة وتسترجع ادراج الماضي بطريقة تدريجية وفق ما يستلزم البحث • وللبدء بالحاضر والبيئة فوائد جمة منها ان هذا المنطلق الزمني والمكاني يشكل وضعا حياتيا مستمدا من واقع الطالب • لذلك فهو أقرب الى فهمه وادراكه اذ عندها تكون حياته في المدرسة جزءا لا يتجزأ من حياته العادية وتصبح التربية اذ ذاك حياة لا اعدادا للحياة • وكون المرحلة الابتدائية مرحلة نهائية لقسم كبير من الطلاب يوجب على هذه المرحلة ان تنتج متخرجين عاملين في مجتمعهم مدركين مشكلاته وامكاناته واعين لما يمكنهم القيام به • وهذا يتفق وما تهدف اليه وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة اذ تحدد في المنهج بعض أهداف التربية فتذكر : « اعداد الانسان الحق ، والمواطن البصير ، والعضو العامل في المجتمع ، اعدادا يبدو في التربية الروحية والعقلية والجسدية » (١)• فالمواطن البصير والعضو العامل في المجتمع هو من أعطي الفرصة ليحيا حياة المجتمع وهذا لا يمكن تحقيقه الا اذا كانت حياة الطالب في المدرسة جزءا من حياته العادية • من ثم البدء بالحاضر يضع الطالب في معالجة قضايا لها معنى اذ انها جزء من واقعه فلا مجال لاعمال فكره لتصورها وتخيلها • فاذا وجد الطالب معنى لما يقوم به في المدرسة أقبل على عمله بشوق ورغبة وشعر انه جزء فعال في الوضع التعليمي والمجتمع ، لا مراقب عن بعد لما يجري في الحياة وكأنه

---

(١) منهج التعليم ، ص ١٦ •

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٣ •

على هامشها · هذا من ناحية الطالب ، واما من ناحية المؤسسة فهذا الاتجاه ينقذ المؤسسة من كونها مخزنا للتراث وينقلها الى مؤسسة حية فاعلة يدفق فيها نبض الحياة ·

لبنان القرن العشرين

ولتطبيق هذا الاقتراح نشدد على أن يخصص القسم الاكبر من مواد التدريس للبنان القرن العشرين مبتدئين بسنة ١٩٧٠ على أن تقسم الدروس الى وحدات تعالج كل وحدة موضوعا معينا · والوحدات تعطى بشكل مشاريع يقوم باعدادها فريق من الطلاب · فيطرح مثلا قيد الدرس بيئة المدرسة او البيت ، فيدرس الطالب أرض المدرسة ، بناياتها ، تاريخها ، عدد طلابها ، بيئات الطلاب تنظيم المدرسة وادارتها ، مهمة كل موظف ، تعاون الموظفين ، كيفية الحصول على الكتب وسائر الادوات المدرسية · من ثم قد يرسم الطالب خارطة المدرسة الى ما هنالك من امكانات · ينتقل من بيئة المدرسة الى الحي أو القرية فيدرس أوضاع السكان ، أعمالهم ، لباسهم ، كيفية الحصول على المواد الغذائية والمياه واللباس ، كيفية المحافظة على نظافة المكان والامن فيه ، العناية الصحية ، وسائل النقل ، ادارة القرية من حيث انها تتعلق بمهمة المختار ورئيس البلدية والدرك الى ما هنالك من امكانات · أوليس هذا أجدى من حفظ صدف الميوركس والصباغ الارجواني وحكومة المتصرف والقائمقاميتين ؟ من لبنان ينتقل البحث الى الدول العربية فتدرس على الطريقة نفسها · وفي السنة الاخيرة تدرس بعض الدول غير العربية من خلال صلاتها بلبنان والعالم العربي ·

بعض المشكلات

الا ان هذا الاتجاه يجابه بعض المشكلات وهي تناسق جهود مؤسساتنا الاجتماعية واعداد المعلم · أما فيما يتعلق بتنسيق الجهود فانه من الضروري أن تبنى سياسة لبنان على بعض المبادىء والمنطلقات الواضحة الجلية بحيث لا يظهر تناقض أساسي بين المؤسسات في قضايا تتعلق ببعض الاسس التي تؤثر في هوية المواطن والقيم التي تسير حياته · فلا يجوز مثلا ، ان يكون لبنان رافعا شراع العروبة في مؤتمر الرباط ولبنان نفسه متقوقع في صدفة ميوركس في وزارة التربية · لذلك على الدولة أن تنظر الى المواطن من جميع مرافق حياته فتضع أسسا عامة لجميع أوجه السياسة وهذا يعني بالدرجة الاولى وعيا جوهريا لمسؤولية الدولة في خدمة المجتمع · من ثم ابقاء مناهج الدروس الابتدائية في سنة ١٩٧٠ على ما كانت عليه سنة ١٩٤٦ جريمة لا تغتفر · فلكي نتجنب تخلف المنهج في المستقبل كما هو حاصل الان ، نقترح أن تؤلف لجنة من الاختصاصيين في وزارة التربية مهمتها دراسة المناهج والاوضاع التربوية المختلفة على أن تعطى

هذه اللجنة سلطة بالزام الوزارة في تبني اقتراحاتها التربوية • ولكي تقوم هذه اللجنة بمهماتها خير قيام ، نقترح أن تنظم كلية التربية في الجامعة اللبنانية تنظيما يشمل أهدافها وبرامجها وأساتذتها وكامل امكاناتها على أن يضاف اليها مركز للبحوث التربوية ، تعمل اللجنة الوزارية بالتعاون مع هذا المركز •

وأما اعداد المعلم فهو قضية على أكبر جانب من الاهمية اذ ان المناهج مهما كانت متقنة وحديثة ، فهي لا تعني شيئا ان لم يكن المعلم معدا أن يقوم بدوره القيادي • فتحديث المناهج يقتضي بالضرورة تحديث المعلم • ولاعداد المعلمين اعدادا صالحا يفي بمسؤولياتهم الخطيرة ، يجب علينا منذ الان أن نخطط لاعداد المعلمين • وبما أن مسؤولية المعلم الابتدائي في نظرنا تفوق مسؤولية المعلم الثانوي ، علينا الا نكتفي بثقافة ثانوية للمعلم الابتدائي • فالوقت قد حان ليصبح معلمو الابتدائيات خريجي جامعات • ففي ضوء هذا الهدف نقترح ان تلغى جميع دور المعلمين الابتدائية وتحول ميزانياتها الى كلية التربية في الجامعة اللبنانية على أن تخصص الكلية فرعا للتربية الابتدائية •

واخر نقطة أود أن أشير اليها تتعلق بسني الدراسة الابتدائية • ان المرحلة الابتدائية مرحلة نهائية لعدد كبير من أبنائنا • وعمر المنتهي عشر سنين• فخدمة لهؤلاء الاحداث الذين لا تمكنهم أوضاعهم من أن يتابعوا دروسهم نقترح رفع سني الدراسة الابتدائية الى ست سنوات بدل الخمس وجعل المرحلة المتوسطة ثلاث سنين بدل الاربع •

لقد أظهرت دراستنا هذه على أن منهج الدروس الابتدائية في لبنان متخلف من حيث الزمن ربع قرن • وهذا أمر لا يجوز أن يحدث أصلا في أوضاع اعتيادية ، فكيف به اذا استمر في ظروف خطيرة كالتي نحياها اليوم •فالتحديات التي نجابهها من تفكك اجتماعي وسياسي وانحلال خلقي وتخلف فكري ومن قوى حضارية تتربص بنا لتزيلنا من الوجود ، هذه التحديات لا يمكننا أن نستجيب لها بصورة فعالة ما لم نتمكن من خلق جيل متفتح العقل ، نير البصيرة ، مرهف الحس في تحمل كامل مسؤولياته مستعد أن يحقق بالفعل كل طاقاته الكامنة فيه • وهذا الجيل تقع على المدرسة مسؤولية خلقه • وبما ان المناهج من قوام المدرسة ، فعلى القيمين على المناهج أن يبعثوها دوما حية لكي تفعل في الاحياء •

فؤاد سعيد حداد
(بيروت)

المراجـع

المراجع العربيــة

١ ــ الجمهورية اللبنانية ، وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة • المنهج الرسمي • بيروت : مطبعة جوزيف صيقلي ، لا تاريخ •

٢ ــ جماعة من الاساتذة • المصور في تاريخ لبنان • أربعة أجزاء • بيروت : مطابع دار العلم للملايين ، الجزآن الاولان ١٩٦٧ والثانيان ١٩٦٩ •

٣ ــ ابن خلدون • المقدمة • المطبعة الادبية في بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٠٠

المراجـع الاجنبية

1) Phenix, Philip. Philosophy of Education. New York : Holt, Rinehart and Winston, 1961,

2) The Realms of Meaning. New York : McGrow - Hill BooK Company, 1964.

3) Johnson, Henry. Toaching of History, New YorK : The Macmillan Company, 1949.

4) Michaelis, John. Social Studies for Children in a Democracy. New YorK : Prentice - Hall, In, 1955

5) Adams, Mary and Laesley, Edgar Bruce. Teaching Social Studies in Elementary Schools. Boston , W. C. Heath and Company, 1946.

6) National Counnil for The Social Studies, Skill Development in Social Studies, ed. Helen McCracken Cargenter, 33 Year Book, 1963.

7) Tyler, Ralph, W. Basic Principles of Curriculum and Instruction. Chicago : The University of Chicago Press, 1961.

8) Stratemeyer, Florence, ForKner L. Hamden, McKim G. Margaret, Passaw,A. Harry. Developing a Curriculum for Modern Living. New York : Bureau of Publications, Teachers College, Colombia University, 1963.

9) King, Jr. Arthur R., Brownell, Jhon A. The Curriculum and the Disciplines of Knowledge. New York : John Wiley and Sons, Inc. 1966.

جورج قرم

الواقع والخرافة

تميز لبنان ، خلال سنة ١٩٦٧ ، بنقد ذاتي شديد وباعادة نظر جذرية ، لم نشهد أشد منهما في بقية الاقطار العربية ، وهذا بالرغم من أن لبنان لم يتأثر مباشرة بحرب الايام الستة بالنسبة الى الاقطار العربية الاخرى المجاورة لاسرائيل ٠ ويمكن تفسير هذه الظاهرة بطرق مختلفة ، سنحاول تحديدها في نهاية مقالنا هذا الذي يريد ، من خلال تيارات اعادة النظر في الاوضاع العربية الناتجة عن حوادث حزيران ٦٧ أن يحلل بعض أساطيرنا « الوطنية » ٠

اذا كنا نصر هنا على وضع كلمة الوطنية بين هلالين ، فلان ذلك يرجع أولا الى أن صفة الوطنية لا تنطبق بحسب رأينا ، على الاساطير اللبنانية السائدة نظرا للغموض الشديد الذي يحيط بالمفهوم الوطني ذاته ضمن الاطار اللبناني ٠ وهذا الغموض لا يختص بلبنان وحده ، فاننا نجده ، مثلا ، يختص كذلك بمصر (مع العلم ان الاطار المصري أقل التباسا واصطناعا من الاطار اللبناني المتميز بالاعتبارات الاجتماعية ــ الطائفية) ، وعلى كل حال فان هذا الغموض يختص بمفهوم القومية العربية ذاتها ، وذلك ليس على صعيد عدم التفريق بين الدين والقومية ، كما تدعي نظريات المستشرقين السائدة ومعهم بعض العرب من غير المسلمين ، بل على صعيد التناقضات بين آمال القومية العربية من جهة وواقع الخصوصيات الاقليمية والمحلية من جهة أخرى ، التي توطدها المصالح الاقتصادية الخاصة بكل قطر عربي والناتجة عن واقع التقسيم والسيطرة ، الاستعماري الذي يخضع له العالم العربي حتى اليوم ، والذي يسبب الصراعات العنيفة بين « النخب » الحاكمة في مختلف البلدان العربية ٠

الواقع أنه لا يمكن فهم أساطير « الوطنية » اللبنانية خارج اطار الغموض الذي يحيط بمفهوم القومية العربية ذاتها ، فهي جزء منها ، أو نابعة عنها ، وهي في الوقت نفسه تزيدها غموضا ، ذلك ان تلك الاساطير قد نشأت وما تزال تمتد كردة فعل ضد الاسطورة التي اختلقها الكثير من اللبنانيين حول مفهوم

القومية العربية وهذه الاسطورة اللبنانية عن « العروبة » اختلقها اللبنانيون بغية تبرير امتداد اسطورة « اللبنانية » التي ليست الا قناع حياء يلقى على فضيحة الوضع الاجتماعي ــ الطائفي الموروث من السيطرة الاستعمارية والذي يتناسب مع الكثير من اللبنانيين « الصميميين » ٠

هنا نلمس الصعوبات الكامنة في تحليل عميق ودقيق لاساطيرنا « الوطنية » لا يمكن فصله عن معرفة شاملة لعدد ضخم من المعطيات وتفاعلها ، بعضها مع البعض الاخر ولا تمكن ، بطبيعة الحال ، معالجة هذا الموضوع معالجة جذرية في اطار هذا المقال المحدود ، بل على العكس سيتحتم علينا الاستغناء عن الكثير من التفاصيل التي لا غنى عنها في مثل هذا التحليل حتى نتمكن ، بصورة أولية من ابراز المعطيات الجوهرية والاساسية التي تستند عليها أساطيرنا اللبنانية ٠ وقد تبدو هذه التأملات كاريكاتورية وعنيفة في آن غير اننا نعتقد انها ايجابية وضرورية اذا أراد اللبنانيون ان يعوا آليات جمود الاوضاع اللبنانية ٠

اسطورة لبنان مفترق ، ملتقى ، مدار ، جسر ...

ليس من الصدفة أن تكون هذه الاسطورة « الكليشيه » الاكثر استعمالا لدى الرحالة والباحثين الغربيين عندما يصفون لبنان ، ان المعطيات شبه العلمية التي يستند اليها الذين يشيعون هذه الاسطورة هي التالية :

١ ــ الوضع الجغرافي للبلاد :

أ ــ على طرف الصحراء (الشرق) تواجه أوروبا على امتداد شاطئها البحري (الغرب) ٠

ب ــ فيها سهلان أحدهما داخلي ، والاخر ساحلي ، يجعلان منها مركزا للفتوحات من الغرب ومن الشرق ٠

٢ ــ التركيب الطائفي للبلاد :

يفترض ان الطوائف المسيحية هي جسر لنقل القيم « الغربية » ٠ أما الطوائف المحمدية فجسر لنقل القيم « الشرقية » ٠

٣ ــ الهجرة وقابلية اللبناني للعلاقات التجارية :

ويفترض انها ترجع الى الاصل الفينيقي للبلاد (ومن خلال هذا يمكن ربط هذه الاسطورة مباشرة باسطورة « اللبنانية ») ٠

ان المعطيات الحقيقية التي كانت أساسا لبروز هذه الاسطورة هي في الدرجة الاولى معطيات اجتماعية ــ اقتصادية ، اذ ترجع الى ربط لبنان بشبكة المواصلات القوية للاستعمار التجاري الذي مارسته الدول الغربية على الشرق

منذ القرن السابع عشر • لذلك لا يجوز أن نتعجب من أن بورجوازية الاعمال المسيحية هي التي طورت ، بشكل خاص ، هذه الاسطورة وكان ميشال شيحا ، أبرز ممثليها• وبالفعل فان التمركز الكثيف للطوائف المسيحية في جبل لبنان قد أثار منذ القرن السابع عشر اهتمام ورعاية الدول الغربية التي رأت فيها نقطة ارتكاز وانطلاق للتوغل في الاقطار العربية ، لم يكن منه بد لضمان السيطرة على الهند وطريق الهند •

ان صورة « الجسر والمفترق » تعبر أدق تعبير عن الوضع الاقتصادي للطبقة البورجوازية اللبنانية التي حصلت على ثروتها من خلال دورها كوسيط أو بتعبير أدق كعجلة توغل للرساميل الغربية الكبيرة في الدول الغربية • ويقتضي استمرار هذا الوضع المربح اقتصاديا أن يكون لبنان قادرا على أن يحتفظ بعلاقات جيدة مع العالم الغربي والعربي في آن واحد ، ليس لان بعض اللبنانيين قد حصلوا على أموالهم من جراء عملهم كوكلاء للشركات الصناعية والتجارية والمالية الغربية الكبرى وحسب ، بل كذلك ، لان لبنان بحالة تبعية تامة للوجود غير المقيد للمصالح الغربية في البلاد بالنسبة الى أهم عناصر قطاع الخدمات في الاقتصاد اللبناني (تعليم ـ صحة ـ مال ـ لهو ••) ، وهو قطاع يجعل من بيروت القطب الاقتصادي الاكبر في المنطقة العربية ، وبفضله يتمكن لبنان من تسديد العجز الهائل في ميزانه التجاري • لذلك يتعرض هذا النظام الاقتصادي ، الذي تستفيد منه البورجوازية اللبنانية ، الى الخطر الجسيم سواء خرج لبنان من فلك المصالح الغربية الدولية ، أو انفصل عن العالم العربي • في هذا المضمار يمكن بكل سهولة تفسير المعطيات الاقتصادية التي أدت الى نشوء عقيدة « الميثاق الوطني » ، التي صاغها الدستور الذي كان أبرز أعضائه ينتمون الى بورجوازية الاعمال • ومما لا شك فيه ان الازمات ـ من طراز أزمة ١٩٦٧ ـ تثير صعوبات كثيرة أمام البهلوانية السياسية اللبنانية التي تسعى للمحافظة على علاقات جيدة مع الدول الاستعمارية الكبرى المساندة لاسرائيل والمحافظة ، في الوقت نفسه على الوفاء بالتزامات « التضامن العربي » : ليته كان للبنان ، على الاقل ، ثروة نفطية تسمح له بابتياع شهادة « العروبة » بالمشاركة في صندوق الخرطوم •

ان صورة لبنان « الملتقى » التي كانت في البدء اسطورة لبنانية تختص أساسا بالطوائف المسيحية أخذت تستميل أكثر فأكثر البورجوازية الاسلامية ، اطرادا مع نجاح هذه البورجوازية في أن تتسجل الى جانب البورجوازية المسيحية في لائحة « الوسطاء المقبولين » لدى المصالح الغربية الكبرى • ولم تعد هذه البورجوازية تتردد ، كما كان الامر قبل الاستقلال ، في تذكر الاصل الفينيقي للبنانيين عندما تفسر ضخامة قطاع الخدمات والدور التجاري للاقتصاد اللبناني وضرورة انفتاح البلاد على الغرب •

والجدير بالملاحظة ان هذه الاسطورة لا تكبل لبنان وحسب اذ نجدها أنى نجح الاستعمار في تكريس نفوذه للانطلاق في دائرة جغرافية أوسع •

كذلك رأى بعض المثقفين المصريين ان مصر هي الملتقى الصحيح للشرق والغرب (وهذه النظرية أصح بكثير ، على الاقل جغرافيا ، بالنسبة الى مصر مما هي بالنسبة الى لبنان) واسرائيل ترى كذلك نفسها في هذا الوضع وتنادي بحرارة لاعادة « السلام » حتى تتمكن من اداء مهمتها الحقيقية « كهمزة وصل وكجسر » بين الشرق والغرب • حتى جزيرة موريتسميوس ile Maurice يلصق بها هذا الدور • هكذا قالت جريدة (لوموند) التي خصصت ملحقا خاصا لهذه الجزيرة بتاريخ ١٤ اذار ١٩٧٠ وصفت فيه الجزيرة « كنقطة التقاء بين الشرق والغرب » حيث « لا يتواجد الشرق والغرب جنبا الى جنب كما تواجدا في أماكن أخرى فحسب ، بل حيث تنصهر المدنيات كذلك في مزيج خصب » ، ولا عجب اذا قرأنا في الملحق نفسه عن تلك الجزيرة التي تنافس لبنان انها لعبت في الماضي دور « نقطة الانطلاق للملاحين الغربيين في مغامراتهم الاستعمارية » •

ولاسطورة « الملتقى » عواقب سياسية خطيرة بطبيعة الحال ، أولها الجمود السياسي في المجال الاقليمي والدولي • ومن جهة أخرى ، يؤدي الايمان بهذه الاسطورة كذلك الى المحافظة في السياسة الداخلية التي يعبر عنها بالليبرالية الاقتصادية ، وما هذه في الحقيقة الا نظام حماية المصالح المكتسبة للبورجوازية المحلية وللمصالح الغربية التي يرتبط ازدهار الاولى بها • ويقتضي هذا النظام حماية وتقوية البنية الطائفية التي تؤمن الحفاظ على البيئة السوسيولوجية وهي تلعب دور الديكور المزيف الذي لا بد منه كعامل شبه علمي في تكوين الاسطورة• غير أن الاسطورة الثانية تأتي هنا كرديف وهي اسطورة « الطابع الخاص والفرادة » التي تؤدي وظيفة حيوية في الحفاظ على النظام العقائدي للطبقة الحاكمة ، خاصة لانها ترتكز على آليات نفسانية ـ اجتماعية عميقة لدى بعض الفئات من السكان •

اسطورة « الطابع الخاص والفرادة »

ان جذور هذه الاسطورة عميقة جدا في النفسانية الجماعية للطوائف المسيحية في لبنان : وفي هذا المضمار تؤدي وظيفة الحماية الذاتية ضد القوى والضغوط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تهدف ، في أي مجتمع وبصورة طبيعية ، الى دمج الاقليات • بيد أن هذه الاسطورة تستعمل كسلاح في أيدي قوى المحافظة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمحافظة على الاوضاع القائمة اذ يفترض انه لا يمكن لاي نظام سياسي أو اقتصادي يختلف عن النظام القائم ، أن يتكيف والخصوصيات الحادة التي توصف بها البلاد •

وتشبه معطيات الاسطورة هذه معطيات اسطورة « لبنان الملتقى » ، غير أن البنية الطائفية للبلاد تلعب هنا دور الصدارة في الحجة ، ذلك ان الطوائف

المسيحية اللبنانية تتحسس هذه البنية من خلال رؤية تاريخية خاصة متأثرة ، الى درجة كبيرة ، بالنفسانية الجماعية الناتجة عن وضع تلك الطوائف كأقلية ضمن المجتمع العربي الاسلامي الذي يحيط بها : وهذه **الرؤيا** تنظم كل شيء « للدفاع دون هوادة » بغية المحافظة على كيانها سالما ، ضد ضغوط طوائف الاغلبية والطوائف المنتمية اليها • في هذه الرؤيا يتلخص تاريخ لبنان في جهود الطوائف المسيحية ، وبخاصة الطائفة المارونية ، لانقاذ استقلال جبل لبنان تجاه تسلط الحكم المركزي الاسلامي (الاموي ، العباسي ، المملوكي ، التركي ، والعثماني) الذي كان يتمتع بمساعدة السكان المحليين من غير المسيحيين ، ويتم الحصول على هذا الاستقلال ، في النهاية ، بطريقة عنترية ومأساوية بعد الحوادث الدامية سنة ١٨٤٠ و ١٨٦٠ بفضل تدخل الدول الغربية الكبيرة ، « الحامية » تاريخيا للطوائف المسيحيــة في الشرق • وهذه الرؤيا المانويـــة والمؤسطرة Mythisée للتاريخ اللبناني التي تمتد جذورها بلا شك الى الدفاع العقائدي عن حرمة الكيان الطائفي مخالفة لواقع الاحداث وان تكن لدى الكثير من الضمائر الفردية ، تطابق مستوى الوعي في حياتهم اليومية • انها لا تأخذ بعين الاعتبار أيا من المعطيات الاجتماعية ــ الاقتصادية سواء على صعيد الحقائق الموضوعية ، أو على صعيد الحقائق التي يعيشها الانسان ، وهي معطيات من شأنها أن توفر فهما أصح• ليس للحوادث التاريخية بذاتها وحسب، بل كذلك للدفاع العقائدي المتجسد في تكوين اسطورة « الطابع الخاص » •

ان التمركز الكثيف للطوائف المسيحية في جبل لبنان ، كما ذكرنا آنفا ، قد أثار انتباه ورعاية الدول الكبرى منذ بداية التوسع الاستعماري الغربي • وهذه الظاهرة تفاقمت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وتوجت بالتوغل الثقافي الذي سهل تطوير شبكة الوكلاء التجاريين والسياسيين المحليين للمصالح الغربية • وبما أن تلك الظاهرة قد انحصرت بالطوائف المسيحية فقد أدت في الحقيقة الى كسر حالة التمازج الاقتصادي ــ الاجتماعي والثقافي ، التي كانت سائدة في جبل لبنان بين الطائفتين الدرزية والمارونية ، والتي كانت تتماسك بسبب النظام الطائفي في الجبل ، وذلك لصالح الطائفة المارونية • أما النظام الاقطاعي فقد كان يتطور شيئا فشيئا بصورة طبيعية نحو الملكية المركزية شأنه في ذلك شأن جميع الانظمة الاقطاعية (صراع الامير بشير شهاب مع الامير بشير جنبلاط) لكن الدول المستعمرة ، وبخاصة فرنسا وبريطانيا استغلت من خلال التنافس ، التعدد الطائفي في البلاد، وحولت التناقضات الاجتماعية ــ السياسية لطوائف جبل لبنان الى حروب داخلية ذات طابع ديني ، والنتيجة الحتمية كانت اجهاض جميع التململات السياسية والاجتماعية العميقة التي كانت تختمر داخل جبل لبنان الاقطاعي (منها ثورة فلاحي كسروان ١٨٥٨ التي يميل التاريخ اللبناني الى تناسيها) • والجدير بالذكر ان النظام الاقطاعي اللبناني كان ، حتى سنة ١٨٤٠ أقل تأثرا من أي نظام عربي اخر بالنظام الطائفي المفروض من قبل الحكم المركزي الاسلامي ، والذي كان عاملا للجمود والتقهقر (نظام الملل في الامبراطورية العثمانية) • بل نعرف جيدا أن النظام ، الذي قام بعــد

الحوادث الدامية سنة ١٨٤٠ و ١٨٦٠ والذي أدى الى تقوية وصاية الدول المستعمرة على جبل لبنان الى جانب الوصاية التركية ، هو الذي وسع مجال الانظمة الطائفية وكرسها هادفا بذلك الى تكريس انفساخ حالة التمازج الماروني ـ الدرزي في الجبل .

بدءا من هذا ، وقد أصبحت البلاد العوبة في أيدي الدول الكبرى ، أخذت الطوائف المسيحية تكون رؤية خاصة بها ومؤسطرة لماضيها ، ولمستقبلها التاريخي ، وذلك تحت تأثير انغلاق تلك الطوائف في غلها الطائفي حيث يسيطر النفوذ الغربي من خلال شبكة مهمة من المدارس . وقد ساعد هذا ، الى حد كبير ، التحسن النسبي في أوضاع هذه الطوائف ، الاقتصادية والاجتماعية ـ الثقافية الراجع الى وجود المصالح الغربية . وقد بلغ هذا التطور حده الاقصى ، خلال الانتداب الفرنسي ، مع بروز اسطورة « الاصل الفينيقي » التي سعت الى التبرير العقائدي للميول الانفصالية والانعزالية .

انطلاقا من هذه المعطيات المقتضبة يمكن تفسير بعض التصرفات المرتبطة بأسطورة الطابع الخاص ، وبخاصة في الميدان السياسي : التحفظ الاقتصادي والسياسي ، المحافظة على البنية الطائفية ، المحافظة على روابط وثيقة مع الدول الغربية الكبيرة والشعور بأن أي تغير سياسي أو اجتماعي ، محلي أو اقليمي قد يهدد النظام القائم ، خطر على سلامة الكيان الطائفي . وبالفعل نرى منذ النصف الثاني للقرن الماضي ، أن البلوتوقراطية Ploutocratie المسيحية الاقطاعية والطائفية والادارة لجبل لبنان ، التي ما تزال تحكم البلاد حتى اليوم ، تسعى جاهدة الى تقوية هياكل البلاد الطائفية التي تيسر استمرار « الحماية » الغربية وبالتالي سيطرة هذه البلوتوقراطية ، وذلك لانها وعت ان ازدهار أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية يرجع في مغظمه الى ارتقائها في الثقافة الغربية والى توسع المصالح الغربية في البلاد بآن واحد . في هذا المضمار تؤدي أية محاولة في تغيير الاوضاع القائمة الى تحريك جميع أساليب اثارة النعرات الدينية في البلاد باسم المحافظة على المسيحية . ولا نجد على الاطلاق في العالم الثقافي والعقائدي الذي تفرضه بلوتوقراطية الطوائف المسيحية على رعاياها أية اشارة الى الخطر الاستعماري ، انما الخطر هو دائما واحد ، سواء كان شريفيا أو قوميا سوريا ، أو ناصريا أو شيوعيا أو كما أصبح اليوم بعثيا أو فلسطينيا . ذلك لان الاستعمار لم ينظر اليه كحقيقة واقعية ولا يمكن أن يكون محسوسا بمفهومه الصحيح ، بسبب أن « الامراء الطائفيين » قد ارتقوا الى وضعهم المتميز ومـا يزالون يتمتعون بـه حتى اليـوم من خـلال بـروز النفـوذ الاستعمـاري في المنطقة (١) . ولتستير هذه العلاقة نشهد اللجوء الى الانتماء الطائفي كسبب

(١) لا عجب في مثل هذه الظروف أن تصبح حوادث ١٨٤٠ و ١٨٦٠ تحت أقلام المؤرخين اللبنانيين المسيحيين الرسميين المعالم الاولى « للانعتاق » و « والاستقلال الذاتي » اللبناني بينما هذه الحوادث تؤكد في الواقع سقوط الامارة اللبنانية وخضوعها للرقابة الاستعمارية الغربية الى جانب الرقابة التركية القديمة .

لتبرير جميع « الخصوصيات » والاوضاع الشاذة • وما أوضح هذا النوع من الدفاع عن أوضاع اجتماعية واقتصادية متميزة تحت ستار الدفاع عن سلامة الكيان الطائفي عندما ندرس موقف الاحزاب المسيحية اليمينية من التيارات العقائدية التي تجتاح العالم العربي • هكذا نرى مثلا أن تيار التضامن الاسلامي الذي تحمل رايته المملكة العربية السعودية منذ عدة سنوات يتمتع بالتأييد الفعلي بدلا من اثارة الخوف في أوساط اليمين المسيحي ، ويصبح واضحا أن سبب هذا الموقف يكمن في كون التيار المذكور ، تسانده وتموله الولايات المتحدة التي تستغل الاقطاعيين الرجعيين في المنطقة لمكافحة الطموح القومي والاشتراكي للشعوب العربية • مقابل ذلك فان التيارات العربية التي تتجاوب وهذا الطموح تصطدم بعداء عنيف من اليمين المسيحي (الناصرية في الماضي ، البعثية اليوم ، والتيارات المتمثلة في بعض مجموعات المقاومة الفلسطينية) ويظهر هذا العداء بصورة علنية تحت ستار مقاومة « الاستعمار والتخريب الدولي الشيوعي » وخفية في الاحاديث الخاصة تحت ستار الدفاع عن المسيحية التي يهددها الاسلام الوحدوي المتعصب الذي يتستر تحت الطموح القومي والاشتراكي العربي •

وأخيرا نلاحظ كما رأينا سابقا في « أسطورة المفترق » ان البلوتوقراطية الاسلامية الاقطاعية والدينية والسياسية والاقتصادية ، تصبح يوما فيوما أكثر انفتاحا تجاه مفاتن الاسطورة ، فاندماجها النامي منذ ١٩٤٣ في مراكز الربح والسيطرة داخل البلاد يجعلها تعترف « أخيرا » « بحسنات » الطابع الخاص اللبناني ، وتنجذب أكثر فأكثر نحو هذا الموقف لانها تخشى الضغط الاجتماعي ـ الاقتصادي والسياسي للبورجوازية الاسلامية اللبنانية الصغيرة المندفعة تحت تأثير ما يجري في الاقطار العربية الاخرى • هكذا شاهدنا ان موجة التعصب الوطني المعادي لسوريا وللبعث والتي اجتاحت لبنان تعزى بالمقدار نفسه الى وسائل الاعلام التابعة للطائفتين • أضف الى ذلك ان البلوتوقراطية الاسلامية ترى أكثر فأكثر ضمان مصلحتها في المحافظة على الهياكل الطائفية ، فقد تعلمت جيدا بدورها استعمال هذه الركيزة لحماية مصالحها المختلفة المكتسبة •

«اللبنانية»

هذا المفهوم الناتج عن تركيب الاساطير الاخرى بعضها مع البعض الاخر (الفينيقية ـ المفترق ـ الطابع الخاص) هو السلاح العقائدي الحاسم ، اذ يهدف الى الخلط التام بين الوطنية بمفهوم التعلق بالارض والدفاع عن المصالح المكتسبة أي التعلق بالنظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والطائفي اللبناني ، كما صاغته حوادث ١٨٤٠ و ١٨٦٠ و ١٩١٩ و ١٩٤٣ • وعلى الصعيد العقائدي يمكن تحديد اللبناني بالمواطن الذي يؤمن بالفينيقية أو بالمفترق أو بالطابع الخاص ، الخ • فكتب الادب والتاريخ المدرسية في المدارس الطائفية المسيحية كلها مطهرة بعناية فائقة من كل ما يمكن أن يناقض هذه الاساطير خاصة في

تراث كبار أدباء النهضة العربية من المسيحيين ، وذلك لتفويت فرصة التخلص من الحتمية الطائفية السياسية أمام الجيل الصاعد والتي يسعى النظام التعليمي الطائفي الى اخضاعها له ·

ان مقاييس « اللبنانية » تجعل من كل شخص لا يؤمن بالاصل الفينيقي وبالنظام السياسي الحالي وبضرورة المحافظة على روابط خاصة مع الغرب ، أو من كل شخص متعاطف مع تيارات القومية والاشتراكية العربية ، تجعله خائنا للوطن ، وعميلا « للتخريب الشيوعي الدولي » ولا تعترف بمواطنيته · ذلك ان الدفاع عن لبنان ينحصر في الدفاع عن هيكل عقائدي وسياسي وثقافي واجتماعي · والجدير بالملاحظة ان حاملي راية اللبنانية هم انهزاميون في الدرجة الاولى ، وبالتالي معادون للوطنية كلما اقتضى الامر تأمين الوسائل الصحيحة لحماية الاراضي اللبنانية وسلامة الشعب اللبناني ضد جميع الانتهاكات والتعديات التي يتعرض اليها هذا الشعب منذ أكثر من مئة سنة ، اذ نراهم لا يؤمنون بضرورة الدفاع عن الوطن ولا بقابلية البلاد على الدفاع فيرفضون الخدمة العسكرية الاجبارية كما يرفضون التعليم العلماني والجامعة الوطنية والعدالة الاجتماعية ، الخ · وفي جميع هذه الحقول يتذرعون بالاف الذرائع ويعتقدون ان دول الغرب ، وحديثا الامم المتحدة ، يمكن أن تزود البلاد في ميدان الدفاع كما في ميدان الانماء بكل ما تحتاج اليه بطريقة أجدى من أي مصدر اخر ابتداء ، بطبيعة الحال ، من الاعتماد على اللبنانيين ذاتهم ، وهنا نرى كيف تتحول هذه الوطنية المستبسلة الى مدرسة للتنحي القومي ، والانهزامية ومعها جميع الاساطير التي تستغلها وتغذيها من خلال النظام الطائفي ·

لا عجب بعد هذا العرض أن نرى لبنان يشهد لحسن الحظ بعد حزيران ٦٧ حركة أوسع مما جرى في أي بلد اخر في اعادة النظر بالاوضاع القائمة · ولا شك ان الطريق لا يزال طويلا ، وأن المطلوب من اللبنانيين المثقفين المضي الى أبعد من ذلك بكثير · ان أزمة الضمير لديهم ما تزال الى درجة كبيرة تتركز لبنانيا ، فان فضح الالتباسات اللبنانية لن يأخذ حجمه الحقيقي الا بفضح الالتباسات في الوعي القومي العربي ذاته اذ لم تكن أساطير القومية اللبنانية الا انعكاسا سلبيا في الكثير من أوجهها · ومهما كان الامر فان لبنان الاصيل لن ينبعث الى الوجود الا بهدم تلك الاساطير · ولتحقيق ذلك لا مفر من الصراع العقائدي ، وفي الوقت ذاته من الصراع لاجل تغيير المعطيات الموضوعية التي تشجع بلورة وترسيخ الاساطير التي استعرضناها وحللناها · وقد يرى الكثيرون ، وهم أحرار في ذلك في هذا النوع من التحليل مظهرا جديدا لمظاهر اليسارية الجديدة الهدامة ، لكنهم لا يرون انهم بذلك يأتون بأسطورة جديدة لتجنب مجابهة الواقع ·

جورج قرم (بيروت)

(كتبت المقالة بالفرنسية ، ونقلها الى العربية الكاتب نفسه بالتعاون مع وديع سعاده) ·

وثائق

الدريدج كليفر

في ايديولوجية حزب الفهود السود

ان ايديولوجية حزب الفهود السود هي التجــربة التاريخية للشعب الاسود والحكمة التي كسبها الشعب الاسود خلال نضال أربعة قرون ضد نظام الاضطهاد العنصري والاستغلال الاقتصادي في بابل* ، كما أخرجهما لنـا من خلال الماركسية اللينينية وزير دفاعنا هـ٠ ب٠ نيوتون Huey. P. Newton

وعلينا أن نشدد كثيرا على الفقرة الاخيرة من هذا التحديد : « كما أخرجهما ٠٠ وزير دفاعنا ٠٠٠ » لان عالم الماركسية اللينينية قد أصبح غابة من الاراء حيث الاجتهادات المتناقضة المتراوحة من التحريفية اليمينية الى المذهبية اليسارية ، تحاول أن تجعل من فلسفاتها الرجعية العمياء ماركسية لينينية ثورية ٠ ان في العالم أجمع وفي جميع البلدان أشخاصا يدعون الماركسية اللينينية يقتتلـون بوحشية ٠ ان وضعا كهذا يطرح بالنسبة الى حزبنا مسائل جدية خاصة واننا ما نزال في طور اعداد الايديولوجية ٠

عندما نعلن اننا ماركسيون لينينيون فذلك يعني اننا درسنا وفهمنـا المبادىء الاساسية للاشتراكية العلمية واننا أخذنا هذه المبادىء وكيفناها مـع وضعنا الخاص ٠ على أننا لا نواجه الافكار الجديدة والاعلام بعقل مغلق علما اننا نعتبر انه لا بد لنا من الاتكال على أدمغتنـا الخاصة لحل جميـع المسائل الايديولوجية المتعلقة بنا ٠

---

* بابل تعبير يستعمله الدريدج كليفر مع اليسار الاميركي للدلالة على الولايات المتحدة اذ ان بابل هي رمز الانحطاط والتعفن في العهد القديم ٠

لقد انقضى زمن طويل اعتمد فيه الشعب الاسود على التحليلات والتطلعات الايديولوجية لدى الغير • أما الان فقد وصل نضالنا الى نقطة تعتبر فيها تبعيتنا في هذا المجال بمثابة الانتحار • ليس في العالم من هو في وضع مماثل لوضعنا كما ليس في العالم من يستطيع اخراجنا من حيث نحن الا نحن أنفسنا • هنالك اناس على استعداد دائم ليفكروا عنا حتى ولو كنا نحن الذين يموتون من أجل ذلك ولكن ليس في العالم من هم على استعداد للموت نيابة عنا • فان كان علينا اذن ان نموت في سبيل أفكار فلتكن على الاقل أفكارنا نحن • بهذا نكون قد تخلصنا وبصورة نهائية من هذه العبودية التي تدفعنا الى الموت في سبيل جميع القضايا وجميع الاخطاء ، ما عدا قضايانا واخطاءنا •

ومن الاشياء الاساسية التي أعطاها **هيو** نيوتون انه زود حزب الفهود السود بأسس ايديولوجية متينة تحررنا من التبعية الايديولوجية وتفتح لنا طريق المستقبل الذي علينا أن نجد له صيغا ايديولوجية جديدة ، متجاوبين بذلك مع أوضاعنا المتغيرة أبدا • ان معظم تعاليم **هيو** نيوتون ما تزال مجهولة من الشعب ، لانه قد استحال على **هيو** أن يتصل بنا كما أن الكثير من أفكاره التي علمها قبل سجنه قد شوه ، أنقص لان حزب الفهود السود قد غرق في مشكلاته مع المحاكم وفي جهوده لديها لكي يسهل لمحاميه مهامهم في اقناع المحلفين بعدالة قضيتنا • ان هذه الملاحقات القضائية قد أغرقتنا في كثير من الغموض • لذا فالعديدون من الناس يخلطون بين حزب الفهود السود وحركة « حرروا هيو » أو بينه وبين العديد من الحملات الجماهيرية التي اضطررنا الى تنظيمها لدعم رفاقنا الذين سجنهم رجال الشرطة (١) ببعض التأييد الجماهيري • لقد كنا على حق في تنظيم هذه الحملات الجماهيرية لكننا لم نكن على حق في خلطنا بين خط الحزب وهذه الحملات الجماهيرية •

ان أهم ما أعطاه **هيو** انه زودنا بايديولوجية ومنهجية سمحت لنا بتنظيم الحثالة البروليتارية Lumpen - Prolétariat السوداء في المدن • لقد حول **هيو** ، مزودا بهذه التطلعات الايديولوجية وبهذا المنهج ، الحثالة البروليتارية السوداء ، هذا الشعب المنسي في أعماق المجتمع ، الى طليعة بروليتارية •

ان كثيرا من الغموض يشوب مسألة ما اذا كنا ننتمي الى الطبقة العمالية أم الى الحثالة البروليتارية • ومن الضروري عدم توضيح هذا الغموض لانه بالنسبة الى العديدين ، من ضمن الستراتيجية والتكتيك الذي نعتمده ، ولانه ايضا في أساس علاقاتنا الصعبة بالاصلاحيين البيض الذين هم من طبقة المضطهدين في بابل •

ان بعض أدعياء الماركسية اللينينية ينتقدوننا في هذا القول وهذا شيء حسن لان بعض الناس من الذين يتلبسون بالماركسية اللينينية هم في الواقع أعداء ألداء للشعب الاسود • ولنا عودة اليهم في ما بعد • فنحن نريد أن نراهم

(١) في سياق هذا البحث سوف نستعمل كلمة خنزير للدلالة على رجال الشرطة وهو تعبير وضعه هيو لاظهار طبيعتهم الحقيرة •

يستمرون في طريقهم هذا لان حماقتهم العنصرية تعمي بصائرهم ولان استمرارهم يسهل علينا أمر تسديد حساباتهم في المستقبل ٠

اننا نصوغ بروح أخوية انتقاداتنا على الطريقة التي يطبق فيها بعض الماركسيين اللينينيين المبادىء الماركسية اللينينية الاساسية على الوضع الخاص في الولايات المتحدة ، لاننا مقتنعون بضرورة حركة ثورية موحدة في الولايات المتحدة ، حركة توجهها مبادىء الاشتراكية العلمية الثورية ٠ يقول هيو نيوتن : « السلطة هي امكانية تحديد حدث ما وتحويله بالعمل وفقا لرغباتنا » ٠ ونحن بحاجة الى سلطة لأننا بحاجة ملحة الى مجابهة سلطة رجال الشرطة الذين يضطهدوننا بقسوة ٠

الايديولوجية هي تحديد وضع معطى من مختلف جوانبه يأخذ بعين الاعتبار التاريخ الماضي وتحول هذا الوضع الراهن ويقوم بدور الرباط الاجتماعي الذي يوحد الشعب والذي يمكن الشعب من وعي علاقته بالعالم وبسائر شعوب العالم ٠ الايديولوجية الصحيحة سلاح لا يقهر ضد المضطهدين في حربنا من أجل الحرية والتحرر ٠

لقد حدد ماركس عهد البورجوازية واوضح اتجاه المستقبل البروليتاري٠ لقد حلل الرأسمالية وأعلن الطريقة التي تمكن من الخلاص منها وهي : « الثورة العنيفة التي تقودها البروليتاريا ضد جهاز الدولة البورجوازي ، جهاز الاضطهاد الطبقي والتسلط ٠ العنف الثوري في وجه العنف الطبقي المضاد للثورة والمدعم بقوة الاضطهاد الرهيبة التي تتمتع بها الدولة العسكرية » ٠

ان هذه الطريقة التي وضعها ماركس وانجلز أصبحت السلاح الاقوى الذي استعملته الشعوب المضطهدة في تاريخ الايديولوجية كله ٠ انها خطوة كبيرة الى الامام بالنسبة للانسانية جمعاء ٠ وهي ما تزال منذ عهد ماركس تزداد قوة وعمقا ووضوحا ودقة ٠

الا ان الماركسية لم تعالج في الواقع قضية الولايات المتحدة ٠ لقد حصلت بعض المحاولات وضع فيها الناس أفضل ما يستطيعون ٠ غير ان الماركسيين اللينينيين قد اعتمدوا في الماضي كثيرا على التحليلات المستوردة من الخارج وشوهوا نتيجة لذلك واقع الحياة الاميركية ٠ نستطيع القول ان ماركسية لينينية الماضي هذا كانت مرحلة تململ الماركسية اللينينية في الولايات المتحدة وان الوقت قد حان لكي يبرز تأليف ايديولوجي جديد أميركي مئة بالمئة ينبع من قلب وعقل الشعوب المضطهدة داخل بابل ، يوحد هذه الشعوب ويعطيها زخما جبارا وقوة كبيرة تدفعها الى معركة المستقبل ٠ ان تصاعد الثورة السريع في الولايات المتحدة يشبه عاصفة ضخمة تجمع قواها ولن يحول حائل دون انفجار هذه العاصفة لتقتلع جميع خنازير السلطة مع ما تملك من وسائل اضطهاد ، وعندها تفرح الشعوب المضطهدة وأبناء الخنازير أنفسهم ويرقصون وهم يبصقون على الخنادق المشتركة التي ستقبر فيها الخنازير ٠

ثمة سود في الولايات المتحدة يعيشون سعداء ولا يشعرون بأنهم

مضطهدون بل يعتقدون انهم أحـــرار • ومنهم من يعتقد ان رئيس الولايات المتحدة ليس كاذبا وانه رجل شريف وان قرارات المحكمة العليا هي أشبــه بقرارات الله وان رجال الشرطة انما هم هنا للدفاع عن القانون وان العاطلين عن العمل انما هم كسالى لا ينفعون لشيء وتجب معاقبتهم • ان هؤلاء السود هم أشبه بسراطين للطبخ يجب أن يتركوا في مرجل الاضطهاد اكثر من غيرهم كي يصبحوا أهلا للوعي والفهم • الا ان الاكثرية الساحقة من السود يملؤها التذمر وهي تعلم جيدا انها مضطهدة وليست حرة ، وهي لن تصدق نيكسون حتى ولو أقر بأنه هو نفسه شرطي وهم لا يأبهون لا للمحكمة العليا ولا لاية محكمة أخرى ، وهم يعلمون ان رجال الشرطة الحقيرين العنصريين أعداؤهم الالداء • أما الفقر فهم أدرى الناس به •

هؤلاء الملايين من السود ليس لهم ممثلون سياسيون وليسوا منظمين ولا يملكون أي جزء ولو يسير من المواد الطبيعية او من الآلة الصناعية ، وقسمتهم اليومية تحتم عليهم التكاتف لكيما يبقوا أحياء : انه صراع البقاء •

ان السود يعلمون ان الريح قد تنقلب في أية لحظة وأن الزمر الشارعية من الأعضاء البيض في الطبقة العاملة قد تهاجمهم وتقـدم حتى على اقتحـــام منازلهم ، وبسبب ذلك علينا أن نوضح بمنتهى الدقة ماذا نعني عندما نقول اننا ماركسيون لينينيون •

بالنسبة لمشكلة العنصرية لا تقدم الماركسية اللينينية الا عوناضئيلا • بل هنالك في الواقع اشارات كثيرة قد تحمل على الاعتقاد بأن ماركس وانجلز كانا عنصريين كجميع اخوانهم وأخواتهم البيض في ذلك العصر وكمثل الكثيرين من الماركسيين اللينينيين اليوم • الماركسية اللينينية تشكل تاريخيا اجابة عن المشكلات الاوروبية وهمها الاول كان اعطاء الحلول للمشكلات الاوروبية •

ومع تأسيس الجمهورية الديموقراطية الشعبية في كوريا سنة ١٩٤٨ والجمهورية الشعبية في الصين سنة ١٩٤٩ سرى دم جديد في الماركسيـــة اللينينية ، فلم تعد منذ ذلك الحين ذاك الحدث الضيق المرتبط بأوروبا • ان الرفيق كيم ايل سونغ والرفيق ماو تسي تونغ قد طبقا المبـــادىء الماركسية اللينينية الأساسية على ظروف بلادهما الخاصة جاعلين بذلك من الايديولوجية شيئا مفيدا لشعبيهما كما أنهما قد رفضا من النظرية الجزء الذي لا يفيدهما في شيء والذي يعالج الشأن الاوروبي المحض •

ان السود ، نظرا لتاريخ الولايات المتحدة العنصري ، يصعب عليهم أن ينتموا الى الماركسية اللينينية (أو الى أي شيء يحمل اسم البيض) دون أن يشعروا ببعض الانزعاج تماما كما ينزعجون بتوجيه الصلاة الى يسوع الانسان الأبيض • علينا أن نؤكد ان ماركس ولينين لم يخترعا الاشتراكية بل قد شاركا فيها واغنيا عقيدتها كالكثيرين قبلهما وبعدهما • علينا كذلك أن لا ننسى أن من اسس حزب الفهود السود ليس ماركس أو لينين بل **هيو** نيوتون وبوبي ســـيل Bobby Seale •

قبل فانون Fanon لم يهتم أي منظّر ماركسي لينيني ذي شأن بمشكلات السود اينما وجدوا في العالم • وفانون نفسه في كتبه المنشورة لم يهتم أساسا الا بافريقيا • فهو لا يفيد الآفرو-أميركيين الا بصورة غير مباشرة • ان فانون بكل بساطة أقرب الينا لأنه مجرد عن التحيز العنصري الذي جعل المنظّرين البيض يركزون اهتمامهم على مشكلات شعوبهم الخاصة ، ويقلـــل اهتمامهم بمشكلات السود • غير اننا بالرغم من شعورنا بالقرب من فانون ، لم يعطنا مفتاح تطبيق الماركسية اللينينية على مشكلات الولايات المتحدة• ولن يعطينا أحد هذا المفتاح اذ ليس بوسع أحد ان يعطينا اياه • علينا أن نجده بأنفسنا ، وسوف تستمر الامور على سوئها ، الى أن نجده • علينا ان ننطلق أساسا من تعاليم **هيو** نيوتون ، ولن تؤدي بنا أية طريق أخرى الا الى نهاية محزنة مؤسفة•

أطلق فانون هجوما شاسعا على الماركسية اللينينية التي قصرت اهتمامها على اوروبا ، على مشكلات البيض ووسائل انقاذهم ، مصنفة دون تمييز جميع شعوب العالم الثالث في صف الحثالة البروليتارية ، مهملة اياها • نبش فانون مفهوم الحثالة البروليتارية واهتم بتحليله مقرا ان اكثرية الشعوب المستعمرة تقع في نطاق هذا المفهوم • ولأن الشعب الاسود في الولايات المتحدة هو شعب مستعمَر ، فتحليله ينطبق علينا أيضا •

بدأ **هيو** نيوتون وبوبي سيل ، بعد دراستهما لفانون ، في تطبيق تحليله للشعوب المستعمَرة على الشعب الاسود في الولايات المتحدة • تبنيا نظرة فانون ، وزوداها بمضمون آفرو-أميركي محض ، فكما نميز بين البلد المستعمر والمستعمَر عندما ننظر الى البيض والسود في مجملهم ، علينا ان نعتمد التمييز نفسه عندما ننظر الى الفئة التي تسمى « طبقـــة عاملة في البلد المستعمر » و « طبقة عاملة في المستعمَرة السوداء » ، وكذلك عندنا حثالة بروليتارية في البلد المستعمر وحثالة بروليتارية في المستعمَرة السوداء • الا اننا وان كنا نستطيع التمييز في البلد المستعمر بين طبقة عاملة وحثالة بروليتارية فالتمييز يصعب عندما نأتي الى داخل المستعمَرة السوداء • وهذا يعود الى فعل الاستعمار والى كون جميع السود مستعمَرين حتى ولو استفاد بعضهم من بعض الامتيازات الناجمة عن خبث المستغلين المستعمرين في البلد المستعمر • هنالك فرق شاسع بين مشكلات الطبقة العاملة في البلد المستعمر والطبقة العاملة في المستعمَرة السوداء ، كما أن هنالك فرقا ايضا بين الحثالة في البلد المستعمر والحثالة في المستعمرة السوداء • ولا يفيدنا في شيء ان نغض الطرف عن هذه الفوارق وكأنها غير موجودة فهي وقائع موضوعية علينا ان ندخلها في حسابنا •

واثباتا لكوننا لن نفيد شيئا من التغاضي عن هذه الفوارق ، ليس علينا الا أن نستعيد بالذاكرة تاريخ نضال عمال المستعمَرة السوداء الطويل المر في نقابات البلد المستعمر من أجل الديموقراطية • لقد وقعنا تاريخيا في فخ انتقاد نقابات البلد المستعمر وعماله على عنصريتهم وعلى طريقتهم في معاملة العمال السود • طبعا انهم عنصريون ولكن هذا لا يفسر شيئا • ان العمال البيض ينتمون الى عالم مختلف تماما عن عالم العمال السود • فهم ينتمون الى واقع اقتصادي

وسياسي واجتماعي يختلف تماما مما يسهل على رجال السلطة « وقبضايات » النقابات ان يستخدموهم بواسطة العنصرية البابلية ٠

هذا الواقع المعقد يواجهنا بمشكلات جمة لا يمكن حلها الا بتحليل مطابق خاص ٠ ان فقدان هذا التحليل الخاص هو المصدر الرئيسي للطريقة المبتسرة التي يواجه بها الماركسيون اللبنانيون في البلد المستعمر هذه المشكلات ٠ وتحليلهم الخاطىء يقودهم الى الاعلان عن حلول كتب لها الفشل مسبقا ٠ ان مفتاح ضياعهم يكمن في انهم يعتبرون بطريقة خاطئة ان لا وجود الا لبروليتاريا أميركية **واحدة** ولطبقة عمالية أميركية **واحدة** ولحثالة بروليتارية أميركية **واحدة**٠

نعم نحن من الحثالة ٠ هذا صحيح ٠ الحثالة البروليتارية هي هؤلاء الذين لا مصالح لهم في وسائل الانتاج ولا في مؤسسات المجتمع الرأسمالي ولا أمان لهم في علاقاتهم مع وسائل الانتاج وهذه المؤسسات ٠ هؤلاء الذين يشكلون جزءا من « جيش الاحتياط الصناعي » الذين هم أبدا من هذا الاحتياط والذين لم يشتغلوا ولن يشتغلوا أبـــدا والذين لا يجدون عمـلا ولا كفاءات لهم ولا مؤهلات ، أولاء الذين استعيض عنهم بالآلات والمكننة ، ولم يرض أي رب عمل بأن ينفق على تدريبهم المهني أي فلس ، والمحكوم عليهم بأن يحيوا من حسنة ضمان البطالة وتعويضات الدولة ٠ وهم أيضـــا من نسميهم « بأهل البوْر » الذين يحيون مما يتيسر لهم أن يسلبوا من هنا وهناك ، أولاء الذين يصوبون مسدسا خفيا الى جبهة الاغنياء طالبين منهم دولاراتهم ، اولاء الذين لا يريدون عملا ، بل يكرهون العمل ولا يستطيعون أن يخدموا رجال الشرطة وانما يفضلون ضربهم وسلبهم ، أولاء الذين أسماهم هيو نيوتون « بالرأسماليين اللاشرعيين »٠ وباختصار ، هم جميع الذين أخرجوا من اقتصاد البلاد وجردوا من حصتهم في الأرث الاجتماعي الذي يعود لهم حقا ٠

لكن مهما كنا من الحثالة فنحن ننتمي الى البروليتاريا هذه الفئة التي كان من المفروض فيها نظريا ان تتجاوز الحدود القومية والوطنية والتي هي عمليا في موقع يدعو الى الشك ٠

التناقضات في صفوف البروليتاريا الاميركية

تشكل الطبقة العاملة في البلد المستعمر وفي المستعمَرة السوداء الجناح اليميني من البروليتاريا وتشكل الحثالة البروليتارية جناح اليسار ٠ وفي قلب الطبقة العاملة نفسها تناقض ضخم بين الذين يعملون والعاطلين عن العمل ٠ كما ان هنالك تناقضا آخر بين الطبقة العاملة والحثالة البروليتارية ٠

ان بعض أدعياء الماركسية اللبنانية ، من ذوي البصيرة العمياء ، يتهمون الحثالة البروليتارية على انها فئة طفيلية في جسم الطبقة العاملة ٠ انه اتهام أحمق لا يمكن ان يصدر الا عن أناس أكثروا من قراءة بعض الملاحظات الهامشية الواردة في مؤلفات ماركس معتبرينها كتابات مقدسة ، والتي فيها بعض التحقير

لهذه الفئة • الواقع ان الطبقة العاملة بمجملها وبخاصة الطبقة العاملة الاميركية هي طفيلية في تراث الانسانية الذي جردت منه تماماً الحثالة البروليتارية بواسطة ثعلبة النظام الرأسمالي الذي ألقى في المقابل الانسانية الباقية على كومة الاقذار بعد ان اشترى ضمائر بعضها بوظائف وبعض الأمان •

ان الطبقة العاملة التي نعرف اليوم لا تشبه بشيء الطبقة العاملة في زمن ماركس • لقد عاشت الطبقة العاملة في البداية في قلق وقلة أمان ، فكانت يومها شديدة الثورية وهي التي كانت تقود النضال ضد البورجوازية • غير ان الطبقة العاملة بنتيجة جهاد طويل مرير قد خرقت جدار النظام الرأسمالي وبنت لنفسها فيه بيتا مريحا • ان نمو الحركة النقابية والمفاوضات الجماعية والضمان الاجتماعي ولجان المؤسسات وسواها من التشريعات المخصصة لحماية العمل قد أفقدت الطبقة العاملة رجولتها وحولتها الى حركة نقابية مندمجة في النظام ، حركة هي نقيض تام للحركة الثورية لا هم لها سوى الاصلاحات ولا محرك لها سوى زيادات الاجور وضمان وأمان العمل •

لقد تخلت الحركة النقابية عن كل انتقاد أساسي للنظام الرأسمالي المستقل • ان مينيس Meanys وروزيرس Reuthers وراندولف Randolph وان أعلنوا كخونة بالنسبة للبروليتاريا، هم الانعكاس والتجسيد الامينان لأماني وسمة الطبقة العاملة • ومهما أثار الحزب الشيوعي الاميركي الحماسة في مظاهراته بادعائه انه طليعة الطبقة العاملة ، يبقى ان هذه الطبقة العاملة ترى في الحزب الديموقراطي الوسيلة الشرعية لبقائها وحمايتها السياسية •

الواقع ان الطبقة العاملة في عصرنا أصبحت نخبة صناعية جديدة تشبه النخبة المتزمتة لتجمعات الحرفيين في أيام ماركس اكثر مما تشبه الجماهير المحكوم عليها بالعمل الشاق والفقر الذميم • فليس في سوق العمل اليوم في الولايات المتحدة أي نوع من الوظائف الا ويطلب له المؤهلات المهنية نفسها التي كانت تطلب من قبل نخبة التجمعات المهنية الحرفية الاحتكارية في عهد ماركس • ليس بالامكان ان ينسب في اقتصاد ممكن المستوى الرفيع الذي بلغه الانتاج الى الطبقة العاملة وحدها • الآلات والعقول الالكترونية ليست من الطبقة العاملة ، حتى ولو بدا بعض المتحدثين باسم الطبقة العاملة وبخاصة أدعياء الماركسية اللينينية ، يتصرفون كأنهم آلات لا عقل فيها •

ان نار الثورة التي كانت في الماضي تتأجج كالجحيم في قلوب الطبقة العاملة خمدت اليوم حتى أصبحت بحجم نار شمعة ضئيلة هزيلة تكاد لا تكفي الطبقة العاملة كي تحرك ككرة الطاولة من اليمين الى اليسار وكل أربع سنوات مرة لتستقر اما في جهة الديموقراطيين واما في جهة الجمهوريين من دون ان تعير ما يجري على يسارهم أي اهتمام •

من هو المتحدث باسم الحثالة البروليتارية ؟

يتحمل بعض الماركسيين اللينينيين مسؤولية أنانية الطبقة ومسؤولية

الثعلبة التي تتميز بها الطبقات العليا حيال من هم دونها في السلم الاجتماعي ٠ انهم يقرون بأن منظماتهم انما وجدت لتمثل مصالح الطبقة العاملة ، الا انهم يتمادون بحيث ينتهون الى اعتبار انفسهم الممثلين الحقيقيين الفعليين لمصالح البروليتاريا كلها ٠ وهذا أمر غير صحيح لانه يستند الى فرضية مجانية سببها أنانية منظماتهم وهي فرضية تتحمل مسؤولية كبرى في الفشل الذريع الذي منيت به محاولاتهم في احداث الثورة في بابل ٠

وبما ان التناقض قائم فعلا بين الجناح اليميني والجناح اليساري من البروليتاريا ، وبماان الجناح اليميني قد انشأ منظمات خاصة به فعلى الجناح اليساري أن يبني لنفسه منظمات خاصة لتمثل مصالحه في وجه جميع الطبقات العاملة ٠

ان التناقض بين الطبقة العاملة والحثالة البروليتارية تناقض جدي لأنه يلزمنا في تحديد استراتيجية مغايرة وفي اللجوء الى تكتيك مغاير ٠ ان ثورة الطلاب تحدث في الجامعات ، وثورة العمال تحدث في المصانع ، أما الحثالة التي لا تجد أي عمل والتي ليس بوسعها الذهاب الى الجامعات فلا خيارأمامها الا ان تثور في الشوارع ٠ انه من الاهمية بمكان ان نعرف ان الشارع هو ملك الحثالة وان ثورتها سوف تحصل في الشارع ٠ ان من أهم ميزات نضال السود التحرري في الولايات المتحدة ، أن اكثرية اعماله قد وقعت في الشارع مما يعني ان الحثالة السوداء هي رأس حربة الثوريين السود ٠

ان الشعب الاسود بحكم علاقته بوسائل الانتاج وبسائر المؤسسات محكوم بأن لا يستطيع التعبير عن ثورته في مستوى وسائل الانتاج والمؤسسات٠ العلاقة هذه هي من خصائص الحثالة ٠ غـير ان هذا لا يعني ان الثورات في الشوارع ليست تعبيرا شرعيا عن الشعب المضطهد بل انها في الواقع الوسائل الوحيدة التي تملكها الحثالة البروليتارية للقيام بالثورة ٠

لقد طردت الحثالة من الاقتصاد ، وعندما تقوم الحثالة بأعمال مباشرة ضد نظام التسلط تتلقفها احتجاجات ممثلي الطبقة العاملة الذين يتوحدون في كورس واحد مع خطباء ومبشري البورجوازية ٠ ومما يسعد كثيري الكلام هؤلاء أن ينتقدوا نضال الحثالة وعفويتها (لانهم بالطبع ليسوا من يقود هذه الاعمال) وقلة تنظيمها وصفتها الفوضوية غير الموجهة ٠ انما هذه كلها تحليلات منحازة مسبقا ونابعة من موقع الطبقة العاملة الضيق ٠ لكن هذا كله لا يحول دون مسيرة الحثالة صعدا رافضة ان تنقاد أو تحكم بتكتيك تتحكم فيه ظروف حياة الطبقة العاملة وعلاقتها بوسائل الانتاج ٠

ان ظروف الحثالة تجعل من الصعب جدا عليها ان ترفع ظلامات ضد النظام ٠ ان بوسع العمال ان يضربوا عن العمـــل ضد المؤسسة ورب العمل وبوسعهم كذلك ، من خلال الآلة النقابية ، اللجوء الى وسائل تحكيم تخولهم الوصول الى مطالبهم ٠ ان المفاوضات الجماعية هي الطريق التي اكتشفتها الطبقة

العاملة للخروج من بئر الاضطهاد والاستغلال ، أما الحثالة فلا سبيل لها في ذلك • ليس للحثالة أية نقطة ارتكاز مؤسسية في المجتمع الرأسمالي • ليس لها مضطهد مباشر سوى رجال الشرطة الذين عليها أن تواجههم وتقاومهم يوميا • وبما ان ظروف حياة الحثالة البروليتارية هي التي تدفعها الى تصرفات «عفوية» ضد النظام وبما انها تخضع الى اضطهاد بالغ في الشدة فمن الطبيعي اذن ان تكون اعمالها ضد النظام هي نفسها بالغة في الشدة • انها تشعر انها مبعدة عن كل التنظيمات بما فيها التنظيمات النقابية وتنظيمات الحزب الشيوعي التي تحتقرها وتنتقدها معتبرة اياها وفقا لكلمات ماركس نفسه ، أبي جميع الاحزاب الشيوعية ، على انها « حثالة المجتمع » ، فالحثالة هذه مضطرة ان تخلق اشكال ثورتها الخاصة بها وفقا لظروف حياتها ولعلاقاتها الخاصة بوسائل الانتاج وبمؤسسات المجتمع • أي انها ستهاجم جميع البنى التي تحيط بها بما فيها الجناح اليميني في صف البروليتاريا اذا ما حاول ان يسد عليها طريق ثورتها •

ان التحليلات الخاطئة لمنظري الطبقة العاملة والمتعلقة بطبيعة الحثالة البروليتارية هي من الاسباب الرئيسية لتأخر نمو الثورة في الاوساط المدينية • وبوسعنا القول ان الثوار الحقيقيين في المراكز المدينية في العالم أجمع قد أخرجوا من الثورة بموجب تحليلات بعض الماركسيين اللينيين* •

نقل هذا النص الى العربية : البير منصور • والنص مطبوع على حدة كجزء أول من « ايديولوجية حزب الفهود السود » ، ضمن « سلسلة دجوتشي » (منشورات جي ـ لو ـ كور ، في باريس) . ودجوتشي تعني كما يحددها كيم ايل سونغ « الروح الثورية الاستقلالية المعتمدة على القوى الذاتية الخاصة في البناء الاقتصادي والدفاع الذاتي والايديولوجية وجميع قطاعات النشاط في الدولة » •

* ان في هذا النص كثيرا مما يحتاج الى ايضاح ومناقشة لكننا نقدمه هنا كوثيقة لا أكثر •

دفتر افكار

انور الغساني

كيف نصنع ثورة ثقافية حقيقية ؟

مطعم الطلبة ٠ المساء ٠ الخامس والعشرون من تموز ١٩٧٠

خلف زجاج الطابق الارضي مطر دافيء وجلـــد المقعد نصف الدائري ، الاحمر ، يلمع ٠ وحين أتحرك أو يتحرك سميح القاسم أثناء الحديث تمر ظـلال داكنة غير مرئية على الجلد الاحمر فيصبح داكنا هادئا ٠

حين أكتب عن لقاءاتنـــا العديدة القصيرة في روستوك ، مينـــاء المانيا الديمقراطية على بحر البلطيق ، امارس استحضارا لوقائع ، ولوجه يكاد ينضم الان الى تلك الوجوه القاتمة على الحدود بين الوعي واللاوعي ، وهو وجه يقاوم أن يوضع في اطار خلق أدبي ، لانه يمتاز بالوضوح ولهذا يبقى سهل الاستحضار صريحا ، شابا وفلسطينيا حقا ٠

انه متوسط الطول ، ذو هيئة رقيقة التكوين ، ولباسه شاب ، ولكنــه رصين بعيد عن الايحاء بذلك التبتل السياسي الذي يطرحه كثير من الملتزمين الذين يحولون الالتزام الى نحت خارجي يمنعهم حتى عن الحركة الطبيعية ٠ وسميح القاسم لا يمتلك تلك الهيئة الكلاسيكية للشاعر ، فهيئته متناسبة في اطار عاشق وقت السلم أو اطار مقاتل وقت الحرب ٠ انه وجه غض ولكنــــه ممتحن بعض الشيء ومن هنا اعتقدت انه أصغر من عمره الحقيقي وحين قال لي فيما بعد انه في الحادية والثلاثين بدا لي الامر مقبولا ومتوافقا مع الوجه أيضا ٠

ان الحديث مع انسان اخر مسألة مقدسة أحيانا ، اذ لتتفحص هــذه الحقيقة ، قد تشعر انك ، فجأة ، تعب ومتضايق الى حد التفكير بالانتحار لانك حلمت طوال سنيك بتغيير العالم ، لكنك تجد فجأة وللحظة تمتلك تركيـــزا

قائلا أن غلاف العالم قاس ليس من السهل تحطيمه فتفقد عنصر سيزيف وتريد ، في أفضل الاحوال ، الانتحار كبيرون أو كباتريك جوزيف أرغويللو (١) في سبيل قضية ، محتجا على كل قذارة العالم • حسنا كنت متضايقا الى حد القتل حين التقيت بسميح القاسم في مطعم الكلية بروستوك وكان يحضر ، كضيف ، مؤتمرا للطلبة العراقيين في اوربا وضمن جولة كان يقوم فيها بزيارة أقطار أوربا الاشتراكية • تحدثنا وانشغلت عن اهتماماتي الذاتية ، المباشرة ، ربما كان حديثنا في البداية حول موعد لاجراء مقابلة صحفية معه ، ثم تحولنا الى الشعر وبالضبط ماذا يمكن للشعر أن يقوم به الان • ورأي سميح أن من حق الجمهور اليوم أن يستمتع استمتاعا حسيا بالقصيدة العمودية المقروءة ، وهو مع حماسته للشعر الحر يستجيب لتلك الحاجة الاحتفالية التي تتطلب أحيانا قراءة قصيدة عمودية يتم بها التوصل الى السيطرة على الجمهور وتحريكه بالانفعالات التلقائية ، وكان رأيي أن القصيدة العمودية ، مع اعترافي بضرورتها في حالات خاصة ، لا تمنح امكانية التأمل عند سماعها أو بعد ذلك ، الا في حالات خاصة ، وربما سبب ذلك هو التوتر العالي المميز للقصيدة العمودية في الشعر العربي التي تتطلب انفعالا في المستوى الكمي نفسه لتوترها وربما ، وهذا صحيح غالبا ، لنقص تربوي لدى جمهور المستمعين يمنعه من ربط النشوة بتأمل رصين لذبذبة الداخل ولصورة البيئة المباشرة المحيطة التي تبدو ، وهميا ، بشكل اخر بعد سماع القصيدة ومن خلال ما أذكاه سماعها من عاطفة • وقد سمعت سميح القاسم بعد ذلك ذات مساء ، وشاهدته وهو يقرأ قصيدة عمودية سياسية ، لقد تجاوز منذ منتصف القراءة هويته وتحول الى مانح حلم والى قطب للاثارة ثم استهلك بضربة أخيرة كل انتباه المستمعين بأن أوصلهم الى الذروة وحمل الجميع بانزلاقة عاطفية في روح واحدة ، في الضربة النهائية ومع لفظ اخر قافية انزلق المستمعون من بين يديه ليمنحوا لتوترهم امكانية الاسترخاء ، بالتصفيق له ، وعاد هو الى مجلسه حاملا وجها جديدا • وأنا أشك انه في الدقائق التي تلت ذلك ، استطاع أن يعود فورا للتأمل ، بل ربما كان يبحث عن استراحة من أي نوع ليعيد التوازن الى داخله بعد هذه (الصدمة) العاطفية التي ما أسهل ما تقدمها القصيدة العمودية العربية •

الا أن الوقت لم يكن يمنح دائما فرصة سؤاله مباشرة عن مثل هذه التوقعات ، ولكنني تحدثت معه في اللقاءات القصيرة التي تلت وحتى اللقاء الاخير لنا بعد ذلك في مقهى كوزموس عن أشياء وشؤون مختلفة •

وقد حدثني سميح عن قضية اعتقاله التي ذكرتها الصحف العربية فقال بأن الشرطة الاسرائيلية اعتقلته بناء على اعترافات كاذبة جاءت على لسان أحد المعتقلين واتهم بموجب ذلك بالاتصال بمنظمة فتح وبالحصول على أسلحة وتنظيم توزيعها • ولكن التهمة المزورة لم يكن بالامكان اثباتها ولهذا اطلق

---

(١) باتريك جوزيف أرغويللو : أمريكي من المقيمين في نيكاراكو وعضو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين استشهد أثناء محاولة اجبار الطائرة الاسرائيلية على تغيير اتجاهها من لندن الى الشرق الاوسط في أيلول ١٩٧٠ •

سراحه بعد ذلك • وكان سؤالي بعد ذلك عما سيفعلـه بعد زيارة المانيـا الديمقراطية فقال « أزور تشيكوسلوفاكيا ثم أعود الى القفص » •

*

مقهى كوزموس • السادسة وأربعون دقيقة مساء •

الركن الذي احتوانا في الطابق الاعلى كان لذيذا ، هادئا وبعد مضي بعض الوقت جاء زوجان شابان وشغلا المقعدين الاخرين : كانت المرأة استراحة حقيقية للمحارب ، وباللغة الغربية على مسامع الزوجين أبدينا ملاحظات قصيرة حولهما ، ولكن لم يطل ذلك : كانت القهوة والسكاير وحديث طويل أمامنا •

ان الحديث عن ثورة نقدية في الشعر العربي لا يكفي في رأي سميح القاسم للوصول الى تطوير شامل للوضع الادبي العربي وانما يتم ذلك من خلال القيام بثورة ثقافية ، ولكنه يميز بين الثورة الثقافية التي يقصدها والنموذج الصيني لها ، الذي يصفه بأنه « قسري ولا منطقي » • ان الثورة الثقافية التي يقصدها تبدأ حين تعثر الثقافة الثورية العربية القائمة الان على ذاتها وعندئذ يمكن احداث هذه الثورة الثقـافية في مختلف المجـالات القديمة وبصورة مستمرة •

وانطلاقا من واقع الفكر العربي ، يمكن استخلاص نتيجة معينة بالنسبة للنقد الادبي ، فيرى سميح القاسم أن هناك فريقا من النقاد مثقفا ثقافة غربية يجاهد من أجل أن يستخدم هذا الاساس الثقافي لخدمة أغراض أدبية نقدية اشتراكية وهناك فريق آخر مثقف ثقافة اشتراكية يجاهد من أجل ألا يسقط في تطبيق جامد للواقعية الاشتراكية على الانتـاج الادبي المطروح للنقـد • وللخروج بالنقد الى مستويات صحيحة واقعية اشتراكية يرى سميح القاسم — على الرغم من عدم ثقته بالنقد القائم الان — أن يؤسس النقد على أساس الواقعية الاشتراكية مع تفادي السقوط في ستالينية أدبية تجهز على جوهر هذا الاتجاه في النقد •

بالنسبة لمهمة الشعر يدعو سميح القاسم الى تجنيد الشعر في المعركة وهذا التجنيد ، في رأيه ، عملية طبيعية ، أو نتيجة طبيعية ينتهي الى الالتزام بها كل شعر أصيل ، وأن الشعر يجب أن يكون داعيـة للمفاهيم الاممية والاتجاهات الانسانية وان يرتبـط الشعر العربي بحركـة الشعر الانساني التقدمي في العالم مسندا بكل ما في التراث من جوانب ديمقراطية انسانية •

وحمل سميح القاسم على الرجعيين الذين يحاولون تكريس رجعيتهـم بالدعوة الى كل ما هو سلبي في التراث بذريعة الحفاظ على التقاليد العربية •

*

سميح القاسم يتطور في الفترة الاخيرة باتجاه الشعر المسرحي وذكر لي بأنه كتب حتى الان ثلاث مسرحيات شعرية نشر اثنتـين منها وهي تؤلـف

بمجموعها ثلاثية لها خلفية ذهنية وعاطفية واحدة • وتشترك مع هذه المسرحيات الثلاث مسرحية شعرية جديدة فرغ من كتابتها مؤخرا بالخلفيــة الذهنية والعاطفية نفسها •

وقد ظن سميح لدى انتهائه من كتابة المسرحية الثالثة أنه لن يعـود الى كتابة المسرحيات الشعرية ، الا انه وخلال سفراته الطويلة بالقطار في أوربا بدأ يفكر في كتابة مسرحية شعرية جديدة ذات خلفيـــة من التاريـــخ الاندلسي وتناقش الصراع بين الصهيونية وحركة التحرر العربية •

تحدثنا بعد ذلك عن قصيدة له « أحلام تبددها وكالة الانباء » كنت قـد قرأتها قبل أيام • القصيدة عبارة عن تمنيات بتحويل أدوات الحرب الى وسائل للحلم ، قلت له :

ــ ان القصيدة عبارة عن تكثيف جيد لكل التمني البريء للشاعر ، والذي لاحظته أن بناءها في بعض المواضع غـير موحـد أي هنـــاك هبوط في نبض القصيدة في بعض المواضع وهذه مسألة طبيعية تقريبا ، هناك فقط حالات الخلق النادرة التي تنتج أعمالا موحدة البناء في كل المواضع وهي نتاج لحظات استمرار نبض واحد بوتيرة واحدة •

ــ هذا صحيح ، في الواقع أنا أشعر حين أكتب القصيدة بالمواضع التي يخف فيها التركيز الشعوري وهناك حالات نادرة يكون فيها التركيز الشعوري موحدا •

بقينا طول الوقت ندخن بكثرة ، كان الزوجان منشغلين عنا بأحاديث خاصة وفي الطابق الاسفل تشع أضواء هذا «المكان النظيف الحسن الاضاءة» (٢) وكان المطر الصيفي يسقط في ظلمة المساء خارج زجاج المقهى •• ولا بد أنه كان دافئا •

أنور الغساني
(لايبزك)

(٢) مكان نظيف حسن الاضاءة : قصة قصيرة لارنست همنغواي •

حين تكون الضحية أكثر اشعاعا من النجوم

(حوار مع سنية صالح أجراه محمد الماغوط)

اذا كان المهتمون بقضايا الشعر ما زالوا يذكرون اسم سنية صالح عندما فازت بجائزة « النهار » لاحسن قصيدة حديثة عام ١٩٦١ أم لا فلم يعد الامر مهما بعد أن أكدت الشاعرة بـ « الزمان الضيق » أولا و « حبر الاعدام » ثانيا على أن أصالتها أعمق من أن تكون مرهونة بذاكرة القراء المزدحمة بالاف الاشياء غير الشعر والشعراء • فمنذ مطلع حياتنا الادبية وهي تتحاشى السراديب الفكرية التي خنقت جيلين من الشعراء ، وتفضل أن يكون شعرها وحيدا مثلها •

انها لا تؤكد ولا تحن الى شيء دون آخر • ففي كل قصائدها لا تبدو الا كزهرة عارية الا من عطرها وعمرها القصير تبحث وسط عري الكتب والاشخاص والايام عن ربيع ما •• ربيع ضائع قد لا يأتي أبدا • ولذا تبدو قصائدها وسط اللطخ الفكرية والسياسية والاجتماعية التي تغطي الوطن العربي بيضاء ناصعة كثياب الراهبات • وبين حزنها العميق على طفولة مندثرة وأحلام مولية وبين ذعرها من مستقبل بلا طفولة ولا أحلام •• يرتجف مستقبلها الشعري كضوء الشمس الحائر بين الشروق والغروب •

م• م•

*** بين « الزمان الضيق » و « حبر الاعدام » سبع سنوات كاملة • حدثينا عن هذه الفترة ببياضها وسوادها •**

سنية صالح : بين المجموعتين حروب وهزائم على الصعيدين الشخصي والاجتماعي • جميعها أعطت انعكاسات سوداء في « حبر الاعدام » • المجموعتان ممتلئتان بالحزن حتى الاختناق ، لكنه في الاولى يختلف عنه في الاخرى • ففي « الزمان الضيق » يأتي كرصيد للطفولة • وفي « حبر الاعدام » يقوى كيانه في داخلي ، أصبح قاسيا مملوءا بالعداوة لي • هو يتجه نحو ماض انتزع تفاؤلي وعطل انتظاري لمستقبل اخر • الى متى يطول ذلك ؟ لا أعرف •

انتظاري للمستقبل في ديواني الاول ، انتظار مملوء بالحماس والتفاؤل .
وأعني بالمستقبل هنا : الحب ، الوطن ، الابطال . أما الان وبعد أن جاء أغلبهم في الصور المغلوطة أو على هيئة غير التي كنت أحلم بها وأتحمس لها ، اهملت انتظاري للمستقبل .

*** عندما تعددين خسائرك النفسية والروحية التي منيت بها خلال تلك المدة بهذه الحماسة لا بد من سؤالك عن مصدر تلك المكاسب الشعرية التي تبدو واضحة في ديوانك الاخير والذي هو دون شك أكثر أهمية من سابقه بكثير .**

ـ بقدر ما عظم ألمي جاد شعري . لقد كان ثمنا لما عانيت .

*** في كلا المجموعتين خوف مزمن .. مم تخافين ؟ والى أين قادك هذا الخوف ؟**

ـ لم يكن العالم ودودا معي ، كان ماكرا . لقد سبب لي الكثير من الذعر .
أما الى أين قادني هذا الذعر ؟ الى ما أنا عليه .

*** شعرك مليء بالحساسية والطفولة الاسرة ، ولكننا لسنا في عالم أطفال كما ينبيء الواقع الذي نعيش فيه . ولذا ألا تشعرين بتأنيب الضمير وأنت تكتبين بمعزل عن قضايا أكثر أهمية والحاحا من عذاب امرأة غير متآلفة مع بيئتها وغير مستقرة على أرضها .**

ـ قد لا يبدو العالم الذي خصصته بشعري الا بحيرة أطفال . أو على الاقل كما تراه أنت ، لكنها على كل حال مسوقة برياح العالم الكبير . أما أنا فلا أرى نفسي متفرغة للطفولة بالقدر الذي تراه ، الا عندما تحن ذاكرتي السوداء الى صور البدايات الاولى لانها تتمتع بجاذبية مدهشة .

الحالة التي تسميها « عذاب امرأة غير متآلفة مع بيئتها وغير مستقرة على أرضها » هي أيضا قضية من صلب الواقع الذي تتهمني بالانعزال عنه . ألا ترى معي ذلك ؟ الا أنه يبقى الشعر مهما كان موضوعه شعاعا صغيرا يصل بين ظلامين : « الشاعر والقاريء » .

*** هل أمعنت النظر ذات يوم في وجوه العمال المقطبة ؟ هل رأيت مشردا يأكل فضلات على الرصيف ؟ هل أصغيت للسعال المنبعث ليلا من الحارات الضيقة ودهاليز الفقراء ؟ وهل وجدت ثمة قربى بين نتاجك الشعري وبين هؤلاء ؟**

ـ ولماذا أنت تمد ذلك الليل البشري بيني وبين الاشياء المضيئة ؟ لو كان العالم الان مجرد وجوه عمال مقطبة ومشردين يأكلون الفضلات ودهاليز ، لرفضت أن أعيشه ، خاصة بعد مرور تلك القافلة الطويلة من الشعراء العظام . عندما يكون سوط الجلاد طويلا كالظلام ، تكون الضحية أكثر اشعاعا من النجوم .
أعرف أن جميع الحضارات لم تروض العالم حتى الان الا أنه يملك الكثير الذي

يستدعي الحب ، بالرغم من أنه محرض بقوة الموت وفعلها وأن العالم مجنون بتلك القوة ٠

❋ متى بدأ اهتمامك بالشعر لاول مرة ؟

ـ لا أدري ٠

❋ لا تستخفي بهذا السؤال ٠

ـ كنت صغيرة ٠ وكنت أكتب بحماسة الراهبة التي تبتهل للمسيح ٠ لكن قصائدي الاولى ذهبت على هوامش كتبي المدرسية ٠

❋ وهل تعتبرين ذلك التحول فألا حسنا ؟ ولماذا ؟

ـ نعم ٠ لانها محاولتي الوحيدة لتحدي الفناء أو للتحايل عليه ٠ وكأنني أقول : هذا « الشيء » أو هذه « الكمية » من ذاتي لن يمسها الموت ٠

❋ لو كلفت بوضع كل الشروط الضرورية لكتابة الشعر ، فماذا تشترطين ؟

ـ لا شيء ٠ لان الازقة المظلمة والبيوت اليائسة خلقت شعراء عظاما ، وكذلك القصور والشوارع النظيفة ٠

❋ عندما تجدين كتب المشاهير من الشعراء والروائيين والمسرحيين تباع على الارصفة بل وتكاد تطأها أحذية المارة ألا تشعرين باليأس مما تكتبين ؟

ـ اليأس نفسه الذي ينتابني عندما أرى طفلا يجلد أو يرمى بالرصاص ، ومع هذا لا ينفك العالم عن انجاب الاطفال ٠

❋ ما رأيك بالاخلاق بمفهوم الاخلاق السائد في الشرق ؟

ـ لم يعد في الشرق شيء حقيقي أصيل الا التاريخ ٠

❋ هل تقولين كل الحقيقة في شعرك ؟

ـ وهل تعتقد أن ذلك سهل ؟ لو كان بامكاني ذلك لاصبح شعري أكثر جودة ٠

❋ في فترة سابقة أوليت اهتماما ملحوظا بالقصة القصيرة وقد فازت واحدة منها باحدى الجوائز المهمة ٠ ماذا حل بذلك الاهتمام ولماذا توقف ؟

ـ لانني أهمل أي عمل ينافس اهتمامي بالشعر ٠

❋ رتبي الفنون حسب أولويتها بالنسبة لك كشاعرة ٠

ـ عندما أقف في النار يشتد حنيني الى الماء ٠ لكن هذا الحنين سرعان ما يعود باتجاه النار عندما أصل الى المناطق المائية ٠ لشد ما أهرب من السكون ولذا قد ارتب الفنون وأنا أقل ضجرا على الشكل التالي : النقد ، الرواية ، الرقص ، الغناء ٠ والغناء ، الرواية ، النقد ، اذا كنت في حالة أكثر بؤسا ٠

عبد القادر الشاوي

الاغتراب والبديل

(ملاحظات عن الشعر المغربي الحديث)

I

يتموضع الشعر الحديث في المغرب ، في حدود آفاقه النظرية ، سلوكا بورجوازيا ، متهافتا ، يصعب تحديد اتجاهه ، لتشابك علاقاته وتداخلها وهو ينعكس بجلاء في قيمة الموضوعات التي يتطارحها الشعراء ، كخصيصة لازمة ، لمعانقتهم روح العصر ، وتشربهم لمختلف الاتجاهات المتباينة ، فهم يضعـون الاغراض الى جانب الرؤيا ، ويزاوجون بين مفهومي الخلق التجريبي ، والنظـم التقليدي •

هناك عدة مستويات لا يحيط بها اتجـاه الشعر الحديث في المغرب : فوجه الوعي التاريخي فيه ، على سبيل المثال ، يكاد أن يكون في عمق تجربيه معدوما ، ذلك أن الارتباط الطبقي المحدود ـ المقصود ، ونوع العلاقات التـي يمارسها الشعراء ببالغ الجهد والمعاناة ، تعوق ما يمكن أن يدفع الشعر بضرورة ما ، نحو انطلاقة جديدة ، بمفاهيم جديدة : تعبر عن الانطلاقة عادة ، بالتحرر من اسار الموروث التقليدي الكابوسي ، وعن المفهوم ، باستشراف مواقع التغيير وضرورته الانية •

وبالنسبة للشعر المغربي الحديث وطاقته في ابداع الواقع ، تبدو امكانيات التغيير محدودة ، وذلك للاعتبارات التالية :

أولا ، ان موقف الشاعر في المغرب ، يرتبط ان قليلا أو كثيرا ، بوضع طبقي معين ، فهو يعبر عن تطلعاته من خلال الرؤية الطبقية • وهو يمتلك جهدا فرديا ، حصيلة تراوحه بين الدفع والجذب ، يغنيه عن وعي العالم الخارجي بكل تناقضاته •

ثانيا ، ان موقف الشاعر المغربي من السلطة ، هو في الوقت نفسه موقف من الابداع ، والتحول ، والخلق ، كقضايا فنية • يعمد الشاعر الى مجافـاة المؤسسةالسلطوية بانعزال سكوني حالم ، يبعده عن مباشرة الوجود الشعري السياسي •

ثالثا ، ان الشاعر في المغرب ، لا يسد منافذ البناء المجتمعي ، بمشاركة غنية ، قد تثري التحول من وجهة ما • فالشعر المغير ربيب الزخم الثـوري ، وتستحيل الكلمة الى ضد المجموع في غير هذا الوضع •

هكذا يتبدى جليا ثالوث أزمة الشاعر الحديث في المغرب : فتكوينـــه النفسي رغم ما يعتريه من تقلبات ، تساوقا مع الاوضاع الخارجية ، يخلق لـه متاعب جمة ، هي الطريق المغلق الى الرؤية الشعرية الواضحة ، والى التجربة ، والى الخلق ذي المضامين ، والى المعاناة • والالم السطوي المفروض بمبـــرر سياسي ما ، يجنبه علامة الطـــريق ، على درب شائك ، لا مناص من أن يعيره الشاعر المغربي المتخلف ، صحبة التحولات الكبرى التي تمزقه بأصالتها ، ثم ان الوضع المجتمعي السكوني ، يعدد مهام الشاعر ، فتكفلها قوى عاملة فـي الميدان ، متصارعة من أجل البقاء الحر ، في وقت يختلق لها الشاعر مبررات ، وهذا يوضح بالتالي ان استعداد الشاعر المغربي ، للتنازل عن مكاسبه الطبقية، لهدف معين ، يبقى معلقا بخوض قضية كبرى ، قضية الابداع الإساسية ، في كل نظرية تطمح الى اقتلاع اليابس الفاسد ، وتركيز الاسس •

II

هل يمكن أن نتكلم على شعراء متميزين في المغرب ؟

أعتبر أن الموروث الشعري بكل ثقله ، هو دائرة الاهتمام في تطلـــع الشعراء الجاد ، وبعض المحاولات الشابة الجريئة (أحمد بن ميمون ، محمـد الشيخي ، الخمار ، بنيس (١) ومحمد الشعرة (٢) ••) تنقرض بارادتهـا في التوهيمات الذاتية التي ينسجونها ، كبديل لغياب قضية ما ، في محاولة التمرد أو الرفض • نتكلم على التمرد بالنسبة اليهم كانطباع فردي ، أو اتجاه خاص ، وليس كقيمة عملية ، ترتبط أساسا بخلفيات طبقية ، وايديولوجية ، وفكرية وسياسية • وعلى الرفض كارتجال لمراجعة الواقع الموضوعي ، أو اعادة نفيه • هكذا • ومن ثم فان الشعر الحديث في المغرب ، لا يشكل اتجاها محددا في وضع أكبر ، هو وضع الادب العربي الحديث ، أو طريقا يعبره الى لقاء حار بينه وبين المعاصرة ، كشكل ومضمون في المشتل التجريبي • وهذا أدعى لتقييمه بمنهج يتصدى له في جماليته المتحجرة ، لانتشاله كخطوة ، من ظلام القرون الدامس ، ومن ظلام الوضع • فطريقة عرض المضمون ـــ لا نتكلم على الشكل ـــ ووضعه على حافة منهج تجريبي الفهم والتوقع والمعاناة ، لا تواكب متطلبـات التجديد هنا • وهذه قضية يبدو أن النقاش حولها في المغرب يعيرها الاهتمام البالغ ، وهذا مدلول أن يواجه الشعر تحديا عصريا ، يوقعه في شراك مـــع الحداثة الفنية وطريقي الابداع ، والاصالة •

ففي المغرب تختلط الاصوات الشعرية ، بل تتحد ، ليس لكثرتهـــا أو

(١) له ديوان : ما قبل الكلام •

(٢) له ديوان : دوائر الاصفار •

لقلتها كما يبدو ، بل لعدم تميزها كطاقات ابداعية متفردة • هناك أصل واحد لتنويعات ، أخالها ترتبط بطريقة أو بأخرى ، بموروث عقائدي يعدد الانطلاقة ويوحد الهدف •

يظل الطبال (من جيل الوسط) ذلك المتمرس على ضروب من الاشواق الحزينة ، حصيلة الانطواء على استبطان لواعج الذات بحيث يستحيل القصيد لديه ، الى ضرورة تفريج عن خاطر رومانسي •

وفي دراسة سابقة عنه (٣) قلت : أستطيع أن أؤكد أن التقاليد الكلاسيكية ما زالت تستحوذ على فكر الطبال ، مطبوعة بالرومانسية الحالمة الى حد ما • وبصورة أكيدة فان الشكل الشعري لديه لا يزال يتأرجح بين الاطار العمودي التقليدي ، متموضعا في تلقائية القصيدة ، وجمالها الحسي ، ومصطبغا بالصور المتطورة ، التي تجسم رتابة التجربة في أرقى مستوياتها ، وتفت في عضدها البنائي ، كقصيدتي « يافا ، وكلمات طفل » مثلا ، وبين الوجه الاخر للقصيدة الحديثة في شكلها المنسرح ، وخطوة جريئة ، فان « الطبال » بحكم الحداثة الفنية يدور غالبا في فلك المنزع الثاني ، أقرب المسالك الى بلوغ معاناة الفعل الانساني • ويبدو منساقا فيه بكل طواعية » ص ١٠ •• وقلت كذلك : ان قصائد الطبال في حدود هذا التفسير لا تحمل نموذجا للتحدي الفكري ، ويأتي الاحساس بدعامة هذا الموقف من صلابة الذات وتواجدها المفتوح على التيارات الكيانية عموما •

II

يكون الشعر ظاهرة برجوازية في مجتمع ما ، حين يخدم مصلحة طبقية ، حين يعمي الواقع برؤياه ، فهو يخادع ، ويكف عن الجدل ، ونحن نطمئن الى الشعر السياسي أكثر • انه في حالة تطرفه الزائغ ، موضوعيا ، يكون مقيدا بحركة التاريخ ، وهو الى ذلك يستفيد من التواجد الانساني المفتوح ، انه يدعى معرفة زائدة بالحركة التي تسود الكون • وعندي أن مواقع هذه التجارب الموضوعية تغرب في أفق الشعر المغربي الحديث ، أو هي تتلون فتستحيل الى تجارب للمغامرة ، تخدم رباط العاطفة بالحلم ، والشعور الانفصالي المنعزل ، والعلاقات الجنسية •• فما يعبر عنه الشاعر الشاب أحمد بن ميمون بالنبوءة •• ليس الا حلما عاري الدلالة ، يدغدغ خيال جسد مريض بالجنس يعيره الاهتمام الكلي : أين تقف الرؤية ، من عري الاسرار المعبر عنها بوضوح في القصيدة ؟ هي تختزل انطلاقة المكبوت الجنسي « كطريقة حياة » كما يعبر حليم بركات في عودة الطائر الى البحر • الوجدان يغتني من فيض الخيالات ، ولكن طريقة تعبيره عن أعماقنا ، ما لا يدركه الشاعر ، تسلب وجودنا كذوات ، نمارس الحياة في الخارج بحيوية أو بروح منعشة ، فماذا يجدي الشاعر أن يتوقع كل مساء في سريره ؟

---

(٣) الشعر وحافة الوعي ، الملحق الثقافي لجريدة العلم العدد ٦٥ السنة الثانية •

أستنطق أعضائي ، أقرأ تاريخي ٠
سفر التخويف المكبوت
أتنفس دخانا ، ماذا يجري ؟
هل آكل من لحمي الاصفر ؟

حتى يقول :
تنبئني الرؤيا في عيني هذه المرأه
أني لو لم أغتصب القبله
لن أنثر فيها سر الخصب
لن تفهمني لن يشبع جوع القلب ٠

غير أن الشاعر يشتهي العالم بفرح ، ويعتقد أن مفاهيمه تسوده ، فشعره توراة القرن ، ينعي « الزمن » الموبوء ، وانتهاء العالم ٠٠ وهكذا يولد « حزن مكتمل الاوصاف » ٠ الجنس كمقولة يطارد الشاعر ، بعنف ، بقوة ، وان اشتهاءه للعالم يعبر عنه بنزوعه تجاه التصور الكامل له ٠

« ما أروع أن تقتل أحزاني المنهمره
فاتنة تطرق بابي في منتصف الليل ٠
تدفع عني أوهاما ، تتساقط من حولي الاحجار »

أريد أن أقول : أن الشعر يبتدىء من حيث ينتهي هذا الحلم ، الشعر من حيث هو نتاج تناقض داخلي عميق ، انه تغيير في الداخل ، قبل أن يكون تغييرا خارجيا ٠ ماذا يستطيع الشعر في هذا المستوى اذن ؟ ٠٠ انه « يرثي العالم الضائع » ٠ انه « يتأمل أحوال الانسان في المأساة » ويتدبر في يأس هول المأساة » فواجب هذا التصدع الفيزيائي :

أن نغرق في كأس
نمشي في الشارع كل مساء
فنغني عن أشواق
ونثرثر شأن العشاق
خير من أن نجلس للتفكير ٠
ما أجمل أن يفقد انسان ذاكرته
في هذا العصر المحقور ٠

ليس لان التخاذل ، يظل حبيس الكلمة ٠٠ فالفعل الموضوعي تنعكس عليه هذه الظلال الموصوفة « بحزن تحت الامطار » ٠ وقيمة الفعل تنغرس في جوفنا ، حالما انفردنا بفهم موضوعي يشاكل تجربتنا « نحن » في المعترك ، الفهم الجيد الذي يتطلب صمود « حتى » الشعر ٠

ان استقراء بعض النماذج الشعرية بفهم ثوري معين ، يخيب ظن الباحث عن ماهية قصوى ، في جدوى الشعر في المغرب ٠ فكون الشعراء الشباب الذين يعول عليهم يستمدون رؤياهم من انعكاس ألم الذات ، على الوجدان الشخصي ، لا يفيدنا مطلقا في رصد تجربة كلية تستمد قوتها من نضالنا ٠ فالشعر في بلد

متخلف ــ كالمغرب ــ يبدأ من المواجهة ، والشعراء في بلد متخلف ــ كالمغرب ــ يريدون تغيير مجرى النشاط السلطوي بالنشاط الشعري اذا صح التعبير . وأكيد أن الشعر المغربي الحديث ، لا يمكن أن يتطور في حدود الفهم البسيط للجدل التاريخي ، أو الاصلاح والبناء ، كما يحلو لبعض الشعراء أن يعبروا . فانعدام النظرية الثورية ، فضلا عن الممارسة ، يساعد على استبقاء الشعر في حدوده الاولية ، أعني ترسيب لواعج الذات الى الوجدان . في حدود هذا التفسير ، نحاسب الشعراء بقيمة عطائهم ، الفني المتطور ، ولكن دور الشعر في المغرب في الستينات ، ظل متخلفا ، انسجاما مع وضع البنى الاجتماعية .

IV

تتجاوز بعض أشعار الشباب ، بقيمتها الذاتية ، سكون الواقع ، فتكتسب معنى التنبؤ الحسي ، والخطو المنظم . الا أن التلوينات الحزينة التي تتخلل أبعاد رؤياهم ، بلدت ما أسميته بالتنبؤ الحسي في وضعه الجنيني ، فتغير من نهج الرؤيا الموضوعية ، الى محج يستلزم اضافات ذاتية للعبور . والانطباع الذاتي الحزين في واقع الامر ، يشكل تعبيرا عن ماهية الشاعر ، بطريقة ملتوية ، وحزنه ، هو حزن طبقة في وضعها المأساوي الرث .

وهكذا تتبدى هموم هذا الجيل ، وهي تنكفيء عليه ، من زوايا عدة . وكان الشاعر في المغرب الى وقت قريب ، يستبعد هذه المثاليات النفسية اللاواعية . اذ لم يكن استقرار الشاعر الطبقي يتطلب أكثر من اغناء ذاته على حساب الاخرين ، ومهما يقال عن هذا السلوك الامتهاني ، فان الشعر كان خير معبر عنه .

أدل القارىء على شاعر متأخر من هؤلاء ، هو حسن الطريبق الذي يدخر طاقة شعرية موروثة ليوم موعود ، يعبر عنه حينا « بعد عام » ، و «همسة» و « حكاية » ، وكلها قصائد نسجت قلبا وقالبا على منوال تقليدي ، وأحيانا « بالنتن والخواء » . فهو يقف على طرفي نقيض من الشعراء الشبان ، ويفلح في تزكية الشعر التقليدي الموروث من بشائر ما يسمى عند أولئك بالمستقبلية في الشعر .

هناك مجموعة من الشعراء ، استنفدوا ذخيرتهم الشعرية ، أو هم : استبدلوا الشعر باهتمامات ثقافية أخرى ، أذكر منهم : أحمد المجاطي ، الحبيب الفرقاني (له ديوان «نجوم في يدي») وأحمد صبري، (له ديوان «أهداني خوخة ومات») ، هؤلاء الشعراء لاعتقادهم بعدم جدوى الكلمة في وضع يلحق ثالوث الهزيمة بالفرد : نفسيا وايديولوجيا واجتماعيا ، انسحبوا بارادتهم في وقت يدفع فيه الشعر في المغرب ، ضريبة الابداع الاساسية ، وكاد التزامهم بقضايا معينة ، يخلق منهم نباتا شيطانيا في محيط الشعر .

V

أتساءل : هل يمكن أن نتكلم على شعر مغربي ثوري ، في اطار وعـــي سياسي أو ايديولوجي ما ؟ ان بعض التجارب تؤكد اغتراب الشعر الثوري في عصر التقدم والثورة • وان خصوصية الشاعر ، كعرف طبقي هي البديل الاوحد للتوهيمات الشعرية ، تبقى منوطة عندئذ ، بارتقاء الذات الى علياء الخيال البديع بتفردها ، بالحزن الرقيق المستلذ ، وبالنشيج الهامس ، والقنوط ، أي بعالم الشاعر الخبيىء •

ينفرد عبد الرفيع الجوهري في حدود هـذا الفهـــم ، بطقس شعري خاص ، فهو يمتلك حدا من أساسيات التعبير عن جوهر ما • وأدركه بولعـه الدفين في الحديث عن الفقر ، وعن الحزن ، وعن عيون الاميرة فـي مدينـــة قديمـــة :

قلبي أنا حمامة
لا تستطيع أن تطير ••
في غابة الاميره
قلبي أنا حمامة ،
وعشها مدينة قديمه

ولكن ارادة الشاعر ، لا تفي بمطلب الشعور ، لا تفي بجهدها في تمجيد المطالب الاساسية ، ولا يمكنها ذلك :

لا لست أنا عنترة
لست أنا سيف الله علي
آتيك برأس اللص على حربه
أنا خلف السور هنا ، مثل جميع الفقراء
لا أملك الا الاحزان ،
لا أملك الا الاشعار •• (من قصيدة أبيات علي الحيطان)

ترى هل يملك الشاعر ، بولع تنظيره ، ويقودنا مرحليا ، في اتجاه ما ، في صيغ نظرية ، هل حصيلة تجربة « أصوات في المنفى » « وأصوات من المدينة القديمة » كلها قصائد توحي بنضج مفهوم الشعر الحديث ، وحصيلة نظـــرة فوقية ، تعترض طريق الحركة في الشعر ؟ في رأيي يتم ذلك بوعي قانون الحركة المستمر ، الديناميكي ، وبفهم ضرورة الشعر داخل الوضع الطبقي الاجتماعــي التصادمي • لكن الاختيار السهل يوجه سلوك المبادرة الى التسويف ، والــى ارجاء الفعل ، والى التخاذل ، كأن يقول وازع ضمير الشعر في فكر الجوهري :

سأكتب الاشعار في المنفى
سوف أغني داخل الزنزانه ••

من أجل أن يصحو في قلوبنا عبد الكريم (١)
نحن اليتامى الفقراء
من أجل أن تشرق في عيوننا
كنجمة الميلاد
قيامة الحقيقه ٠٠ (من قصيدة أصوات في المنفى)

في مقابل هذه التجربة ، تمضي مليكه العاصمي ، في زحمة التصورات الباهتة ، لوضع تراه مكدسا ، يلفها حلم تعس بقيامة مفقودة ٠ فبين الهجر والفراق في جل قصائدها يتمركز الحب ، بديل الجوع الجنسي ، وبين « الاستسلام » و « التعاسة » يرتبط الحلم بموصوف خارجي نفتقده ، يستمد الحياة من رواسب المخلف ، ويتوق الى معانقة الوضع ، بحيث تواكب ما يدعى منطق الاستسلام الشعوري ، ويتم تفجير هذا الاحساس باكتشاف الموقع الطبقي لارضية الرؤيا ٠

VI

أفهم أن وجهة الشعر المغير في المغرب ، تتحدد بدرجة الوعي المتمكنة من العالم ، وما لم يحدث التغيير في وجهة الشاعر ، وطريقة تناوله الشعري ، بفهم متطور ، يرأب الصدع المتفشي بين الواقع الموضوعي ، والحلم الشعري الخاص ، وتفكيك بنية اللغة العصية لتستوعب التجارب النوعية في حقل يخصب بقدرة العطاء الناضج ٠ ما لم يحدث التغيير ، فان أمشاج التجريد والتجريب ،وعوالق الانطباعات الرومانسية ، والحكايات ، لن تقلع عن ترسيب الهلوسة وتثبيتها في النفوس الشاعرة ٠ يكون الهدف تغطية الوقائع الدالة ، بحلم زائف متنكر ٠

وأفهم كذلك أن اتجاهات الشعر المغربي ، لا تعكس مضمونا واعيا : فجملة الوقائع الخارجية لاعتباراتها الدالة ، تجيء بعد مطالب الوجدان المتفرد، في التعبير ، في الادراك ، وفي الفهم أيضا ٠ اذ يستأثر الوجدان بكل مطلب ، وتفقر الوقائع بشكل مخيف ٠ ليس لان الشعر يمتهن من أجل تسجيلها بدقة ، بل لان الانضباط في واقع مجتمعي متخلف ، عبرنا عن المشاركة فيه « بالمواجهة » يفرض المرونة ، الى جانب أنه يفرض الوعي الشعري ٠ ولا يختلف معي الشعراء في المغرب بأن أولويات التغيير تستبد بفكرنا ، فهي تهاجم الحلم ، اذا كان من حقي أن أعمم بهذا الشكل ٠

ان الحالة الخاصة لوجود الشعر في المغرب ، ارتباطه بمواضعات خارجية ، درجة واعيه بالعالم ، تجديده ، كيف ، ولماذا ؟ تفرض بداءة : تقييم الوضع ، فالشعر من حيث هو نتاج ، وتفاعل ، ومعاناة ، وخلق وابداع ٠٠ ينظر الى الخارج من زوايا متعددة ٠ ان الوضع يهدد الوجود

(١) بطل ثورة الريف شمال المغرب ٠

الشعري • عبر عن هذه الفكرة محمد الحلوي بأن الشعب الذي ينشد الخبز ، لا ينشد الشعر • الانطلاقة تتم اذن بتوضيح الموقف ، أبعاده ، آفاقه المستقبلية • ان الحالة الخاصة لوجود الشعر في المغرب ، ارتباطه بمواضعات خارجية ، درجة وعيه بالعالم والاخرين ، تجديده •• كيف ؟ ، ولماذا •• ؟ يفرض كذلك ، تحديد التركيب الفكري من : الطبقة ، والتراث ، ومن اللغة كوسيلة للتواصل اليومي ، ومن الدين ، ومن الدولة ، اذ ليس هناك من اعتبار شمولي يختزل هذه الموضوعات ، ويحد من تناقضاتها داخل المجتمع الواحد وبالاحرى في نفس الشاعر ، الذي يوظف شعره لصالح التطور بمفهوم عام • ان نسف الاطر المثالية الراسية ، وتجاوز التراث بمفهوم متحرر ينبجس من خصائص الذات المتواجدة على العالم ، وتفجير طاقة اللغة الحبيسة ، مع مراعاة لوازم التطور بها ، والدين كحالة ، والدولة كجهاز • هذه الامور من مهام التغيير الضرورية ــ الملحة • وفي رأيي ، أن الشعراء الشبان في المستوى الذي توحي به أشعارهم ، وهذا ما نفترضه ، لا يقوون على هضم هذه الافكار • فواجب الموروث العقائدي المتمكن ، أن يسلب كل رؤية نقدية ، مضمونها الهادف • وعلى سبيل المثال فان : أحمد بن ميمون ، ومحمد الشيخي ، ومحمد بنيس ، الخمار ، حسن الغرفي وغيرهم ، يقدمون رؤية مبتسرة ، من حيث أن عيونهم تظل معصوبة الى الحلم الشعري ، والى أفق لا يحده مدى الواقع ، الى رغبة تناهض الارادة ، في تطويق النفس التواقة دوما الى ما ينبغي أن يكون ، بسياج من التوهيمات ، ومن الحزن ، والبكاء •

كذلك الامر ، يستوي ، بالنسبة لجيل الوسط •

ولتحديد الفكرة ، أتساءل : بماذا يمكن أن نصف العطاء الشعري في المغرب ، على مدى ربع قرن ؟ أتساءل كذلك ، كيف يمكن أن يتحول اغتراب الشعر في المغرب الى ممارسة ماهيته السلبية ؟ وكيف يمكن أن يتم هذا التحول ؟

ليس في وسع الناقد أن يجيب ، الا بأن يؤكد على وجوب التعاطف بما فيه التواجد المفتوح ، والمعاناة ، بما فيها من أبعاد التجربة ، والرؤيا والخلق ، بما فيه من أبداع ووعي •

عبد القادر الشاوي
(تطوان ــ المغرب)